دراسات عن

القرآن الكريم

فهرسة أثناء النشر/ إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية. إدارة الشئون الفنية

عمارة، محمد
دراسات عن القرآن الكريم/ أ. د. محمد عمارة. - القاهرة: نيو بوك للنشر والتوزيع/
ط ١ / القاهرة: ٢٠١٧م.
٢٢٢ص؛ ١٤×٢١سم
تدمك: ٣-٥٠-٦٥١٩-٩٧٧-٩٧٨
رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٧٨٣٢
١ - الخطب الدينية الإسلامية
أ- العنوان ٢١٣

دار النشر:	نيو بوك للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب:	دراسات عن القرآن الكريم
تقديم وتحقيق	أ. د. محمد عمارة
رقم الطبعة:	الأولى
تاريخ الطبع:	٢٠١٧

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

ويحذر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نيو بوك للنشر والتوزيع
٦ عمارات الدفاع الوطنى - حدائق القبة - القاهرة
ت: ٠١٠٩٢٦٧٣٢٧٤
newbooknb@gmail.com

دراسات عن
القرآن الكريم

بأقلام

الإمام الأكبر الشيخ
محمود شلتوت

العلامة الشيخ
أمين الخولي

الإمام الشيخ
محمد الطاهر بن عاشور

العلامة الأستاذ
محمد فريد وجدي

العلامة الأستاذ
مصطفى صادق الرافعي

تقديم وتحقيق
أ. د. محمد عمارة

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع
2017

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المضوعات	صفحة
تقديم: الإعجاز المتحدى للقرآن الكريم	11
التعريف بالإمام محمود شلتوت	21
التعريف بالعلامة الشيخ أمين الخولى	25
التعريف بالعلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور	29
التعريف بالعلامة محمد فريد وجدي	34
التعريف بالعلامة مصطفى صادق الرافعي	43
القرآن.. لفضيلة الشيخ محمود شلتوت	47
❐ القرآن فى الوضع اللغوي	47
❐ القرآن عند العلماء	48
❐ المعنى وحده ليس قرآنا	50
❐ زعم أن أبا حنيفة يرى أن القرآن اسم للمعنى فقط	52
❐ حكاية الشرائع السابقة فى القرآن	54
❐ حكم القراءة الأحادية فى الاحتجاج	56
❐ المقصد من إنزال القرآن	56
❐ محتويات القرآن	59
❐ القرآن ليس مبتكرا فى كل ما جاء به من أحكام	62

❐ نهج القرآن فى بيان الأحكام 65
القرآن الكريم.. لفضيلة العلامة للشيخ أمين الخولى 73
❐ اسمه 73
❐ نزوله 74
❐ أسباب نزوله 78
❐ أبحاث فى النزول 80
❐ لغة النزول 82
❐ جمع القرآن 84
❐ جمع أبى بكر 95
❐ جمع عثمان 95
❐ كتابة القرآن 101
❐ قراءة القرآن 110
❐ ترتيب القرآن 119
❐ تقسيم القرآن 122
فى إعجاز القرآن.. الإمام الشيخ الطاهر ابن عاشور 125
❐ مبتكرات القرآن 154
❐ عادات القرآن 161
رد شبهات عن القرآن الكريم.. العلامة الأستاذ محمد فريد وجدى 173
❐ الدواعى التى تدفع لتحريف الكتب السماوية 177
▪ امتناع السبب الأول من أسباب التحريف 178

- امتناع السبب الثانى للتحريف 179
- امتناع السبب الثالث للتحريف 181
- امتناع السبب الرابع لتحريف الكتب السماوية 183

❐ نسخ الأحكام ونسخ بعض الآيات 184

❐ شبهات خصوم الإسلام على القرآن 186

القرآن والعلوم.. العلامة الأستاذ مصطفى صادق الرافعى 205

تقديم
الإعجاز المتحدى للقرآن الكريم

منذ اللحظة الأولى لنزول القرآن الكريم - بمكة المكرمة - وعلى امتداد سنوات نزوله بالمدينة المنورة كان الإعلان عن أنه «المعجز المتحدى» و«التحدى - المعجز» لا للعرب وحدهم ولا للبشر المعاصرين فقط بل للإنس والجن قاطبة، عبر الزمان والمكان، و إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد تحداهم أن يأتوا بمثله فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بحديث مثله، فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، وأن يستعينوا على ذلك بكل من وما دون الله - سبحانه وتعالى - وقطع قطعًا جازمًا ومتحديًّا بعجزهم عن ذلك، عبر الزمان والمكان.

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ [البقرة: 24].

نعم! ففى سورة الإسراء - المكية:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: 88].

وفى سورة هود المكية:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ

ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [هود: 13 - 14].

وفي سورة الطور المكية:

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: 33 - 34].

وفي سورة البقرة - المدنية:

﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: 23 - 24].

❐❐❐

ولقد اجتمع الفصحاء والبلغاء من قريش وانتدبوا أحد زعمائهم.. وبلغائهم وقضاتهم.. والملقب «بالعدل»؛ لأنه كان عدل قريش كلها.. انتدبوا «أبو عبد شمس الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم (95ق.هـ - 1هـ.530 - 622م) ليسمع القرآن وليجيب على التحدى فذهب إلى رسول الله ﷺ - وهو بالمسجد - وسمع منه سورة غافر، فما كان من عدل قريش وقاضيها وزعيمها إلا أن شهد وهو على شركه وزندقته فقال لقومه:

والله لقد سمعت من محمد كلامًا آنفًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن والله ما هو بكاهن فقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، ووالله ما هو بمجنون، فقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، ووالله ما هو بشاعر فقد عرفنا الشعر كله رجزه

وهزجه وقريضه ومقبوضة ومبسوطة، فما هو بشاعر، ووالله ما هو بساحر فقد رأينا السُّحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عُقده..

واللـه إن لقوله حلاوة، و إن عليه طـلاوة، و إن أصله لمغدق، و إن فرعه لمثمر، و إنه يعلو ولا يعلى عليه، وما أنتم (يا معشر قريش) بقائلين (فيه) من هذا شيئًا إلا وأنا أعرف أنه باطل.»[1]!!

❐❐❐

ولقد اسـتمر التحدى على امتداد التاريخ واستمرت الشهادات - شهادات العلماء الخـبراء الحكماء البلغاء للقرآن الكريم.. للتحدى المعجز والإعجاز المتحدى، ومن نماذج هذه الشهادات:

قول الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين (245 - 298هـ / 859 - 911م):

«القرآن: محكم ومتشابه، وتنزيل وتأويل، وخاص وعام، وحلال وحرام، وأمثال عبر، وأخبار وقصص، وظاهر وباطن.

وكل ما ذكرنـا يصدق بعضه بعضًا، فأوله كآخره، وظاهره كباطنه، ليس فيه تناقض.. نأخذ بمحكم القرآن، ونقر بمتشابهه، إنه من الله:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: 7].

فلذلك جعل المحكم إمامًا للمتشابه»[2].

(1) الصالحى الشامى [سبل الهدى والرشاد] جـ2، ص 472، 473. طبعة القاهرة 1418هـ، 1997م.

(2) [رسائل العدل والتوحيد] جـ2، ص 101. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة، 1988م.

وعلى امتداد تاريخ القرآن الكريم، أبدع العقل المسلم من حوله التآليف فى فنـون «علوم القرآن» إعانة لطالبى تاريخـه وأسراره، و إقامة للحجة على المعاندين حتى غدت الشـهادات عـلى تحدى القرآن و إعجـازه فنًا من فنون التأليف التى تحتاج إلى الجمع والتأليف والتصنيف..

وفى عصرنـا الحديث كتب الأسـتاذ الإمام الشـيخ محمد عبـده (1266 - 1323هـ، 1849 - 1902م) وهو من أئمة البلاغة والبيان فى عصره - كتب عن إعجاز القرآن الكريم وتحديه، فقال:

«لقـد جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تتطرق إليه الريبة أن النبى ﷺ كان فى نشأته أميًّا.

وتواتـرت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال إنه أنزل عليه، وأن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف والمحفوظ فى الصدور..

نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عنـد العرب وأغزرهـا مادة فى الفصاحـة، وأنه الممتاز بوفـرة رجال البلاغة وفرسـان الخطاب، وأنفس ما كانت العـرب تتنافس فيه هو الغلب فى القول والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ومقر الإذعان من العقول..

وتواتـر الخبر كذلك بمـا كان منهم من الحرص عـلى معارضة النبى ﷺ والتماسهم الوسائل لإبطال دعواه.

ولقد تحداهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله، وكان فى استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء البلغاء ما شاءوا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به ليبطلوا الحجة و يفحموا صاحب الدعوة.

وجاء الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدى، ولجاج القوم فى التعدى أصيبوا بالعجز، ورجعوا بالخيبة، وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام، وقضى حكمه العلى على جميع الأحكام. أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمى أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر؟ وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهى، والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان النبى الأمى، صلوات الله عليه؟

ولقد ثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمدًا ﷺ رسول الله إلى خلقه فيجب التصديق برسالته، والاعتقاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة.

وقد جاء فى الكتاب أنه خاتم الأنبياء، فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك.

إن القرآن كلام سماوى تنزل من حضرة الربوبية، التى لا يكتنه كنهها، على قلب أكمل الأنبياء.

وهو يشتمل على معارف عالية، ومطالب سامية، لا يشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكية والعقول الصافية.

وإن الطالب له يجد أمامه من الهيبة والجلال، الفائضين من حضرة الكمال، ما يأخذ بتلابيبه، ويكاد يحول دون مطلوبه.

ولكن الله تعالى خفف علينا الأمر، بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه؛ لأنه إنما أنزل الكتاب نورًا وهدى، مبينًا للناس شرائعه وأحكامه، ولا يكون كذلك إلا إذا كانوا يفهمونه.

فداوم على قراءة القرآن، وتفهم أوامره ونواهيه، ومواعظه وعبره، كما

كان يتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحى ثم اذهب إلى ما يشخصك القرآن إليه، واحمل بنفسك على ما يحمل عليه..

ولقد خط القرآن للعرب طرقًا للتعبير، ومهد لهم سبلًا جديدة لصوغ الأساليب، ليخرج بهم من ضيق ما كانوا التزموه، ويبعد بهم عن تكلف كانوا رئموه - (أحبوه وألفوه).

ولقد كان البدوى راعى الغنم يسمع القرآن فيخر له ساجدًا لما عنده من رقة الإحساس ولطف الشعور..

ولقد قال الأصمعى: (122 - 216هـ / 740 - 831م): «سمعت بنتا من الأعراب - خماسية أو سداسية - تنشده:

استغفر الله لذنبى كله

قتلت إنسانًا بغير حله

مثل غزال ناعم فى دله

وانتصف الليل ولم أصله

فقلت لها: قاتلك الله ما أفصحك!! فقالت: ويحك! أيعد هذا فصاحة مع قوله تعالى:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: 7].

فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين[1].

(1) [الأعمال الكاملة] جـ3، ص 435 - 438. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة 1993م.

أما تلميذ الأستاذ الإمام، زعيم الأمة.. وقائد أعظم ثورات الشرق فى القرن العشرين سعد زغلول باشا (1273 - 1346هـ، 1857 - 1927م) الذى انتقد كتاب (الإسلام وأصول الحكم للشيخ على عبد الرازق) (1305 - 1386هـ، 1887 - 1966م) سنة 1925م لما فيه من محاولة لعلمنة الإسلام، وانتقد كتاب الدكتور طه حسين (1306 - 1393هـ، 1889 1973م) (فى الشعر الجاهلى) سنة 1926م لما فيه من تطاول على الصدق التاريخى لبعض قصص القرآن، وكتب ثناء مستطابًا على نقض العلامة محمد فريد وجدى (1295 - 1373هـ، 1878 - 1954م) لكتاب (فى الشعر الجاهلى) فإنه هو الذى تحدث عن الإعجاز المتحدى للقرآن الكريم فى تقديمه لكتاب العلامة مصطفى صادق الرافعى (1297 - 1356هـ، 1880 - 1937م) (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) سنة 1926م، فقال: «لقد تحدى القرآن أهل البيان فى عبارات قارعة محرجة، ولهجة وأخذه مرغمة، أن يأتوا بمثله أو سورة منه، فما فعلوا ولو قدروا، ما تأخروا، لشدة حرصهم على تكذيبه، ومعارضته بكل ما ملكت أيمانهم واتسع له إمكانهم.

هذا العجز الوضيع بعد ذلك التحدى الصارخ، هو أثر تلك القدرة الفائقة، وهذا السكوت الذليل بعد ذلك الاستفزاز الشامخ، هو أثر ذلك الكلام العزيز»[1].

❐❐❐

أما الرافعى، وهو من أئمة البلاغة فى القرن العشرين.. فهو القائل عن القرآن الكريم: «إن القرآن أنزل لتكون كل نفس سامية نسخة حية من

(1) سعد زغلول، تقديم [إعجاز القرآن] للرافعى، الطبعة الأولى.

معانيه، وليكون هو النفس المعنوية الكبرى فهو كتاب، ولكنه مع ذلك مجموعة العالم الإنسانى»[1].

❐❐❐

وإذا كان أساطين البيان والبلاغة والفصاحة من مشركى قريش فى القرن السابع الميلادى قد شهدوا بأن هذا القرآن الكريم لا يمكن أن يكون قول بشر.. شهدوا بذلك وهم على شركهم ووثنيتهم.. فإن القرن العشرين قد حفل بشهادات عدد من خبراء اللاهوت، الذين تبحروا فى الكتب المقدسة لدى الديانات السماوية الثلاث اليهودية والنصرانية والإسلام، حفل بشهادات من هؤلاء اللاهوتيين الخبراء للقرآن الكريم بأنه وحى الله المباشر إلى محمد ﷺ الذى لم يصبه أى تحريف ولا تغيير ولا تبديل، وأنه عندما تحدى البشر بأن يأتوا بشيء من مثله ما كان لأى من البشر أن يستطيع الاستجابة لهذا التحدى المعجز؛ لأنه ليس فى استطاعة أى من البشر أن يتحدى آيات الله - القرآن الكريم.

ويكفى أن نشير إلى شهادة القس الأنجليكانى العلامة الإنجليزى مونتجمرى وات (1909 - 2006م) وهو قسيس ابن قسيس، عمل راعيًا بالعديد من الكنائس الأنجليكانية فى لندن وأدينبرة والقدس.. وبعد فقهه لليهودية والنصرانية، وكتبهما المقدسة، أمضى أكثر من ثلث قرن فى دراسة العربية والإسلام وتوج هذه الخبرة العلمية بشهادته للقرآن الكريم من موقعه كقس نصرانى فقال: «إن القرآن هو وحى الله المباشر إلى محمد، إنه صادر عن الله، وبالتالى فهو وحى وليس كلام محمد بأى حال

(1) المرجع السابق.

مـن الأحـوال، ولا هو نتاج تفكـيره، و إنما هو كلام اللـه وحده، قصد به مخاطبة محمد ومعاصريه، ومن هنا فإن محمدًا ليس أكثر من رسـول اختاره اللـه لحمل هذه الرسـالة إلى أهل مكة أولًا، ثم لـكل العرب، ومن هنا فهو قـرآن عربي مبين، وهناك إشـارات إلى أنه موجه للجنـس البشرى قاطبة، وقد تأكد ذلك عمليًّا بانتشـار الإسـلام فى العالم كلـه، وقبله بشر من كل الأجنـاس تقريبًا... وهو يحظى بقبول واسـع بصرف النظر عن لغته؛ لأنه يتناول القضايا الإنسانية...

إننا نؤمن بصدق محمد و إخلاصه عندما يقول: إن كلمات القرآن ليست نتيجة أى تفكير واعٍ منه...

وعندما تحدى محمد أعداءه بأن يأتوا بسـورة من مثل السور التى أوحيت إليه، كان من المفترض أنهم لن يسـتطيعوا مواجهة التحدي؛ لأن السور التى تلاها محمد هى من عند الله وما كان لبشر أن يتحدى الله..»[1].

❐❐❐

هكـذا مثـل القـرآن الكريـم ولا يـزال وسـيظل «الإعجـاز المتحدى» و«التحدى - المعجز» وبذلك شهد الحكماء الخبراء العلماء البلغاء على امتداد العصور، وصدق الله العظيم:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2] [البقرة: 2].

(1) [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ص34، 35، 39، 40، 206، 51 - 55، 83، طبعة القاهرة، 2001م

(2) انظر كتابنا «حقائق وشبهات حول القرآن الكريم»الطبعة الثانية - دار السلام، القاهرة، 1433هـ، 2012م.

بهذه السطور نقدم لهذه الدراسات عن القرآن الكريم التى كتبها خمسة من أعلام علماء الإسلام:

الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت (1310 - 1383هـ، 1893 - 1963م).

والعلامة الشيخ أمين الخولى (1313 - 1385هـ، 1895 - 1966م).

والإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور [1296 - 1393هـ - 1879 - 1973م].

والعلامة الأستاذ محمد فريد وجدى [1295 - 1373هـ - 1878 - 1954م].

والعلامة الأستاذ مصطفى صادق الرافعى [1297 - 1356هـ - 1880 - 1937م].

سائلين المولى عَزَّوَجَلَّ أن ينفع بهذا الكتاب، إنه سبحانه وتعالى خير مسئول وأكرم مجيب.

دكتور: محمد عمارة

29 صفر سنة 1435هـ

أول يناير سنة 2014م

التعريف بالإمام محمود شلتوت

(1310 - 1383هـ، 1893 - 1963م)

- ولـد - رحمه الله - «بمنية بنى منصـور» - مركز «إيتاى البارود» - محافظة البحيرة - بدلتا النيل - بمصر.
- تخرج فى الجامع الأزهر الشريف.. وحصل على العالمية سنة (1236هـ - 1918م).

• وعين مدرسًـا بمعهد الإسـكندرية الدينى - التابع للجامع الأزهر - سنة (1337هـ - 1919م).

• وشـارك فى ثورة مصر الكبرى ضد الاحتلال الإنجليزى سنة (1337هـ - 1919م).

• وانخرط مع تلاميذ الأسـتاذ الإمام الشيخ محمد عبده (1266 - 1323هـ - 1849 - 1905م) - وفى مقدمتهم الشـيوخ: محمد مصطفى المراغى (1298 - 1364هـ - 1881 - 1945م) ومصطفى عبد الرازق (1302 - 1366هـ - 1885 - 1946م) وعبد المجيد سـليم (1299 - 1374هـ - 1882 - 1954م) - فى العمل عـلى تطوير الأزهر وتجديد مناهج التعليم والتدريس فيه.. وبسـبب ذلك، فصل الشـيخ شلتوت من الأزهر سـنة (1350هـ - 1931م).. فعمل بالمحاماة الشرعية.. ثم أعيـد للأزهر مع انتصار التيار الإصلاحى، وعودة المراغى إلى المشيخة ثانية سنة (1353هـ - 1935م).

• مثل الأزهر فى المؤتمر الثانى «للقانون الدولى المقارن» - بلا هاى - سنة (1356هـ - 1937م).. وقدم إليه بحثه عن «المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية».

• نال عضوية «هيئة كبار العلماء» سنة (1360هـ - 1941م).. وكان أصغر أعضائها سنًا - وتقدم إليها ببرنامج لتنقية كتب التراث الإسلامى من الإسرائيليات.. وآخر لدفع الشبهات عن الإسلام.

• عين عضوًا بلجنة الفتوى فى الأزهر الشريف.

• نال عضوية «مجمع اللغة العربية» سنة (1365هـ - 1946م)، ضمن عشرة من كبار العلماء والفقهاء والفلاسفة والقانونيين.

• انتدبته جامعة فؤاد الأول - القاهرة - لتدريس مادة «فقه القرآن والسنة» لطلاب «دبلوم» الشريعة بكلية الحقوق.

• عمل مستشارًا «للمؤتمر الإسلامى» - بمصر - سنة (1376هـ - 1956م).

• تولى وكالة مشيخة الجامع الأزهر.. ثم أصبح شيخًا له سنة (1378هـ - 1958م).. وصدر فى عهده قانون تطوير الأزهر سنة (1380هـ - 1961م).

• شارك بنشاط فى «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية».. وفى تحرير مجلتها «رسالة الإسلام».

• استقال من مشيخة الأزهر - احتجاجًا على تقليص سلطاته - سنة (1383هـ - 1963م).

• وبعد استقالته بأشهر قليلة - خمسة أشهر - صعدت روحه إلى بارئها فى (27 رجب 1383هـ)، (13 ديسمبر 1963م).

• ومن آثاره الفكرية:

1- «الإسلام عقيدة وشريعة».

2- «من توجيهات الإسلام».

3- «الفتاوى».

4- «فقه القرآن والسنة».

5- «مقارنة المذاهب».

6- «منهج القرآن فى بناء المجتمع».

7- «المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية».

8- «القرآن والقتال».

9- «القرآن والمرأة».

10- «تنظيم العلاقات الدولية فى الإسلام».

11- «الإسلام والوجود الدولى للمسلمين».

12- «تنظيم النسل».

13- «رسالة الأزهر».

14- «إلى القرآن الكريم».

15- «يسألونك».

• أما تقسيمه للسنة النبوية - التشريعية وغير التشريعية - فلقد عرض له في كتابه «الإسلام عقيدة وشريعة»[1].

❐❐❐

بهذا التعريف الموجز نقدم بين يدى بحث الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت - سائلين المولى - سبحانه وتعالى - أن ينفع بهذا الكتاب... وأن يتغمد إمامنا الجليل بواسع رحماته.. إنه - سبحانه - خير مسئول وأكرم مجيب.

دكتور/ محمد عمارة

❐❐❐

(1) لتفصيل الحديث عن حياة الشيخ محمود شلتوت وفكره انظركتابنا «الشيخ شلتوت إمام في الاجتهاد والتجديد»طبعة دار السلام - القاهرة سنة 1432هـ سنة 2011م.

التعريف بالعلامة الشيخ أمين الخولي

(1313 - 1385هـ - 1895 - 1966م)

هو أمين إبراهيم عبد الباقى الخولي؛ واحد من العلماء المحققين المجددين الداعين إلى الإصلاح الاجتماعى العام.

ولد بقرية شوشاى، مركز أشمون، محافظة المنوفية - فى مايو سنة 1895م - وبعد حفظ القرآن الكريم، تعلم بالأزهر الشريف وتخرج فى مدرسة القضاء الشرعى سنة 1920م؛ ليكون عضوًا بهيئة التدريس فيها، وكانت يومئذ إحدى مؤسسات التجديد للفكر الإسلامى أنشأها سعد زغلول باشا (1273 - 1346هـ - 1857 - 1927م) سنة 1907م تحقيقًا لمقاصد الإمام محمد عبده (1266 - 1323هـ - 1849 - 1905م) فى إصلاح القضاء الشرعى.

ولقد تتلمذ الشيخ أمين فى مدرسة القضاء الشرعى على يد عميدها محمد عاطف بركات باشا (1278 - 1342هـ / 1861 - 1924م) وتأثر كثيرًا بمنهج الإمام محمد عبده فى الإصلاح الفكرى والاجتماعى.

وكان الجدل الفلسفى والفكرى يستهوى «الشيخ أمين»حتى اشتهر به وبرع فيه حتى كان يبرهن لطلابه على صحة الشيء ونقيضه!! ولقد أسهم فى

ذلك اطلاعه الموسوعى على المذاهب الفلسفية اليونانية مذاهب السوفسطائيين والقوريين والأبيقوريين والطبيعيين والعقليين والأفلاطونيين، ولقد خاض العديد من المعارك الفكرية وخصوصًا مع شيوخ الأزهر فى عصره.

وكان صاحب أسلوب متميز بالفحولة والعمق، كما كان واحدًا من شيوخ تحقيق التراث الإسلامى، وكان الشيخ أمين وطنيًا ثائرًا، شارك فى الحركة الوطنية المصرية، وكتب الأناشيد الحماسية من مثل:

يا بنى الأوطان هيا

نطلب العلم سويا

وتعالوا نتفانى

نرفع الظلم الشديد

كما شغف بالمسرح، وكتب له خمس مسرحيات، وكون مع زملاء له جمعية فكرية أطلقوا عليها اسم «إخوان الصفا» ثم «جمعية الأمناء» التى ضمت تلاميذه من خريجى كلية الآداب.

❐❐❐

وفى سنة 1923م عين الشيخ أمين إمامًا للمفوضية المصرية بروما ثم بالمفوضية المصرية ببرلين، فتعلم الإيطالية وبعضًا من الألمانية ثم عاد إلى مصر سنة 1927م ليشغل وظيفة المدرس بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول - القاهرة حاليًا - وفيها تدرج حتى أصبح رئيسًا لقسم اللغة العربية، وتولى وكالة الكلية، ثم اختير مدرسًا للفلسفة بكلية أصول الدين فكتب لطلابها فصولًا عن نشأة الفلسفة وعن الملل والنحل.

وفى سنة 1953م عمل الشيخ أمين مستشارًا فنيًّا لدار الكتب المصرية ثم مديرًا عامًا لإدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم إلى أن أحيل إلى التقاعد سنة 1955م وفى سنة 961م عين عضوًا بمجمع اللغة العربية.

ولقد كتب الشيخ أمين فى التفسير والتشريع والفلسفة والأدب والنحو والبلاغة، ومن آثاره الفكرية: «تاريخ العقيدة الإسلامية.. بحث تاريخى اجتماعى» و« كتاب الخير» و«تاريخ الحضارة المصرية» و«نظرات الإسلام الاجتماعية.. أمس واليوم وغدًا» و«المجددون فى الإسلام» و«مناهج تجديد» و«فى أموالهم» و« كناش فى الفلسفة وتاريخها» و«فن القول» و«السياحة الإسلامية» و«الجندية والسلم» و«رسالة فى آداب البحث والمناظرة» و«مالك بن أنس» و«أبو العلاء المعرى» و«مشكلات لغوية» و«فن الأدب المصرى» و«من هدى القرآن» و«صلات بين النيل والفولجا» و«دراسات إسلامية» و«رسالة الأزهر فى القرن العشرين» و«ورسالة تعدد الثقافات فى مصر» و«عن القرآن الكريم» و«صلة الإسلام بإصلاح المسيحية» ... إلخ كما كتب عددًا من التعقيبات على بعض المواد فى دائرة المعارف الإسلامية بالطبعة العربية يصحح فيها ويضبط بعض مذاهب المستشرقين فى الإسلام[1].

عليه رحمة الله.

(1) «موسوعة أعلام الفكر الإسلامى» و«موسوعة الفلسفة والفلاسفة» للدكتور عبد المنعم الحفنى، طبعة القاهرة، 1425هـ - 2004م.

التعريف بالعلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

(1296 - 1393هـ - 1879 - 1973م)

• ولد بتونس، في أسرة اشتهرت بنبوغ عدد من أكابر العلماء والمفتين والمصلحين والقضاة وشيوخ الإسلام، من مثل: الشيخ أحمد بن عاشور، والشيخ محمد بن عاشور، والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور - الجد- (1284هـ/ 1868م) والشيخ محمد الفاضل ابن عاشر (1327 - 1390هـ/ 1909 - 1970م)..

• وتتلمذ على فكر تيار الإحياء والتجديد والإصلاح في اليقظة الإسلامية الحديثة، ونهل من علم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (1266 - 1323هـ - 1849 - 1905م) الذي زار تونس، زيارته الأولى (1301هـ/ 1884م) عندما كان منفيا من مصر، بعد احتلال الإنجليز لها، وكان يومئذ نائبا لجمال الدين الأفغاني (1254 - 1314هـ - 1838 - 1897م) في رئاسة «جمعية العروة الوثقى» - السرية- والمحرر الأول لمجلتها «العروة الوثقى».

وفي الزيارة الثانية للأستاذ الإمام إلى تونس (1321هـ/ 1903م) كان ابن عاشور في الخامسة والعشرين من عمره، فلقي الأستاذ الإمام، وألقى

في حضرتـه خطابـا عبّر فيه عن تتلمـذه على فكر الإمام -الـذي أصبحت له امتدادات في تونس منذ زيارته الأولى-فقال ابن عاشور- مخاطبا الإمام-: «أيها الأسـتاذ، إن مباديكم السامية التي ترمي سهمها الأفلج[1] شوارد التقدم.. قد أوجبـت لنفسي نحو لقياكم كثرة إشراق، مع علـو في محبتكم و إغراق، فلا يتعجب الأسـتاذ -أيده الله- من نفس أظهرت له التعلق عند ملاقاته الأولى، فإنا و إن لم نلق شخصه من قبل فقد لاقينا ذكره وفرائده..».

ومنذ هذه الزيارة، توثقت الصـلات الفكرية -العميقة- بين الطاهر ابن عاشـور وبين الأستاذ الإمام، وتبادلا الرسـائل التي تضمنت إشارات وألغازا حول مشكلات الإصلاح والتحرر من الاستعمار والجمود والتقليد- وكانت لابن عاشـور شـفرة خاصة لحل ألغاز تلك المكاتبات، التي استوجبتها رقابة الاستعمار الفرنسي على المكاتبات!- كما أشار ابن عاشور إلى تاشيرات تلك التلمـذة وهذه الصلاة الفكرية في كتابه (أليـس الصبح بقريب) والذي بدأ تأليفه منذ ذلك التاريخ (1321هـ/ 1903م)..

• ولقـد تعلـم الطاهـر ابن عاشـور اللغة الفرنسـية إلى جانـب العربية وعلومهـا.. ودخل «جامع الزيتونة» وهو الجامعـة الدينية المناظرة للأزهر- (1310هـ/ 1892م)، وفيها درس وتخصص في علوم الإسلام والعربية وآدابها.. ونال منها - بعد سبع سنوات- «شهادة التطويع» في (1317هـ/ 1899م).

• ولقد أسهم ابن عاشور - بعد تخرجه من الزيتونة- في مختلف ميادين الإصلاح والنهضـة والتجديد.. مـن الإدارة.. إلى القضاء.. إلى الأوقـاف.. إلى التعليم.. إلى الافتاء.. إلى التدريس والمحاضرات.. وذلك فضلًا عن التأليف وتحقيق التراث..

(1) السهم الأفلج: الأكثر إصابة وفوزا.

فعين في مجلس الأوقاف (1329هـ/ 1911م).. وتولى القضاء (1331هـ/ 1913م) وعين نائبا للمفتي (1343هـ/ 1924م) ثم أصبح مفتيا (1345هـ/ 1926م) ثم مستشارا للحكومة في الشئون الدينية، وشيخنا للإسلام، وشيخا لجامع الزيتونة (1351هـ/ 1932م) وأصبح عضوا بمجمع اللغة العربية - بالقاهرة- (1359هـ/ 1940م) وعضوا مراسلا للمجمع العلمي العربي بدمشق (1374هـ/ 1955م) وذلك فضلًا عن ممارسة التدريس و إلقاء المحاضرات والمشاركة في المعارك الفكرية والمؤتمرات العلمية وفوق كل ذلك ومعه بناء «هرم فكري» تجسد فيما يقرب من أربعين كتابا- ما بين تأليف وتحقيق- وبعض هذه الكتب موسوعات استغرق تأليفه الواحد منها خمسين عامًا ولقد طبع من هذه الكتب سبعة عشر كتابا ولا تزال بقيتها مخطوطة حتى الآن.

ومن هذه الآثار الفكرية - التي غطت علوم وفنون القرآن والحديث ومقاصد الشريعة والفقه وأصوله واللغة والنحو والأدب والنقد والشعر والاجتماع والتاريخ ومشروع النهضة والتراجم والحكمة-:

1- تفسير التحرير والتنوير -(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)- وهو الذي استغرق تحريره له خمسين عامًا فجاء عملًا عملاقا ومتفردا في ميدان التفسير للقرآن الكريم.

2- (مقاصد الشريعة الإسلامية).. وفيه محاولة لتأسيس «علم مقاصد الشريعة»، ليكون بديلا لعلم أصول الفقه، بهدف توحيد مرجعية الاجتهاد الفقهي، خروجا من متاهة الاختلافات الفقهية التي تزايدت في عصور التقليد.

3- (حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات التنقيح على شرح تنقيح

الفصول في الأصول)- للقرافي، شهاب الدين أحمد بن إدريس (684هـ/ 1285م)-.

4- (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) وهو دراسة في سنن الله في التقدم والنهوض- نهوض الإسلام الأول.. والنهوض المنشود.

5- (أليس الصبح بقريب) وهو وثيقة لمشروع النهضة الإصلاحية - في تونس، وتأثيرات مدرسة الإحياء والتجديد الديني في هذه النهضة.

6- (أصول التقدم والمدنية في الإسلام).

7- (كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ)- موطأ الإمام مالك (93 - 179هـ / 712 - 795م)-.

8- (نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم)- الذي ألفه الشيخ علي عبد الرزاق (1305 - 1386هـ / 1887 - 1966م)-.

9- (النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح) - وهو دراسة نقدية في مشروع صحيح البخاري-.

10- (رسالة فقهية عن الفتوى الترنسفالية)- التي أصدرها الإمام محمد عبده، عن ذبائح ولباس أهل الكتاب، والتي أثارت جدلا فقهيا وفكريا كبيرًا في مطلع القرن العشرين (1322هـ/ 1904م)-.

11- (أصول الإنشاء والخطابة).

12- (موجز البلاغة).

13- (قصة المولد) - عن ميلاد رسول الله ﷺ-.

14- (تحقيق ديوان بشار بن برد).

15- (تحقيق ديوان النابغة الذبياني).

16- (تحقيق قصيدة الأعشى الأكبر في مدح المحلق).

17- (شرح وتحقيق المقدمة الأدبية للمرزوقي).

أما الدراسات والأبحاث والمحاضرات والتحقيقات التي لم تطبع في كتب حتى الآن. فمنها:

18- (رسالة في القدر).

19- (قلائد العقيان) - شرح وتحقيق و إكمال.

20- (الفتاوى).

21- (قضايا وأحكام شرعية).

22- (مسائل فقهية وعلمية تكثر الحاجة إليها ومعول في الأحكام عليها).

23- (تعليق وتحقيق على حديث أم زرع).

24- (أمالي على مختصر خليل) في الفقه المالكي.

25- (آراء اجتهادية).

26- (تحقيق وتعليق على كتاب خلف الأحمر المعروف بمقدمة في النحو).

27- (تعاليق على المطول وحاشية السيلكوتي).

28- (أمالي على دلائل الإعجاز) للإمام عبد القاهر الجرجاني (471هـ/ 1078م).

29- (تراجم لبعض الإعلام).

30- (تحقيق وتصحيح وتعليق على كتاب «الأقتضاب» لابن السيد البطليوسي، مع شرح كتاب «أدب الكاتب»).

31- (جمع وشرح ديوان سحيم).

32- (شرح معلقة امرئ القيس).

33- (شرح ديوان الحماسة).

34- (مراجعات تتعلق بكتابي: «معجز أحمد» و«اللامع العزيزي») - اللذين شرح فيهما المعري (363 - 449هـ / 973 - 1057م) ديوان المتنبي (303- 354هـ / 915- 965م).

35- (تحقيق الشرح القرشي على ديوان المتنبي).

36- (غرائب الاستعمال).

37- (تصحيح وتعليق على «كتاب الانتصار» لجالينوس، للحكيم ابن زهر).

38- (كتاب تاريخ العرب).

• وإذا كان ابن عاشور قد تميز وتألق في سماء علماء الأمة - على امتداد القرن الرابع عشر الهجري- حتى استحق أن يطلق عليه الإمام محمد عبده- في بداية القرن العشرين - «سفير الدعوة الإصلاحية في الجامعة الزيتونية»..

فلقد استحق أن يصفه الشيخ محمد الغزالي (1335 - 1416هـ / 1917 - 1996م)- في أواخر القرن العشرين- بأنه «رجل القرآن الكريم، و إمام الثقافة الإسلامية المعاصرة»[1].

(1) انظر في ترجمته: إسماعيل الحسني (نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر ابن عاشور) (ص 75 - 98). طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي - واشنطن سنة (1416هـ/ 1995م). والعجب أن موسوعاتنا الحديثة التي أرخت للأعلام ولأعلام المؤلفين، قد غفلت عن الترجمة للطاهر ابن عاشور، بما فيها التي ألفت بعد وفاته (1393هـ/ 1979م). انظر: عمر كحالة (معجم مصنفي الكتب العربية) طبعة بيروت سنة (1406هـ/ 1986م). ونزار أباظة، محمد رياض المالح (إتمام الأعلام) - ذيل على كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي - طبعة بيروت سنة (1999م).

التعريف بالعلامة محمد فريد وجدي[1]

(1295 - 1373 هـ 1878 - 1954م)

• ولد ونشأ بالإسكندرية.. وأقام زمنًا بدمياط، حيث كان والده وكيلاً لمحافظتها - مدير مديريتها- وانتقل مع أبيه إلى مدينة السويس.. ولما سكن القاهرة عمل موظفًا في وظيفة صغيرة بديوان نظارة الأوقاف.

• أتقن اللغة الفرنسية مع إتقانه اللغة العربية.. وتبحر في الثقافة الغربية - مع تبحره و إحاطته بالثقافة العربية والإسلامية، وكان عصاميًّا في تكوينه الثقافي والفكري، إذ انصرف عن التعليم النظامي وهو في المرحلة الثانوية.

• وكانت قضيته الأولى طوال حياته الدفاع عن الإسلام، بالعلم والمنطق العقلي، ردًا على الفلسفة المادية والوضعية التي غزت العالم الإسلامي في ركاب الاستعمار.. ولقد وهب حياته خالصة للرباط على ثغور الفكر، مترفعًا عن غشيان المجالس العامة، وقلَّ أن يزور أحدًا أو يجيب دعوة أحد.. وكان يأنس بزواره في بيته.

• ولقد توجه بفكره إلى علماء الغرب، فألف بلغتهم، و إلى قراء العربية ليحصن عقولهم ضد الفكر المادي ونزعات الزندقة والإلحاد، وضد خداع

(1) الزركلي «الأعلام» طبعة بيروت.

المنصرين.. كما توجه بفكره هذا إلى علماء الإسلام ليساعدهم على التجديد ومغادرة حياة الجمود والتقليد.

• أصـدر عددًا من المجـلات.. منها مجلة «الحياة» إبـان إقامته بدمياط.. وفي القاهرة أنشأ مطبعة أصدر بواسطتها جريدة «الدستور»- يومية، مناوئة للاستعمار الانجليزي-.. ثم مجلة «الوجدانيات»- شبه أسبوعية.

• وكانت باكورة تآليفه 1313هـ- 1895م- وهو في الثامنة عشرة من عمره - رسالة:

- «الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان».. ثم توالت مؤلفاته.. ومنها:

- «تطبيق الديانة الإسـلامية على النواميس المدنيـة» 1316هـ- 1898م- كتبه أولاً بالفرنسـية.. ثـم ترجمه إلى العربية.. ولقد سـماه - في الطبعة الأولى- «المدنية والإسلام».

- «الحديقة الفكرية في إثبات وجـود الله بالبراهين الطبيعية» 1318هـ- 1900م.

- «على أطلال المذهب المادي» في أربعة أجزاء 1339هـ- 1921م.

- صفوة العرفان وهو تفسير موجز للقرآن الكريم.

- « كنز العلوم واللغة» 1333هـ- 1915م وهو دائرة معارف لفصيح اللغة العربية، وخلاصات العلوم النقلية والعقلية والطبيعية، ومختصر لتراجم المشـاهير.. ولقد رتب مواده ترتيب القاموس.. ثم توسع فيه فتحول إلى «دائرة معارف القرن العشرين».

- «مجموعة الرسائل الفلسفية» 1333هـ - 1915م.

- «المرأة المسلمة»- رد به على كتاب «المرأة الجديدة» لقاسم أمين- 1319هـ- 1901م ولقد ترجم إلى التركية والفارسية والأردية.

- «الوجديات» 1328هـ - 1910م- وهو مقالات في الدين واللغة والوطن.

- الأدلة العلمية على جواز ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأجنبية.

- دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجري - العشرين الميلادي- في عشر مجلدات- صدرت طبعتها الأولى ما بين 1328هـ و1336هـ، 1910م- 1918م- ولقد أراد أن تكون - في العربية- كقاموس «لاروس» في الفرنسية- فكانت أشهر أعماله الفكرية.. ولقد قررتها نظارة المعارف في مكتبات المدارس.

- «ما وراء المادة»- في جزءين.
- «الإسلام في عصر العلم» في مجلدين.
- «الإسلام دين عام خالد».
- «معالم الإسلام».
- « كتاب المعلمين» 1336هـ- 1918م.
- «مهمة الإسلام في العالم».
- نقد كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين «1344هـ - 1926م» وهو الذي

قرظه زعيم الأمة سعد زغلول باشا «-1273 1346هـ/ -1857 1927م» في رسالة بليغة إلى فريد وجدي قال فيها:

«حضرة الأستاذ الفاضل محمد فريد وجدي وصلني كتابك الذي وضعته في نقد كتاب «في الشعر الجاهلي»، وتفضلت بإرساله إلي، وقرأته في عزلة تجمع الفكر، وسكون يحرك الذكر، فراقني منه قول شارح للحق، ومنطق يقارع بالحجة في أدب رائع، وتحقيق دقيق في أسلوب شائق، و إخلاص كامل للدين في علم واسع، وانتصاف للحقيقة في احترام فائق، ومجموع من هذه الخصال استمليت منه قلبًا فياضًا بالإيمان وعقلاً مثقفًا بالعرفان، ونفسًا محلاة بالأدب، فَقَرَرْتُ عينًا بوجود مثلك بيننا، ورجوت الله أن يكثر من أمثالك فينا، وأن يجازيكم على ما تصنعون بتوفيق الباحثين والمتناظرين لاحتذاء مثالكم في دقة البحث، وأدب المناظرة، و إنكار الذات، والانتصار للحق، وبتوفيق الناس لاستماع أقوالكم و إتباع أحسنها والسلام على المهتدين».

سعد زغلول[1]

16 أكتوبر 1936م

• «ليس من هنا نبدأ» وهو رد على كتاب الأستاذ خالد محمد خالد -1339 1416هـ، الموافق -1920 1996م «من هنا نبدأ».

• كما أصدر فريد وجدي مجلة لمباحث الحياة الروحية والتنويم المغناطيسي، جعل أبحاثها حجة علمية على المنكرين لعالم الغيب من

(1) محمد إبراهيم الجزيري «سعد زغلول ذكريات تاريخية» ص 37 طبعة كتاب اليوم القاهرة.

الماديين.. وكان يحسن الاستفادة من الاكتشافات العلمية الأوروبية الحديثة فيوظفها في نصرة التفسير الإيماني للظواهر العلمية.

• كما كتب فصولاً في السيرة المحمدية- جمعها المرحوم الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي «1342 - 1432هـ، 1923 - 2011م»، وأصدرها في كتاب.

• ولقد تولى فريد وجدي رئاسة تحرير مجلة «الأزهر» ثمانية عشر عامًا، فارتفع مستواها وخصها بنفائس أفكاره ثم اعتزل رئاسة تحريرها- مخلدًا إلى الراحة- قبل وفاته بنحو عامين.

• وغير المجلات التي أصدرها، والتي رأس تحريرها، أسهم بالمقالات والدراسات في «المؤيد» و«الأهرام» و«الرسالة» و«الهلال» و«المعرفة» و«المقتطف» و«الحديث»- وغيرها من المجلات الفكرية المتخصصة.

• وعندما انتقل إلى رحاب ربه نعاه العلماء والكبراء والزعماء.. ووصفه الأستاذ عباس محمود العقاد «1306 - 1383هـ، 1889 - 1964م» بأنه «فريد عصره، وما وجد اسم في هذا العصر يوافق صفته إلا اسم «فريد».. وكان البعض يقرنه بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.. رحمهم الله جميعًا».

التعريف بالعلامة مصطفى صادق الرافعي

(1298 - 1356هـ - 1881 - 1937م)

- هو مصطفى صادق بن عبد الرزاق الرافعي.
- إمـام من أئمة اللغة والفكر والبيان والشـعر والأدب. وأحد أصحاب المدارس الأدبية في العصر الحديث.
- ولـد بقرية «بهتيـم» في مديرية - محافظـة- القليوبية - بدلتـا النيـل- في مـصر- لأب مـن طرابلس الشـام - ولأم مـن مدينة حلب السورية.

• كانـت أسرة والـده أسرة علـم، نبـغ العديـد مـن رجالاتهـا في الفقـه والقضاء.

• تلقـى العلم أولًا على يدي والده، فأخذ عنـه مبادئ العلوم الدينية.. ثم التحق بالمدرسـة الابتدائية.. لكنه أصيب بنفور من المدرسة لتهكم أساتذته عليه بسـبب رداءة خطه، فترك المدرسـة، وأخذ ينهل العلم من مكتبة والده الغنية بالمعارف والعلوم، فلما استوعبها واصل القراءة خارجها.

• أصيب بالصمم وهو في الثلاثـين من عمره، فاعتزل الحياة الاجتماعية، وغـدت القـراءة والبحث هـي دنياه التـي عكف عليها، مع حـظ في العمل الوظيفي الحكومي ظهرت فيه مثاليته ودقته و إخلاصه.

• اشتهر أولًا كشاعر، بدأ بقرض الشعر وهو في العشرين من عمره، ولقد نشر شعره بالعديد من الصحف والمجلات.

• وتجلت عبقريته كناقد أدبي عندما قدم ديوان شاعر النيل حافظ إبراهيم (1287 - 1351هـ / 1871 - 1932م) فكانت مقدمته حدثا أدبيا شغل الأدباء ولفت إليه الأنظار.

• وعندما صدر ديوانه في ثلاثة اجزاء قدم لكل جزء بمقدمة تناول فيها قضايا الشعر العربي ومكانته كديوان للعرب عبر تاريخهم.. الأمر الذي جعل من مقدماته هذه مدرسة أدبية تخلق حولها عدد كبير من الأدباء الشباب، ينهجون نهجه و يتتلمذون على يديه و يغترفون من أدبه.

• تميز أسلوبه بالشدة والعنفوان، وخاصة في المعارك الأدبية والفكرية الكثيرة التي دارت بينه وبين العديد من أعلام عصره - ومنهم دكتور طه حسين (1307 - 1393هـ / 1889 - 1973م) والأستاذ عباس محمود العقاد (1306 - 1384هـ / 1889 - 1964م).

• و إلى جوار تألقه مدرسة أدبية رفيعة متميزة كان من أبرز منارات الدفاع عن الإسلام في حقبة تاريخية عمت فيها بلوى الاستعمار الغربي عالم الإسلام، وزحف فيها التغريب والاستلاب الحضاري على العقل المسلم يريد احتلال العقل وطمس الهوية الإسلامية، ليتأيد و يتأبد احتلال الأرض ونهب الثروات.

• كانت مقالاته في الصحف والمجلات إسهاما متميزا يغذي الحركة الوطنية بمصر ووطن العروبة وعالم الإسلام. . كما كانت أناشيده الوطنية -التي غناها الشعب- طاقة تحرك المشاعر لدى الجماهير.

• ولقد مثل في أسلوبه والقضايا الفكرية التي تناولها بعثا حديثًا لأئمة الفكر والعلم والأدب الذين ازدان بهم تاريخنا الحضاري العربي والإسلامي في عصور الازدهار.

• **من أهم آثاره الفكرية:**

1- (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) الذي كان فتحا متفردا في الإعجاز القرآني بالعصر الحديث والذي صدر سنة 1926م - إبان اشتداء الحملة التغريبية على مقومات الهوية الإسلامية - وهو الكتاب الذي قدم له زعيم الأمة سعد باشا زغلول (1227 - 1346هـ / 1857 - 1927م) بمقدمة قال فيها: «لقد تحدى القرآن أهل البيان، في عبارة قارعة محرجة، ولهجة واخذة مرغمة أن يأتوا بمثله أو سورة منه، فما فعلوا، ولو قدروا ما تأخروا، لشدة حرصهم على تكذيبه، ومعارضته بكل ما ملكت أيمانهم، واتسع له إمكانهم، هذا العجز الوضيع، بعد ذلك التحدي الصارخ، هو أثر تلك القدرة الفائقة، وهذا السكوت الذليل بعد ذلك الاستفزاز الشامخ، هو أثر ذلك الكلام العزيز».

ولقد وصف سعد زغلول كتاب الرافعي وصفا شاع في الحياة الفكرية والأدبية عندما قال عنه: «كأنه تنزيل من التنزيل».

2- (تحت راية القرآن) وفيه مقالاته التي رد بها على ما جاء بكتاب د. طه حسين (في الشعر الجاهلي).

3- (على السفود) وهو في نقد ديوان الأستاذ عباس محمود العقاد.

4- (تاريخ آداب العرب) في ثلاثة أجزاء، أرخ فيه للأدب العربي، فكان مرجعا متفردا في هذا الميدان.

5- (السحاب الأحمر) الذي تدور موضوعاته حول المرأة.

6- (رسائل الأحزان) وهو في فلسفة الحب والجمال.

7- (أوراق الورد. رسائلها ورسائله) الذي ضم رسائله ورسائل الأديبة الشهيرة مي زيادة (1303 - 1360هـ / 1886 - 1941م) التي تعلق بها قلبه.

8- (وحي القلم) الذي تجلت فيه معالم شخصيته الأدبية التي عدت مدرسة متميزة في آداب اللغة العربية بالعصر الحديث.

• لقد كان إماما في اليقظة الإسلامية والنهضة الأدبية مثل مدرسة رفيعة المستوى لها رواد وتلاميذ حتى الآن.

• عليه رحمة الله[1].

(1) (الموسوعة العربية) طبعة دمشق سنة 2004م.

1 - الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت

القرآن

القرآن فى الوضع اللغوى

1 - قال الراغب الأصفهانى[1] فى المفردات: القرآن فى الأصل مصدر نحو: كفران ورجحان. قال تعالى:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾

[القيامة: 17، 18].

قال ابن عباس: إذا جمعناه وأثبتناه فى صدرك فاعمل به. وقد خص بالكتاب المنزل على محمد ﷺ فصار له كالعلم، كما أن التوراة لما أنزل على موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والإنجيل على عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين كتب الله لكونه جامعًا لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم كما أشار تعالى إليه بقوله:

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يوسف: 111].

---

(1) الراغب الأصفهانى أبو القاسم، الحسين بن محمد «502هـ 1109م»لغوى ومفسر، من حكماء العلماء. وله - غير المفردات - «الذريعة فى مكارم الشريعة»و»جامع التفاسير»و»محاضرات الأدباء».

وقوله:

﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: 89].

وقوله:

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر 28].

والقرآن بعد صيرورته علمًا على الكتاب المنزل على محمد ﷺ واشتهار ذلك عند الناس أجمعين ليس مما يحتاج إلى تعريف، إذ ليس هناك من يجهل أنه هو هذه السور وتلك الآيات التى يقرؤها المسلمون، ويحفظها كثير منهم بعد أن تلقوها ممن قبلهم جمعًا عن جمع عن نبيهم محمد ﷺ.

القرآن عند العلماء

2- ومع هذا فقد عرفه العلماء تعريفًا جمع خواصه، وذلك نظرًا لما يتعلق بتلك الخواص من أحكام ويتفرع عليها من آثار، وقد يكون لها ارتباط بالغرض المقصود من دراستنا كما يتضح بعد.

وقد عرفوه بأنه: «اللفظ العربى المنزل على محمد ﷺ المنقول إلينا بالتواتر». وقد سماه الله «الكتاب» فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2].

وقال:

﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

ولا تطلق الكلمة معرفة هكذا «القرآن» إلا على جميعه، أما كلمة قرآن

مجـردة من حرف التعريف فإنها تطلق على كله وعلى جزئه. فمن الأول قوله تعالى:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: 106].

ومن الثانى قولنا للآية الواحدة: هذه قرآن، ولا يصح أن يقال هذه القرآن. هـذا وقد تكلم العلماء على كيفية نزوله وأنه كان بالتدريج حسـب الوقائع المقتضية، وحسب الأسئلة والاسـتفهامات الموجهة إلى النبى ﷺ فيما يعن للنـاس أو يحتاجون إليـه، كما تكلموا على مكيه ومدنيـه، وبينوا خصائص كل من المكى والمدنى فى الأسلوب والمعنى والخطاب، وعرضوا أيضًا إلى نسبة المدنى والمكى وأفاض فى ذلك الإمام الشاطبى[1] فى كتابه (الموافقات) ببحوث ممتعة.

ولكن الذى يهمنا الآن أن نرجع إلى التعريف فنأخذ منه أركان أو عناصر القرآنية التى باختلالها كلهـا أو بعضها لا تتحقق حقيقة القرآنية ولا يكون الكلام قرآنا.

والتعريف المذكور يرشدنا إلى أن عناصر القرآنية أربعة:

أولًا: كونه لفظًا.

ثانيًا: كونه عربيًّا.

ثالثًا: كونه منزلًا على محمد ﷺ.

(1) الشاطبى أبو إسحاق، إبراهيم بن موسى، 790هـ - 1388م، محدث وفقيه أصولى ولغوى ومفسر للقرآن الكريم. صار علمًا من أعلام مقاصد الشريعة، الذى بلوره فى كتابه، «الموافقات».

رابعًا: نقله إلينا بالتواتر، وذلك بأن يتلقاه الجمع العظيم عن النبى ﷺ ثم ينقله جمع عن هذا الجمع، وهكذا حتى يصل إلينا كما نطق به النبى ﷺ من غير تحريف ولا تبديل ولا نقص ولا زيادة. والنقل بهذه الطريقة هو السبيل الوحيد لصيانة القرآن وحفظه على الوجه الذى أنزل عليه. وقد كان تلقى الناس له بهذه الكيفية وحفظهم إياه فى صدورهم هو الأصل المحكم عند الاختلاف فى كتابة حرف أو كلمة منه، وهو طريق حفظه الذى وعد الله به فى كتابه إذ يقول:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

المعنى وحده ليس قرآنا

3- ويتفرع على العنصر الأول وهو كونه (لفظًا) أن ما يوحيه الله من المعانى إلى النبى ثم يعبر عنه النبى بألفاظ من عنده لا يكون قرآنًا، ولا يأخذ حكم القرآن من جواز الصلاة به، وطهارة قارئه. وما إلى ذلك من الأحكام التى تتعلق بنفس القرآن، فالأحاديث المروية عن النبى ﷺ وإن كانت من وحى الله ليست قرآنًا، وكذلك ليس بقرآن ما يبينه الناس من معانى القرآن، ويعبرون عنه بألفاظهم كالتفسير، ولا يقال له قرآن.

هل فى القرآن ألفاظ غير عربية؟

4- وبعنصر (العربية) نعلم أن ترجمة القرآن إلى غير لغة العرب مهما روعى فيها من الدقة لمسايرة الأصل ومجازاته، لا تكون قرآنًا ولا تأخذ شيئًا من أحكام القرآن التى أشرنا إليها، بل ولا تكون مصدر تشريع لأنها تعبر عما يفهمه المترجم من القرآن كما يعبر التفسير عما يفهمه المفسر، فلا يكون

الاستنباط من أحدهما استنباطًا من كتاب الله و إنما يكون أخذًا بفهم من لا تقوم بفهمه حجة.

وليس معنى هذا أن ترجمة القرآن، على معنى بيان معانيه وما احتوى عليه من آداب و إرشاد بغير لغة العرب محظورة، بل قد تكون فيما نرى طريقًا متعينًا لنشر ما تضمنه من عقائد وأخلاق وأحكام.

هذا وينبغى أن نعرض هنا لمسألتين:

(إحداهما): أن الله وصف القرآن فى غير موضع بأنه عربى، ثم بحث العلماء فيما إذا كان القرآن يحتوى على كلمات خارجة عن لغة العرب، أو لا يحتوى، وكان مثار هذا الخلاف وجود كلمات فى القرآن ليست من لغة العرب، وذلك مثل كلمة (مشكاة) للكوة، و(الناشئة) للقيام من الليل، و(القسورة) للأسد فإنها من لغة الحبشة، وكلمة (غساق) للبارد المنتن فإنها من لسان الترك، و(القسطاس) للميزان فى لغة الروم. و(السجيل) للحجارة والطين بلسان الفرس، (والطور) للجبل، و(اليم) للبحر بالسريانية.

ومجمل الرأى فى هذا أن العلماء اتفقوا على أنه ليس فى القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وهو مصداق الوصف بالعربية الذى ورد فى القرآن، واتفقوا أيضًا على أن فى القرآن أعلامًا من غير اللسان العربى. مثل إسرائيل وجبريل وعمران ونوح و إبراهيم.

واختلفوا بعد هذا هل وقع فيه ألفاظ مفردة ليست أعلامًا من غير كلام العرب؟ فذهب جماعة إلى أنه لا يوجد فيه شيء من غير لغة العرب وأن كله بأساليبه ومفرداته عربى لا شية للعجمة فيه، وما يوجد فيه من المفردات التى

يظـن أنها من اللغات الأخرى فهـى مما تواردت عليه اللغـات فتكلم به غير العرب كما تكلم به العرب، ورأى آخرون وجود هذا النوع من القرآن. وأن وجـوده - وهو قليل جـدًا - لا يؤثر فى كون القرآن عربيًـا مبينًا؛ لأن عربية الأسـلوب جميعه، وعربية الكثرة السـاحقة من المفـردات التى تتلاشى فيها هذه القلة، مما يكفى لتحقق اتصافه بأنه عربى مبين.

وذهـب جماعة ثالثة إلى أن الأصـل فى هذه الألفاظ العجمة، وقد انتقلت إلى العرب أثرًا للتجاور والاختلاط، فاستعملها العرب بما خففها على ألسنتهم حتـى لانت بها، وجـرت عندهم مجـرى العربى الأصيل، وعلى هـذا نزل بها القرآن.

ونحن نرى ترجيح هذا القول الأخير؛ لأن هذه الكلمات مخالفة فى وزنها لـلأوزان العربيـة المعروفـة، ولأنها قليلة الاسـتعمال عند العـرب، وبهذين يترجح الحكم بأنها غير عربية الأصل.

نعـم نقلها العرب مـن غيرهم بطريق المجـاورة كما تقدم واسـتعملوها حتى لانت بها ألسنتهم، فأصبحت مما يتكلم به العرب ويتخاطبون به، وإن لم تكن مـن أوضاعهم، وهذا القـدر كاف فى تحقق عربيتـه، وعدم المنافاة لوصف القرآن بأنه عربى مبين.

زعم أن أبا حنيفة يرى أن القرآن اسم للمعنى فقط

5- **(المسـألة الثانيـة)** أن بعـض الناظريـن أخـذ مـن كلام الفقهـاء فى مسـألة (القراءة فى الصلاة بالفارسـية)، والخلاف الذى بين الإمام أبى حنيفة

وصاحبيه[1] فى جوازها - أن الإمام يرى أن القرآن اسم للمعنى فقط، وأن الصاحبين يخالفانه فى ذلك، ويريان أنه اسم اللفظ والمعنى معًا، وأنه لهذا رأى جواز القراءة بغير العربية فى الصلاة دونهما.

ولكن الحق أن الجميع متفقون على أن القرآن اسم للفظ والمعنى معًا، وأنه لم يذهب إلى جواز القراءة بالفارسية بناءً على هذا الذى نسب إليه فى مسمى القرآن، وإنما نظرًا إلى أن المقصود من القراءة فى الصلاة مجرد المناجاة، والمناجاة تحصل بغير العربية، ولهذا فقط رأى جوازها بالفارسية فى الصلاة.

قال الزيعلي[2]: والصحيح أن القرآن هو النظم والمعنى جميعًا عنده لأنه معجزة للنبى ﷺ، والإعجاز وقع بهما جميعًا، إلا أنه لم يجعل النظم ركنًا لازمًا فى حق جواز الصلاة خاصة؛ لأنها ليست بحالة الإعجاز. ومع هذا فقد قرر الكمال[3] فى فتح القدير أن تخريج رأى الإمام على هذا الاعتبار غير صحيح أيضًا وقال:

(إنه معارضة للنص بالمعنى فإن النص طلب بالعربية، وهذا الاعتبار يجيزه

(1) أبو حنيفة النعمان (80 - 150هـ - 699 - 767م) إمام أهل الرأى ورأس المذهب الفقهى الشهير - المذهب الحنفى - وصاحباه: أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (113 - 182هـ - 731 - 798م) صاحب «كتاب الخراج». ومحمد بن الحسن الشيبانى «132 - 189هـ - 750 - 805م». ناشر مذهب أبى حنيفة، وصاحب «الجامع الكبير».

(2) الزيلعى جمال الدين، أبو محمد، «762هـ - 1360م» محدث وفقيه وأصولى - له «نصب الراية لأحاديث الهداية» فى الفقه الحنفى.

(3) كمال الدين بن محمد بن عبد الواحد، ابن الهمام «790 - 876هـ - 1388 - 1457م» من كبار فقهاء الأحناف بمصر. وله - غير «فتح القدير» - التحرير» - فى الأصول.

بغيرها، ولا بُعد فى أن يتعلق جواز الصلاة فى شريعة النبى ﷺ الآتى بالنظم المعجز بقراءة ذلك المعجز بعينه بين يدى الرب تعالى. فلذا كان الحق رجوعه إلى قولهما فى المسألة). ويريد الكمال من قوله (والنص طلب بالعربى قوله تعالى:

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: 20].

وبهذا يثبت أن الإجماع منعقد على أن القرآن اسم للفظ والمعنى حتى فيما يختص بقراءة الصلاة.

حكاية الشرائع السابقة فى القرآن

6- والعنصر الثالث للقرآنية هو عنصر التنزيل على محمد، وهذا العنصر يدلنا على أن ما أنزل على الأنبياء السابقين كإبراهيم وموسى، ولم يحك فى القرآن لا يكون قرآنًا، أما ما أنزل عليهم وقص علينا فى القرآن بالإنزال على محمد فهو قرآن قطعًا تثبت له سائر أحكام القرآن. ولكن هل يكون - إذا تضمن حكمًا كلفوا به - مصدر تشريع لنا فنلزم به أيضًا كما كانوا ملزمين به؟ هذه هى المسألة التى بحثها علماء الأصول تحت عنوان (شرع من قبلنا) وخلاصة ما قالوه فيها أنه إذا قرنت حكاية الشرائع السابقة فى القرآن بما يدل على نسخها عندنا فليست تشريعًا لنا باتفاق، وإذا قرنت بما يدل على تقريرها وكتابتها علينا كما كتبت على الذين من قبلنا فهى تشريع لنا باتفاق.

أما إذا ذكرت مجردة عما يدل على نسخها أو تقريرها فهى محل خلاف بين العلماء: فذهب جمهور المالكية، والحنابلة، والحنفية إلى أنها شرع لنا، وذهب جمهور الشافعية، والأشاعرة، والمعتزلة، إلى أنها ليست شرعًا لنا، وقد

تكفلت كتب أصول الفقه ببيان آراء الفريقين ومناقشة الأدلة فليرجع إليها من شاء.

غير أنه ينبغى أن يعلم أن من أهم ما يترتب على الخلاف فى هذه المسألة ومعرفة الحق فيها تبين المصدر التشريعى لمثل نظرية «القصاص فى الجروح والأطراف التى يقررها الفقه الإسلامى كتشريع عام، فعلى رأى المثبتين يكون القرآن - بما يحكيه فى سورة المائدة عن التوراة من تشريع:

﴿ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ ﴾ [المائدة: 45].

هو المصدر التشريعى الخاص أو من المصادر التشريعية الخاصة لهذا الحكم، أما على رأى النافين فإن النظرية لا يكون لها مصدر تشريعى خاص بها من القرآن، و إذن فهم يلتمسون مصدرها من العمومات القرآنية مثل قوله تعالى:

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ [البقرة: 194].

ومثل قوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ ﴾ [الشورى: 40].

وبما يروى من الأحاديث فى الوقائع الزمنية التى حدثت على عهد الرسول ﷺ وبما يذكرون من إجماع أثرًا لهذين المصدرين، كما سبق بيان ذلك فى باب (العقوبات)»[1].

(1) (الإسلام عقيدة وشريعة) ص 381 - 387. طبعة دار الشروق، القاهرة، 1440هـ - 1980م.

حكم القراءة الأحادية فى الاحتجاج

7- والعنصر الرابع للقرآنية عنصر التواتر فى النقل. وهذا العنصر يخرج ما نقل بطريق الآحاد عن أن يكون قرآنًا، ولا خلاف لأحد من العلماء فى هذا و إن اختلفوا فى أنه حجة، فرأى بعضهم أنه و إن لم تثبت قرآنيته لعدم تواتره فقد ثبت أنه خبر عن النبى ﷺ، والعمل بخبر الواحد واجب، ورأى آخرون أنه لا يصح الاحتجاج به نظرًا إلى أنه ليس بقرآن قطعًا، ولم ينقل على أنه خبر.

وبنبنى على هذا الخلاف أن مثل قراءة ابن مسعود فى كفارة اليمين: (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات).

وفى (الإيلاء)[1] (فإن فاءوا فيهن)، وفى عقوبة السرقة (فاقطعوا أيمانهما) لا يحتج بها على وجوب تتابع الصوم فى الأول ولا على وجوب قطع اليمين فى السرقة، ولا على أن الفيء فى الإيلاء يكون فى أثناء المدة فقط - ولا يحتج بها على شيء من هذا، إلا فى رأى الحنفية القائلين بأن القراءة الشاذة - وهى ما نقل بطرق الآحاد - حجة فى الأحكام.

المقصد من إنزال القرآن

8- هذا هو القرآن، وهذه هى عناصر القرآنية، وقد أنزله الله لأمرين عظيمين:

أحدهما: أن يكون معجزة دالة على صدق الرسول فى دعوة الرسالة

(1) هو اليمين على ترك وطء المنكوحة مدة. مثل: والله لا أجامعك أربعة أشهر.

والتبليغ عنه سبحانه، وبمقتضى هذا أنزله يحمل فى أسلوبه ومعانيه وتشريعه ومعارفه عناصر الإعجاز، وقد أمر رسوله أن يتحدى به القوم فتحداهم حتى ظهر عجزهم، وتمت عليهم الحجة، وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: 23].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هو: 13].

وقوله عَزَّوَجَلَّ:

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: 88].

وقد كانت معجزات الرسل قبله خوارق حسية، لا عقلية يجول فيها العقل ويصول، ويعمل فيها الذهن بالتفكير والتدبر، وكانت منقرضة لا دائمة، وذلك لأن رسالتهم لم تكن عامة لأهل زمنهم، ولا خالدة.

الأمر الثانى: وثانى الأمرين اللذين أنزل القرآن لهما، أن يكون منبع هداية وإرشاد، ومصدر تشريع وأحكام، يجب اتباعه والرجوع إليه، ولا يكفى فى إثبات أنه واجب الاتباع مجرد ثبوت أنه معجز، بل لا بد مع هذا من ملاحظة أن إعجازه دل على أنه من عند الله. وقد احتوى على الأمر الإلهى الصريح بوجوب اتباعه، والعمل بما تضمنه من الأحكام فى غير موضع، وبغير أسلوب واحد. فقال تعالى:

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الأعراف: 3].

وقال سبحانه:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء: 105].

وقال جَلَّ وَعَلَا:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

[البقرة: 229].

وقال تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾

[المائدة: 48].

وقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

[المائدة: 49، 50].

وقد انعقد إجماع المسلمين على أن القرآن الكريم هو أساس الدين والشريعة حتى صار ذلك عندهم مما علم من الدين بالضرورة، لا فرق في ذلك عندهم بين عصر وعصر، وإقليم وإقليم، فهو حجة الله العامة على الناس أجمعين في كل زمان ومكان، في عقائده وأحكامه وأخلاقه. ومن زعم أنه حجة خاصة بقوم دون قوم، أو بعصر دون عصر، فهو خارج عن ربقة الإسلام.

محتويات القرآن

احتوى القرآن على ما يأتى:

(الأول): العقائد التى يجب الإيمان بها، فى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهى الحد الفاصل بين الإيمان والكفر.

(ثانيًا): الأخلاق الفاضلة التى تهذب النفوس، وتصلح من شأن الفرد والجماعة، وتحذر الأخلاق السيئة، التى تودى بمعانى الإنسانية الفاضلة، وتسبب الشقاء فى الحياة.

(ثالثًا): الإرشاد إلى النظر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء، لتعرف أسرارالله فى كونه، و إبداعه فى خلقه، فتمتلئ القلوب إيمانًا بعظمته، عن نظر واستدلال، لا عن تقليد ومجاراة. وقد نعى القرآن كثيرًا على الذين يقلدون الآباء والأجداد فى عقائدهم ودينهم، وعاداتهم السيئة، كما أنه فتح للناس بهذا الإرشاد باب البحث عن خواص الأجسام فى أرضه، وسمائه وهوائه ومائة، فينتفعون بها فى حياتهم و يستخدمونها فى مقاصد التعمير والإنشاء. وعلى الرغم من الإرشادات المتكررة فى هذه الناحية قد أهمل المسلمون هذا الجانب، لم ينتفعوا بإيحاء القرآن فيه، بينما انتفع به غيرهم ممن خاضوا غمار هذا الكون، وعرفوا أسراره، واستخدموها فى نواحى هذه الحياة، بعد أن كانوا فى عماية وضلالة.

(رابعًا): قصص الأولين أفرادًا وأممًا، وقد أورد القرآن من ذلك كثيرًا مما يثير الاعتبار والاتعاظ، و يرشد إلى سنن الله فى معاملة خلقه الصالحين منهم والمفسدين. وهذا هو مقصد القرآن من ذكر هذا القصص فلم يذكره

عـلى أنه تاريخ يحدد الزمان والمكان والأشـخاص. وعلى الرغم من هذا فقد شـغل المفسرون أنفسـهم وشـغلوا الناس معهم بتحميل الآيات القصصية ما لم يرده الله منهـا، وبذلك صرفوا الناس عن مقصد العظة والاعتبار فحرموا فائدتهـا، وبقيت آيات تتلى لا ينتفع بها مؤرخ فى تحقيق، ولا مؤمن فى اعتبار واتعاظ.

(خامسًا): الإنذار والتخويف، أو الوعد الوعيد.

وللقرآن فى ذلك طريقان:

أحدهمـا: الوعـد والوعيـد عـن طريق الحيـاة الدنيـا، بعموم السـلطان والتمكين فى الأرض، أو بتقلص العز والملك وتسليط الظالمين، قال تعالى:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: 55]

وقال عَزَّوَجَلَّ:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: 112].

ثانيهما: الترغيب والترهيب بنعيم الآخرة وعذابها، فقال تعالى:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [النساء: 13].

وقال سبحانه:

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء: 14].

وأمثال ذلك كثير فى القرآن.

(سادسًا): الأحكام العملية التى وضعها، أو وضع أصولها وكلفنا اتباعها فى تنظيم علاقاتنا بالله سبحانه، وعلاقتنا بعضنا ببعض، وهى المسماة (فقه القرآن) فجاء فى العبادات على اختلاف أنواعها من صلاة وصوم وزكاة وصدقة وحج وجهاد ويمين ونذر ما يقرب من مائة وأربعين آية، وجاء فى أحكام الزواج والطلاق وما يتبعهما من مهر ونفقة وحضانة ورضاعة، ونسب وعدة ووصية وإرث ما يقرب من نحو سبعين آية. وجاء فى أحكام المعاملات المالية كالبيع والإجارة، والرهن والمداينة والتجارة ما يقرب من نحو سبعين، وجاء فى أحكام الجنايات كالقتل والسرقة ومحاربة الله فى أرضه. والزنا والقذف ما يقرب من ثلاثين آية. كما جاء نحو هذا تقريبًا فى أحكام الحرب والسلم وما يجب على الحكام من الشورى والعدل والمساواة وسائر ما يجب عليهم للناس أو ما يجب على الناس لهم. كما جاءت آيات يصح أن تكون أساسًا لتنظيم الحياة الاجتماعية وعلاقة الأغنياء بالفقراء، والقيام بحقوق «العمال» مما يعرفه الناس اليوم باسم «العدل الاجتماعى».

هذا ولم يتفق العلماء الباحثون فى القرآن على عدد آيات الأحكام نظرًا لاختلاف الأفهام وتفاوت جهات الدلالة، والذى ذكرناه هنا إنما هو على جهة التقريب، وللنظر التحقيقى رأيه وحكمه.

القرآن ليس مبتكرا فى كل ما جاء به من أحكام

9- ولم يكن القرآن مبتكرًا فى كل ما جاء به من هذه الأحكام العملية بل كثيرًا ما جاء مهذبًا لطرق التعامل الذى تقتضيه طبيعة الاجتماع، أو منتقيًا لأكمل ما كان موجودًا منها، فى تحقيق الغرض المقصود منه، وإنه لمن المؤكد أن اجتماعًا ما لم يخل عن بيع وشراء، ولا عن نكاح وميراث، ولا عن عقوبات وطرق للفصل فى الخصومات.

وقد كان للأمة العربية التى ظهر فيها التشريع الإسلامى ونزل القرآن عليها أولاً، عرف يحكمون به ويسيرون عليه، وكان لهم ضوابط يرجعون إليها فى خصوماتهم وقضائهم.

وليس من سبيلنا الآن أن نبين مصدر هذه العادات وتلك الضوابط التى كانت عندهم، أكان الإلهام، والفطرة، أم كان التلقى عن شرائع قديمة أو أمم مجاورة؟ ولكن الذى نريد أن نقرره أن التشريع الإسلامى جاء وللعرب عرف ومعاملات، وأحكام وعبادات، فأقر القرآن كثيرًا مما درجوا عليه فى هذه الشئون. وهذب فيها وعدل وألغى وبدل وليس ذلك مما يضير القرآن فى تشريعه واستقلاله، فما كان الإسلام إلا دينًا يراد به تدبير مصالح العباد وتحقيق العدالة وحفظ الحقوق، ولم يأت ليهدر كل ما كان عليه الناس، ليؤسس على أنقاضه بناءً جديدًا لا صلة له بفطرة البشر وما تقتضيه سنن الاجتماع وإنما كان ينظر إلى أشياء من جهة ما فيها من مصالح ومضار، فما كان منها صالحًا أبقاه وأقره كالقسامة[1] والديات وجعله من شريعته، وما

(1) القسامة هى الأيمان تقسم على المتهمين فى الدم.

كان منها ضارًا مفسدًا للمال أو للاجتماع أو للأسر نهى عنه وحرمه. وما احتاج منها إلى التنقيح والتهذيب أدخل عليه من التهذيب ما جعله صالحًا كفيلًا بخير الناس، وقد يقر الشيء نظرًا للتعامل الشائع حينذاك، ويشرع من جانب آخر ما يوحى بإنهائه، أو بعدم الرغبة فيه، وذلك كما فعل فى الرق وقتل الأسرى، فإنه أقر الرق نظرًا لشيوع التعامل به فى وقت التشريع، ومن جهة أخرى حبب فى العتق وطلبه فى مواضع كثيرة تكفيرًا للذنوب والخطايا، ككفارة اليمين، والقتل الخطأ، والإفطار فى رمضان، والظهار، ورتب عليه فى ذاته درجات عظيمة من المثوبة عند الله.

وأباح أيضًا قتل الأسرى جريًا على قاعدة المعاملة بالمثل، ولكن لم يجعله التشريع الدائم وإنما جعل التشريع الدائم فيها المن والفداء. وقد دلت على هذا آية شد الوثاق فى سورة القتال.

ومثال ما ألغاه من النظم العربية نظام التبنى الذى كانوا يورثون به المتبنى، وجاء فيه قوله تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: 4].

وقوله تعالى:

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ ﴾ [الأحزاب: 5].

وأبطل التوارث فى قوله تعالى:

﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ ﴾ [الأنفال: 75].

ومما عدله الظهار. وهذه قصة المرأة التى ظاهر منها زوجها أى قال لها: (أنت على كظهر أمى) ونحوه، تدل على أن القوم كان لهم نظم فى الأحوال الشخصية وكانوا متمسكين بها، وكان الرسول فيما بينهم يتمسك بها أيضًا ويفتى فيها بما هو معروف بينهم حتى ينزل الوحى بما يريد الله. والقصة تتلخص فى أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته، ثم ندم على ما قال، فرفعت الزوجة أمرها إلى الرسول فقال لها: «**حرمت عليه**» فقالت: يا رسول الله ما ذكر طلاقًا وإنما قال: إنما أنت على كظهر أمى فقال لها: «**حرمت عليه**»، فقالت: إلى الله أشكو فاقتى ووجدى وجعلت تراجع الرسول ﷺ وكلما قال لها: «**حرمت عليه**» هتفت بالشكوى إلى الله، فنزلت أوائل سورة المجادلة:

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: 1 - 4].

فابطلت هذا الآيات أن الظهار طلاق، واعتبرته زورًا من القول، وجريمة أدبية فيها اعتداء على الواقع، وفيها ترويع الزوجة، وشرعت فيه الكفارة.

وهكذا يجد الناظر فى أسباب نزول التشريع العملى ما يثبت أن القرآن لم تكن أحكامه كلها إنشاء وابتكارًا، من هنا نرى كثيرًا ما يقول الفقهاء فى بيان مشروعية العمل: (بعث الرسول والناس يتعاملون به)، ويعتبرون هذا دليلًا

إقراريًّا على المشروعية لا إنشائيًّا. وهذا بحث جدير بالاستيعاب فى التتبع، إذ به يتبين مقدار الصلة بين التشريع الإسلامى وبين ما كان معروفًا عند العرب وقت نزول القرآن، وبه تبطل شبهة القائلين: (إن الشريعة الإسلامية جاءت عن طريق الشرائع القديمة، ولم يكن للعرب قانون معروف حتى تكون تعديلًا له وتنظيمًا لأحكامه)، وليس هذا ناشئًا إلا عن عدم البحث أو إرادة التمويه وإخفاء الحق بالباطل.

نهج القرآن فى بيان الأحكام

10- يستطيع الناظر فى آيات الأحكام أن يخرج منها بجملة خواص لا يراها لغير القرآن فى بيان الأحكام، هى التى نسميها (نهج القرآن فى بيان الأحكام)، وهى بحسب نظرنا تتلخص فيما يأتى:

(أولًا): أن بعض آيات الأحكام قد جاءت بصيغة قاطعة فى معنى معين فلم تكن محل اجتهاد المجتهدين، كآيات وجوب الصلاة والزكاة، وآيات الميراث التى حددت أنصبة الوارثين، وكآيات حرمة الزنا والقذف وأكل أموال الناس بالباطل، والقتل بغير حق، وما إلى ذلك مما اشتهر عند المسلمين، وأخذ حكم المعلوم بالضرورة.

وإن بعضًا آخر من آيات الأحكام جاء بصيغة لا يتعين المراد منها، وهى بذلك كانت قابلة لاختلاف الأفهام، وكانت مجالًا للبحث والاجتهاد، ومن أمثلة هذا النوع تحديد القدر الذى يحرم من الرضاعة ووجوب النفقة للمطلقة طلاقًا بائنًا، وتحديد المسح بالرأس فى الوضوء، إلى غير ذلك من الأحكام التى كانت موضع خلاف بين الأئمة.

والفـرق بين النوعين أن الأول بمنزلة العقائـد بحيث إن من أنكره يكون خارجًا من الملة، بخلاف الثانى فإن من أنكر فيه فهمًا معينًا تحتمله الآية كما تحتمل غيره لا يكون كذلك، وأن الأول واجب الاتباع عينًا على كل الناس، بخـلاف الثانى فإن كل مجتهد يتبع فيه ما ترجح عنده وكذلك المقلد يتبع فيه رأى من شاء أن يقلده.

ومن هـذا النـوع الثـانى تعـددت المذاهب الإسـلامية واختلفـت آراء الفقهاء، واتسع نطاق ذلك الخلاف إلى درجة أن رأينا الآراء تصل إلى السبعة أو الثمانية فى المسـألة الواحدة، كما نجد فى حكم (انعقاد الزواج بغير ولى) بـل إلى درجة أنا رأينا جميع الاحتمالات العقلية فى المسـألة الواحدة مذاهب وآراء ذهـب إلى كل منها فقيـه، وذلك كما نرى فى حكم (القصاص فى القتل بالإكـراه)، فمنهم من قال بوجوبه على المكـره، ومنهم من قال بوجوبه على المكره، ومن قال بوجوبه عليهما، ومن قال بعدم وجوبه على واحد منهما.

وفى مثـل هذا وهـو كثير فى الفقه الإسـلامى لا يمكن أن يقـال إن الكل ديـن يجب اتباعه، لأنهـا آراء متناقضة، ولا أن الديـن واحد معين منها، لأنه لا أولويـة لبعضهـا على بعـض، ولا أن الدين واحد منها لا بعينه، لأنه شـائع لا يعـرف على التحديـد، و إنما الذى يقال فى هـذا وأمثاله إنهـا آراء وأفهام، للحاكـم أن يختار فى العمل أيها شـاء تبعًا لما يراه من المصلحة، ولعل هذا هو السر فى سـعة الفقه الإسلامى واسـتطاعته حل المشكلات الاجتماعية، مهما امتد الزمن بالحياة وكثرت صور الحوادث والحضارات.

(ثانيًـا): إن بيانـه لتلـك الأحكام لم يكن على سـنن البيـان المعروف فى القوانـين الوضعيـة، بـأن يذكر الأوامـر والنواهـى جافة مجـردة عن معانى

الترغيب أو الترهيب و إنما يسوقها مختلطة بأنواع من المعانى التى من شأنها أن تخلق فى نفوس المخاطبين بها الهيبة والمراقبة والارتياح والشعور بالفائدة العاجلة والآجلة، فيدعوهم كل هذا إلى المسارعة إليها وامتثال الأمر فيها، نظرًا إلى واجب الإيمان، وبداعية الخوف من عقاب الله وغضبه، والطمع فى ثوابه ورضاه. وهذا هو الوازع الدينى الذى تمتاز بغرسه فى النفوس الشرائع السماوية، وهو بلا شك أكبر عون للوازع الزمنى فى الحصول على مهمته.

وتستطيع أن تدرك هذا المعنى إذا رجعت إلى ما ذكرنا من آيات إبطال التبنى وتعديل الظهار و إلى غيرها من آيات التشريع وانظر فى مثل قوله تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: 135].

(ثالثًا): لم ينهج القرآن فى ذكره لآيات الأحكام منهج الكتب المؤلفة، التى تذكر الأحكام المتعلقة بشيء واحد فى مكان واحد، ثم لا تعود إليه إلا بقدر ما تدعوه إليه المناسبة، و إنما فرق آيات الأحكام تفريقًا، وقد يورد ما يتعلق بالطلاق والرضاع وأحكامها وما يتعلق بالخمر وحرمتها، بين ما يتعلق بالقتال وشئون اليتامى، وانظر فى ذلك قوله تعالى:

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة: 238].

فإنهما وقعت بين آيات الطلاق وما يتعلق به[1]، ثم انظر إلى قوله تعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ ﴾ [البقرة: 219].

(1) الآيات من 228 إلى 248 من سورة البقرة.

فى السورة نفسها مع ما قبلها من آيات القتال والردة، وما بعدها من آيات اليتامى ونكاح المشركات[1]، ثم انظر إلى آيات الحج التى ذكر بعضها فى سورة البقرة من الآيات رقم 196 إلى 203، وذكر البعض الآخر فى سورة الحج من الآيات رقم 26 إلى 37، وكذلك تجد أحكام الطلاق والزواج والرجعة، ذكر بعضها فى سورة البقرة، وبعضها فى سورة النساء، وبعضها فى سورة الطلاق.

وهكذا نجد القرآن فى ذكره لآيات الأحكام، وكأنه فى ذلك أشبه شيء ببستان فرقت ثماره وأزهاره فى جميع نواحيه، حتى يأخذ الإنسان، أنى وجد فيه، ما ينفعه وما يشتهى من ألوان مختلفة وأزهار متباينة، وثمار يعاون بعضها بعضًا فى الروح العام الذى يقصد، وهو روح التغذية بالنافع والهداية إلى الخير.

ولهذه الطريقة - فيما نرى - إيحاء خاص، وهو أن جميع ما فى القرآن وإن اختلفت أماكنه وتعددت سوره وأحكامه فهو وحدة عامة لا يصح تفريقه فى العمل ولا الأخذ ببعضه دون البعض. وكأنه وقد سلك هذا المسلك يقول للمكلف وهو يحدثه عن شئون الأسرة وأحكامها مثلاً: لا تلهك أسرتك وشئونها عن مراقبة الله فيما يجب له من صلاة وخشوع، ولا ريب أن لمثل هذا الإيحاء تأثيرًا فى المراقبة العامة وعدم الاشتغال بشأن عن شأن، فيكمل للروح تهذيبها وللنفس صلاحها، وللعقل إدراكه، وللمجتمع صلاحه.

(رابعًا): لم يكن القرآن فى أكثر أحكامه مفصلًا، يذكر الوقائع ويتتبع الصور والجزئيات، ولكنه يؤثر الإجمال، ويكتفى فى أغلب الشأن بالإشارة

(1) الآيات من 216 إلى 221 من سورة البقرة.

إلى مقاصد التشريع وقواعده الكلية، ثم يترك للمجتهدين فرصة الفهم والاستنباط على ضوء هذه القواعد وتلك المقاصد، وكثيرًا ما تساعد السنة وإن كانت آحادية فى بيان ما أجمله أو تشريع ما تركه.

على أنه قد فصل فى نواح لا بد فيها من التفصيل، سموًا بها عن مواطن الخلاف والجدل، كما فى العقائد والعبادات، أو لأنه يريدها مستمرة على الوضع الذى حدده، لابتنائها على أسباب لا تختلف ولا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة، وذلك كما نراه فى تشريع المواريث، ومحرمات النكاح، وعقوبة بعض الجرائم.

وفى غير هذين النوعين آثر الإجمال وترك التفصيل ليحكم فيه أهل الرأى فى دائرة ما بين لهم من مقاصد، أو أشار من قواعد.

ومن هذا نجده عرض لحل البيع، والاستيثاق فى الديون، ولم يذكر شيئًا من تفاصيل البيوع ولا ما يلحقها من خيارات وما لا يلحقها، كما لم يذكر - تفصيلًا - ما يتعلق بموضوع الاستيثاق فى الديون من تفريعات جزئية، وأحكام تفصيلية.

وعرض للقيام بالقسط والعدل فى الشهادة والقضاء، ولم يذكر طريق الشهادة ولا كيفية القضاء، ولا طرق رفع الدعوى.

وعرض لعقوبات بعض الجنايات، ولم يذكر مقدار المسروق مثلًا ولا مقدار الدية وهكذا.

ونجده ذكر الصوم بحقيقته وزمانه ورخصه، والحج وأركانه، وكثيرًا من تفاصيله، وذكر المواريث مبينًا نصيب كل وارث فى حالاته المختلفة مكتفيًا

فى إجمال ما أجمل بالمبادئ العامة كقاعدة (اليسر ورفع الحرج) وقاعدة (دفع الضرر) وقاعدة (الصلاح والفساد)، وقاعدة (سد الزرائع)، وأمثال ذلك ما أفرده العلماء بالتدوين وأخذ عندهم حكم المعلوم بالضرورة وقد كان هذا الوضع، وهو «تفصيل ما لا يتغير، و إجمال ما يتغير» من ضرورة خلود الشريعة ودوامها، فليس من المعقول أن تعرض شريعة جاءت على أساس من الخلود والبقاء والعموم - لتفصيل أحكام الجزئيات التى تقع فى حاضرها ومستقبلها، فإنها مع كثرتها الناشئة من كثرة التعامل وألوانه متجددة بتجدد الزمن وصور الحياة، فلا مناص إذن من هذا الإجمال والاكتفاء بالقواعد العامة والمقاصد التى تنشدها للعالم، وبإزاء هذا حثت على الاجتهاد واستنباط الأحكام الجزئية التى تعرض حوادثها، من قواعدها الكلية، ومقاصدها العامة.

وقد جعل القرآن لأهل الذكر والاستنباط منزلة سامية، وأمر الناس بالرجوع إليهم فيما يحتاجون إليه، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء: 59].

وقال تعالى:

٥٩ ﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾ [النساء: 83].

﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: 42].

وبهذه الآيات ونحوها حث القرآن على الاجتهاد فى تعرف الأحكام، وسؤال أهل العلم والمعرفة.

وقد مهد النبى ﷺ وأصحابه من بعده طرق الاستنباط لمن جاء بعدهم من أئمة المسلمين وعلمائهم، وبذلك اتضح مقدار سعة هذه الشريعة وتناولها لكل ما يجد فى الحياة، وأنها بحق صالحة لتنظيم جميع الشئون، اجتماعية أو فردية، إلى يوم الدين[1].

(1) «الإسلام عقيدة وشريعة»ص 470 - 489.

2- العلامة الشيخ أمين الخولي

القرآن الكريم

﴿ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [المائدة: 15، 16].

بمثل هذا حدّث القرآن الكريم عن نفسه فكان أبين وأدل من بيان أصحاب أصول الفقه له، بمثل قولهم: إنه (اللفظ العربى المنزل على محمد ﷺ، للتدبر والتذكر، المنقول متواترًا، وهو ما بين الدفتين المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس) فإن ما يقولون من التدبر والتذكر لا يفى بمكان القرآن، الذى هو فى العربية قاموس لغتها وتاج أدبها، وهو فى الإسلام معجزة دعوته ودعامة شريعته، وهو فى الإنسانية دعوة خالدة إلى سبيل السلام والخير.

اسمه

اسمه (قرآن) مهموزًا، أو (قران) من غير همز. ويقول القدامى الكثير فى بيان أصل هذا الاسم لغة ومعنى وتصريفًا، وما إلى ذلك، فهو إذا همز - وهو الأكثر - من (قرأ) بمعنى تلا، أو بمعنى جمع، أو بمعنى طرح؛ لأنه متلو،

أو لأنه يجمع السور بعضها إلى بعض أو لأن القارئ يلقى اللفظ و يطرحه، و إذا لم يهمز فهو من (قرن) بمعنى ضم: لضمه السور والآى والحروف، أو بمعنى المشابهة لأن بعضه يشبه بعضًا و يؤيد بعضًا، أو يكون من (قرأ) وقد خففت همزته.

وقد يعبر عنه بأسماء أخرى. كالفرقان، والكتاب. و يبلغون بهذه الأسماء إلى نيف وتسعين اسمًا، و يتحدثون عن معانيها واشتقاقها، وقد يفردونها بالتأليف، وهى فى الأغلب ليست إلا صفات للتنزيل كالهدى، والرحمة والشفاء والموعظة، والحكمة.

نزوله

فى المدة التى مضى فيها الرسول ﷺ يبلغ دعوة الإسلام كان ينزل القرآن منجمًا مفرقًا فى المناسبات التى تتطلب ذلك، وقد استغرق هذا التنزيل بضعة وعشرين عامًا - منذ بعث ﷺ إلى أن لحق بربه - وهذا هو الزمان الذى أنزل فيه القرآن. أما المكان فهو فى جملته وأغلبه الحجاز، حيث جال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مبلغًا رسالته، ومواجهًا أحداثها المختلفة التى ظهرت بها الأسباب المتطلبة لنزول آى القرآن الكريم.

ولعل العرب كانوا من الناحية العقلية والدينية، ثم من الناحية الاجتماعية والحيوية فى حال لا تهيأهم كثيرًا لتلقى كتاب كامل، وصحف تامة، فكانت الحكمة فى أن ينزل إليهم القرآن منجمًا مفرقًا، يتلقونه شيئًا فشيئًا، وقد احتفت به مناسبات نزوله، وتوجهت النفوس إلى تلقيه، فكانت أكثر تهيؤا لقبوله. وفى كل هؤلاء مسايرة لما ينال مجتمعهم فى هذه الفترة الانتقالية

المهمة من تغير وتدرج، يسايره القرآن و يسيّره، فكان نزول القرآن المفرق خلال تلك السنين الطويلة أعون على حفظه، وأثبت فى وعيه، وأبقى له على الدهر، وأبعد له من شر التحريف أو التشويه، الذى منى به غيره.

وقد فهم أصول هذه المعانى من فسروا آية:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ [الفرقان: 32].

فقرروا أن من أسباب النزول المتقطع أن محمدًا ﷺ لم يكن قارئًا: كان بخلاف موسى وداود وعيسى، فلم يكن له بد من التلقن والتحفظ، فأنزله الله عليه منجمًا.. ليكون أقرب إلى الضبط، وأبعد من النسيان والسهو، وأن نزول الشرائع متدرجة أسهل على المكلف من نزولها دفعة، وأن نزوله بحسب الوقائع والحوادث أوفق فى باب التكاليف والاستبصار، وأدل على الإخبار عن الحوادث فى أوقاتها (تفسير النيسابورى على هامش الطبعة الأولى للطبرى ج 19، ص 12).

ولعل هذه المعانى وغيرها فى سبب التنجيم وحكمته يجمعها قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ [الفرقان: 32].

ولسعة زمن النزول واختلاف أماكنه، نسبت سور القرآن وآياته إلى أزمانها وأمكانها، فكان من أشهر ما أطلق على الآيات أنها «مكية» أو «مدنية»: نسبة إلى مكة، وهى المهد الأول للدعوة الإسلامية، و إلى المدينة، وهى مستقر هذه الدعوة، كما قد ينسب منه شيء إلى غير هاتين المدينتين:

كالحديبية والجحفة والطائف لكن النسبة إلى هاتين المدينتين هى أشهر نسبة، و إليها وجهت العناية ببيان المكى والمدنى من آى القرآن، وتعيينه وترتيبه ووصفه وما إلى ذلك.

ولهم فى ذلك اصطلاحات أشهرها: أن المكى ما نزل قبل الهجرة و إن كان بالمدينة، والمدنى ما نزل بعد الهجرة و إن كان بمكة. كما قيل إن الأقرب تنزيل قول من قال «مكى ومدنى» على أنه خطاب: المقصود به، أو جل المقصود به، أهل مكة، وكذلك بالنسبة إلى أهل المدينة (الزركشى كتاب البرهان فى علوم القرآن، جـ1، 187 و191، طبعة أولى).

وقد كان من أثر ذلك وجود سور مكية وأخرى مدنية، ووجود آيات مدنية فى السور المكية ووجود آيات مكية فى السور المدنية.

وجميع ما نزل بمكة من سور القرآن هو خمس وثمانون سورة، وجميع ما نزل بالمدينة تسع وعشرون سورة، على اختلاف الروايات فى بعض ذلك، كالخلاف فى فاتحة الكتاب: مكية أو مدنية.

وقد يذكرون خصائص تعبيرية للمكى والمدنى من القرآن، كالقول بأن كل سورة فيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وليس فيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فهى مكية، أو أن كل سورة فيها: ﴿ كَلَّا ﴾ فهى مكية، أو نحو ذلك. ولكن هذا فى الغالب والأكثر فقط، وليس بعام مطرد.

ولعل أقوى من هذا فى تمييز المكى من المدنى فى القرآن، ما يرجع إلى حالة الحياة الإسلامية فى العهدين، وما كان يعنى به القرآن فى كل عهد: كالقول بأن كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهى مدنية، وكل ما كان فى ذكر القرون الماضية فهو مكى... إذ يمكن القول بجملة أن القرآن إنما عنى

فى الـدور المكى بالأسـس الاعتقادية الكبرى: كتصحيـح التوحيد، و إبطال الشرك، وتقرير الألوهية، وشـئون الرسـل مع أممهم، وجهاد أولئك الرسل فى سـبيل دعواتهم، وما إلى ذلك من أسـس الرسالة الإسـلامية وأصولها الدينية العامـة. وفى الدور المدنى حـين تميز وجود المجتمع الإسـلامى جعل القرآن يعـنى بالشـئون الحيويـة التفصيلية، والنظـم العلمية للمجتمـع الجديد، من تنظيـم الروابـط والعلاقات الاجتماعية بـين الفرد وأمتـه، والفرد وجماعته الصغـرى، وهـى الأسرة وبـين الجماعات بعضهـا مع بعض، ومـا يكون من صلات ومعاملات، وعلاقات عملية، حربية وسياسية، وما إلى ذلك.

وباختـلاف الشـئون التى يعرض لهـا القرآن فى كل دور مـن الدورين، يختلف - ولا بد - موضوع الحديث وأسـلوبه وجوه وطابعه، ومن هذا يمكن تقريـر خصائص فنية وأدبية لكل أسـلوب من الأسـلوبين القرآنيين: المكى والمدنى يتميز بها كل واحد منهما بتميز حال المخاطبين، فى كل عهد، ومدى تهيؤهـم النفسى لما يلقى إليهـم. وتقبلهم له، أو مقاومتهم إيـاه... إلى جانب مـا ذكـر من اختلاف مجـال القول فى الدوريـن، وأن أحدهما جـدال إقناع ومناقشـة ورد، كما يكثر ذلـك فى العصر المكى مثلاً، والثـانى تلقين وتوجيه وترغيب وتفصيل، كما هو الشأن الغالب فى العصر المدنى.

وكذلـك تجد هـذه الخصائص المميـزة للعصرين واضحـة فى كل فن من فنون القول فيهما. وحسبنا على ذلك مثلاً القصص القرآنى فى العصرين، فإنه فن واحد بعينه من فنون القول: لا تتغير طبيعته فى عصر عنها فى آخر، لكن يتغير الهدف بتغير العصر.

فـإن يكن للعبرة دائمًـا، فإن حـال المعتبرين به متفاوتـة متغيرة، وموضع

العبرة من القصص يختلف كذلك باختلاف حال من يقص عليه، ومن هنا تجد القصص القرآنية قد عرضت فى العصر المكى عرضًا يختلف اختلافًا واضحًا عن عرضها فى العصر المدنى من حيث نظم الآية، وقصرها وطولها، بل من حيث ألفاظها، ومعنى تلك الألفاظ ووقعها الصوتى ثم من حيث الإيجاز المختصر المركز: تسلط فيه الأضواء على مشهد واحد قصير من أحداث القصة فى مكة، ثم الإسهاب المغاير لذلك فى المدينة... إلى غير ذلك من فروق يتبينها الدرس الأدبى المتخصص، ويكشف عن روائع من الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم فى القصص وحده.

ولعل من الالتفات إلى هذا بعض قول الأقدمين: كل سورة فيها قصة آدم و إبليس فهى مكية (الزركشى، البرهان، جـ1، ص 188)، وقد يفسر ذلك أنها خاصة ببدء الخلق واتقاء نوازع الشر فى التكوين الإنسانى، إلا أن هذه القولة القديمة لا يلبث أن يلحقها الاستثناء، إذ يجدون سورة البقرة المدنية قد ذكرت فيها قصة آدم و إبليس (المرجع السابق فى الموضع نفسه).

وتنظر إلى النسج القرآنى لقصة آدم و إبليس فى العصر المكى فتلمس ما أشرنا إليه من خصائص واضحة مميزة له عن تناول تلك القصة فى العصر المدنى بسورة البقرة. ومن هذا يجد الدرس الفنى البلاغى لهذا القصص القرآنى ناحية من نواحى الإعجاز القرآنى فى هذا القصص وحده كما ذكر آنفًا.

أسباب نزوله

وهى ما يسميه العصريون من أهل الأدب «ما حول النص» من ملابسات ومناسبات وظروف محتفة بالنص الأدبى الذى يدرسونه، ويرون فيها ما يلقى

الأضواء القوية على معانى النص وأغراضه ومراميه، ويهيئ السبيل لفهم نفسية القائل فهمًا يلفت إلى ما فى عبارته من إيحاء و إثارة معنوية تكشف عن معالم الصور البلاغية التى يخرج فيها القائل معانيه، وقد أجملنا قريبًا القول عن الخصائص الأدبية والمميزات البلاغية للسور المكية والمدنية بتميز الحياة الإسلامية فى كل دور منهما، وفى هذا الإجمال ما يكشف عن أهمية «ما حول» القرآن: فى فهمه الفهم الصحيح الدقيق، وتقديره التقدير الفنى السليم.

ومن كل أولئك ندرك الأثر الواضح لمعرفة أسباب نزول القرآن، الذى عرفنا أنه إنما نزل مفرقًا لمناسبات من واقعات حياة الإسلام والمسلمين اقتضت نزول ما كان ينزل منه عند كل مناسبة منها.

وقد قدر القدماء هذه الأهمية، فكان منهم من قال «بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معنى القرآن» (السيوطى الإتقان، جـ1، ص 35، الطبعة الموسوية).

ولم ينصف منهم من هون من أمر تلك الأسباب، فزعم أنه لا طائل تحت هذا الفن لجريانه مجرى التاريخ (المرجع السابق).

وقد بدأت عناية الأقدمين المبكرة بالتأليف فى أسباب نزول القرآن وجعلوها نوعًا من أنواع الدراسات القرآنية التى سموا مجموعتها «علوم القرآن». واشتملت كتب التفسير على هذه الأسباب عند تفسير آياتها، كما وضعت الكتب المفردة فى تلك الأسباب. مثل كتاب «لباب النقول، فى أسباب النزول» للسيوطى وغيره ممن كتب فى أسباب النزول.

وبالدقة المعهودة لهم قالوا: «لا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالراوية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن عللها». (السيوطى نقلًا عن الواحدى الإتقان، جـ1، ص 38). كما قدروا ما

قد يقع من وهم الراوى للأسباب، وأشاروا إلى بعض مسببات الوهم: «كأن تتلى الآية عند الحادثة، فيهم الراوى فيقول: فنزل عند ذلك كذا» (المرجع السابق، ص 42).

وبهذه الدقة يجب النظر فى أسباب النزول فهما للقرآن، وتقريرًا للتاريخ الدينى حتى يكون لأسباب النزول ما لفتنا إليه من أهمية ما يسمى الآن «ما حول النص».

أبحاث فى النزول

يعرض القول لأبحاث فى النزول نرى هنا الاكتفاء بالإشارة اليسيرة إليها.

فمن ذلك: أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه. والروايات فى ذلك مختلفة، والاشتغال بالترجيح بينها، أو الجمع والتوفيق، ليس من الأهمية بمكان، أو هو كما قال الأولون: «ليس العلم به من فرائض الدين، ولا رفع شيء من المروى عنه إلى النبى ﷺ فلا خوف من عدم الضبط فيه». (البرهان، جـ1، ص 210).

ومن ذلك البحث فى «كيفية إنزاله»، ومن أى مكان فى السماء إلى أى مكان آخر نزل، ومتى كان ذلك، ووقته أو أوقاته؟ وليس شيء من ذلك يجب الوقوف عنده والانتهاء إلى قول فيه، لأن المهم فى ذلك أن القرآن كلام الله المنزل، ويجرى الاختلاف بعد ذلك فى معنى الإنزال.

وقد قيل: إن معنى الإنزال هو إظهار القرآن (البرهان، جـ1، ص 299) وهذا المعنى العام فى الإنزال يغنى عما وراءه من تفاصيل، وفى تعبير القرآن نفسه بالإنزال فى مثل قوله:

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: 25].

ما يؤيد إرادة المعنى العام من الإنزال وهو الإظهار، دون وجوب شيء مما وراء ذلك من تفصيل المكان الذى منه النزول، أو المكان الذى إليه النزول، وتحديد غير ذلك من وقت أو أوقات[1].

وفى بحث «الكيفية» يعرضون كذلك لشرح طريقة إبلاغ الملك المنزل، وطريقة تلقى الرسول ﷺ لما أنزل، وهل كان ذلك بأن ينخلع الرسول من صورة البشرية إلى صورة الملكية، فيتلقى عن الملك، أو ينخلع الملك من الملكية إلى البشرية فيلقى إلى الرسول، وأى الحالين أصعب؟..

والاهتمام بهذا مما لا تبدو حاجة إليه، ولا تطلب فيه عقيدة تفصيلية. وفيما عرف علم البشر - وما أوتوا من العلم إلا قليلًا - ما يقرب إمكان التلقى والانفعال بغير الوسائط الحسية المادية المعروفة، وفيما يتقدمون إليه من علم الكون ما يزيد هذا قربًا وفهمًا. والمشهود منه اليوم يغنى عن الوقوف

(1) هذا المعنى - الذى اختاره الأستاذ الخولى - للنزول... والإنزال»معنى «الإظهار»لنا عليه تحفظات.. فالنزول - «فى لسان العرب» - لابن منظور - هو الحلول - وليس الإظهار. وحتى لو قال البعض أنه الإظهار، فهو إظهار لما نزل من علو - كظهور الماء النازل من السماء - وليس مطلق الظهور ألا ترى أن النزول والإنزال إنما يطلق على الماء النازل من السماء، وليس على الماء النابع من الأرض؟.. مع أنهما يشتركان فى الظهور! ويؤيد هذا الذى نراه ما ذكره الراغب الأصفهانى فى «المفردات فى غريب القرآن»طبعة دار التحرير، القاهرة، من أن النزول - فى الأصل - هو انحطاط من علو، و إنزال الله تعالى نعمه ونقه على الخلق و إعطاؤهم إياها، إما بإنزال الشيء نفسه كإنزال القرآن، و إما بإنزال أسبابه والهداية إليه. كإنزال الحديد واللباس، ونحو ذلك قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: 1]. ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: 25]. «فالنزول هو: الحلول والانحطاط من علو، وليس مطلق الظهور.

عند مثل هذه التفاصيل التى لا يسلم القول فيها من مآزق، ولا ينتهى تركها إلى شيء من نقص فى المعرفة أو العقيدة.

وعلى أخذ الإنزال بمعناه الحسى - من عال إلى أسفل - فقد تكفى فيه عبارة مجملة كقول من قال: «إن الله أفهم كلامه جبريل وهو فى السماء، وهو عال من المكان، وعلمه قراءته، ثم جبريل أداه إلى الأرض، وهو يهبط فى المكان». (البرهان، جـ1، ص 229) بل بأيسر من هذا يتسق الفهم، ولا تبدو فيه غرابة. وأما على أخذ الإنزال بمعنى الإظهار فلا يحتاج المعنى إلى شيء من تفصيل مكان ولا كيفية.

ومن تفصيلهم فى ذلك أن الذى نزل هو اللفظ نقله الملك، أو أن الذى ألقى إليه هو المعنى، وعبر الملك بتلك الألفاظ العربية، أو أن الملك قد ألقى إلى الرسول المعانى وهو عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عبر عنها بتلك الألفاظ (المرجع السابق).

وعلى كل حال فإن فى الأمر معنى إلهيًا روحيًا من إقراء الله للملك والرسول جميعًا، دون حاجة فى مثل هذا الأفق الروحى إلى عقيدة بعينها، أو فكرة بذاتها، أو شرح خاص لكيفيته المعينة.

لغة النزول

القرآن - كقوله تعالى جل شأنه - عربى مبين. ولكن العربية لعهده لم تكن قد تهيأت لها الوحدة اللغوية، لأثر بيئة جزيرتها الطبيعية فى تفرقها، واختلاف الحياة بعامة فى أرجائها النائية التى تقوم فى وسطها صحراء، يقع على حفافيها من الخصب النسبى فى الجنوب والشرق والشمال والغرب - نوعًا ما - ما لا يتهيأ له التواصل المتماسك. وقد حفظت لنا اللغة، بعد جمعها،

مـا يمثل اختلاف القبائل العربية فى لغتها. والذى يحكيه النحويون مثلا، من التميمية والحجازية، فى عمل ما، ليس إلا شاهدًا للاختلاف اللغوى بين شرق الجزيرة وغربها فى مظاهر كثيرة.

وإذا كان العـرب قد اسـتشرفوا لشيء من التماسـك الجامع لأمرهم قبيل الإسلام - كما تشـهد بذلك شواهد اجتماعية وسياسية ودينية - فإن الإسلام نفسـه كان هو الحركة الدافعة إلى مثل هذا التوحد والتماسـك. لكن الدعوة الإسلامية تواجه بالفعل هذا الواقع الذى أشرنا إليه من الاختلاف اللغوى.

والقرآن - وهو كتاب هذه الدعوة وملاك أمرها - لا بد أن يلقى إلى هؤلاء المدعويـن عـلى اختلاف مـا بينهم لغويًّـا. وكذلك ندرك الحاجة الماسـة إلى معالجة هذا الأمر الواقع، وما يحتاجه من تيسير على من يقبلون هذه الدعوة الجديدة ويسمعون كتابها، ويأخذون أنفسهم بترديده أو حفظه أو التعبد به حسبما كلفوا به من التعبد.

وألسـنتهم لن تطوع بهذا التحول المفاجـئ مهما يكن إخلاصهم فى تقبل الديـن الجديـد. هذا التيسـير هو الـذى كان فى إقراء الرسـول ﷺ القرآن لأصحاب هذه اللهجات بما تسـتطيعه ألسـنتهم، فاختلـف هذا الإقراء فعلاً باختـلاف لهجاتهم كـما تنقل الروايـات الحديثية ذلك، وكـما أوردت تلك الروايات معنى نزول القرآن على سـبعة أحرف، بعبارات مختلفة، ومن طرق متعددة، وذكرت هذا التيسـير على الناس فى هذا الوقت بتعدد الأحرف، لأن كل ذى لغة كان يشق عليه أن يتحول عن لغته. فاذن لكل منهم أن يقرأ على حرفه - أى على طريقته فى اللغة وما يستطيعه منها لسانه.

وقد كثرت الأقوال فى تفسير النزول على سبعة أحرف كثرة لحظها القدماء

أنفسهم، وعلقوا عليها مستكثرين حين وصلت بضعة وثلاثين رأيًا، فقال قائلهم: «أكثرها تداخلت، ولا أدرى مستندها، ولا عمن نقلت..» (الإتقان، جـ 1، ص 62).

والذى يعنينا هنا من هذه الأحرف السبعة أنها ليست القراءات السبع المشهورة بهذا العدد، والتى سيرد حديثها بعد، وأن هذه الأحرف إنما هى لهجات مختلفة فى اللغة العربية، وأنها وجدت فى القرآن جملة، لا أنها كانت سبع لهجات فى كل آية وكل موضع من القرآن، وأنها كانت ضرورة حيوية اقتضاها ما أسلفناه من الواقع اللغوى للعربية، وأن هذه الضرورة قد ارتفعت الحاجة إلى معالجتها بالقراءة على اللهجات المختلفة حين تغير حال المجتمع العربى الإسلامى بمثل ما يقول القدماء أنفسهم: «عندما انضبط الأمر، وتربت الألسن، وكثر الناس والكتاب، فارتفعت تلك الضرورة» (البرهان جـ1، ص 213، 224، 227).

وقد ارتفعت هذه الحاجة إلى الأحرف المختلفة حين جمع عثمان «المصحف الإمام» على ما سيذكر بعد. فكان مصحفه حرفًا واحدًا من تلك الأحرف المتعددة، وعلى ما هو المختار من الآراء الكثيرة فى معنى نزول القرآن على سبعة أحرف.

جمع القرآن

ما كان من نزول القرآن مفرقًا يبين وجه الحاجة إلى جمعه، وبخاصة إذا ما قدرنا أن فى السورة المكية منه شيئًا مما نزل فى المدينة، وفى السورة المدنية منه شيئًا مما نزل فى مكة. على أننا حين نقدر حال العرب الاجتماعية لعهد

نزوله، واعتمادهم إذ ذاك على حافظتم والركون إليها فى تسجيل أنسابهم التى كانوا يعنون بها عناية شديدة، وفى تداول مفاخرهم وأيامهم، ومثالب أعدائهم وما إلى ذلك مما تتطلب حفظه حاجة الحياة والمنافسة فيها.. حين نقدر هذه الحالة الاجتماعية للعرب نفهم كيف كان فيهم ذوو القوة النادرة فى الحفظ، ممن يتناقلون أخبارهم فى سرعة الحفظ وقوة الاحتفاظ بما تعى حوافظهم، ثم ندرك من ذلك أيضًا أن حالهم هذه كانت دافعة لهم إلى نوع من جمع القرآن الذى ينزل منجمًا بحفظه السريع القوى كذلك، فبقدر ما ناسبهم النزول المنجم لما فيهم من بداوة لا تشيع القراءة والكتابة بين أهلها، تهيأ لهم فى الوقت نفسه أن يحفظوا ما يلقى إليهم ويتلى عليهم.. لهذه البداوة نفسها. وسنسمع فيما يلى من يسمى هذا الحفظ الشفوى جمعًا للقرآن. وهو محق فى ذلك إلى حد كبير؛ لأن الحفظ - كما رأينا - مما تقويه وتسعفه ظروف حياة العرب العملية، والحافظة هى أولى الوثائق فى حياة الإنسان.

على أننا حين نتذكر مع ذلك ما يقع فى المحفوظ مشافهة من قرب التغير لبعض كلماته أحيانًا - وهو ما تنبه له القدماء من أسلافنا وحدثوا عنه - ندرك الحاجة الماسة إلى تدوين الكتاب الكريم، الذى له الأهمية الجوهرية والأصالة الأساسية فى الدعوة الإسلامية ما لا يكون أكثر منه ولا أقوى.

وقد كان تدوين أى القرآن موضع العناية الواضحة من الرسول ﷺ منذ اللحظة الأولى، فى صور من الاحتياط القوى أولها كتابة القرآن نفسه بالقدر الذى تسمح به الظروف الواقعة للحياة العربية الإسلامية. ولعل ذلك قد بدأ منذ العهد المكى نفسه، إذ نسمع فى خبر إسلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أخته وزوجها كانا يقرآن شيئًا من القرآن فى صحيفة معهما حين دخل عليها،

وكان بينه وبينهما ما كان مما أدى إلى إسلامه و إعلان ذلك الإسلام الذى اعتزت به الدعوة.

ومكة، بما هى بلد تجارى كانت الكتابة فيها تجد من يعنى بها، ضبطًا للأعمال التجارية التى نعرف امتدادها إلى المناطق التى وصلت إليها رحلات قريش فى الشتاء والصيف. ومن هنا ما يروى من وجود رجال كاتبين فى مكة، بل وجود نساء كاتبات. فإن السيدة حفصة بنت عمر، زوج الرسول ﷺ، مثلاً كانت تعرف الكتابة.

وتبدو عناية الرسول بنشر الكتابة فى مجتمعه الجديد مما نعرفه من جعل تعليم الكتابة للمسلمين بدلاً يفدى به الأسرى أنفسهم من الأسر فى موقعة بدر. ثم ما هو إلا أن كان للرسول كتبة وحى يكتبون بين يديه القرآن، ويكتبون رسائله، وقد بلغ عددهم إلى بضعة وعشرين شخصًا. ورأى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لبعضهم أن يتعلموا من اللغات غير لغتهم العربية.. وكذلك كتب القرآن أولًا بأول، مع حفظ ما ينزل منه كذلك أولًا بأول.

ومن تمام الاحتياط أن الرسول حين يكتب كتابه الوحى ويدونون القرآن، وحين يأمر أصحابه من غير هؤلاء المتخصصين بالكتابة أن يكتبوا القرآن لأنفسهم - حين يكون ذلك ينهى الرسول عن كتابة شيء آخر غير القرآن مما يسمعونه منه، لئلا يختلط شيء من ذلك بالقرآن.

ونظل نجد أثر الانتباه إلى هذا المعنى من المحافظة على النص القرآنى المكتوب من أن يشوبه شيء غيره. فيروى أن عمر بن الخطاب فى خلافته يفكر فى كتابة السنة. ويستشير الصحابة فيشيرون عليه بالكتابة. فيمضى عمر شهرًا فى الاستخارة حتى يصبح يومًا - وقد عزم الله له - فلا يريد أن

يكتب السنن... إذ ذكر قومًا كانوا قبلهم، كتبوا كتبًا، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله. وأنه والله لا يشوب كتاب الله بشيء أبدًا (ابن عبد البر، جامع بيان العلم، ج1 1، ص 64).

فالقرآن عند الرسول ﷺ كان يكتب شيئًا فشيئًا، حتى يروى أن بعض كتابه كانوا يلازمونه للكتابة بين يديه فى الوحى وغيره: لا عمل لهم غير ذلك. يذكرون من هؤلاء الملازمين معاوية بن أبى سفيان، وزيد بن ثابت، ثم الصحابة. كان الكاتبون منهم يكتبون القرآن ولا يخلطون به غيره من النصوص الدينية. ومن لا يكتب منهم كان يحفظ شفاها. وللقوم حافظتهم القوية، حتى قيل إن العرب قد خصت بالحفظ. وكان أحدهم يحفظ أشعار بعض فى سمعة واحدة.

وكان النزول المفرق، فى الوقت نفسه، عاملًا ميسرًا لحفظ الحافظين، مع ما لهم من قوة هذا الحفظ، وعاملًا ميسرًا كذلك لكتابة الكاتبين، إذ كانت كتابتهم ليست بالقوية ولا بالسريعة أو الموفورة الآلات، فهم لا يكتبون إلا شيئًا فشيئًا. ثم إن الرسول فيهم يتلوا عليهم هذا القرآن، وهم يتلونه فى تعبدهم وتدبرهم، وفى ملاقاة شئون الحياة وأحداثها بما واجهها به القرآن من تدبير وتصريف... وكل أولئك جدير بأن يحقق ما يروى من أن نفرًا بأعيانهم حفظوا القرآن كله جملة، إلى جانب الآخرين الذين كانوا يحفظون منه ما يتهيأ لهم حفظه. وتنقل الرواية أسماء هؤلاء الذين كانوا يحفظون القرآن الكريم كله قبل أن يفارق الرسول ﷺ الدنيا.

فهم أربعة فى رواية، وستة أو سبعة فى أخرى، وأكثر من ذلك فى الروايات. وأشهر من تتفق الروايات على حفظهم للقرآن كله هم: عثمان

بن عفان، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل (الزركشى البرهان، جـ 1 - 1.24 - 243).

والـذى يعنينا هنا هو أن القـرآن، حينما تم نزوله مفرقًا، كان يحفظه نفر من أصحاب الرسول: منهم من حفظه كله بأجمعه، ومنهم من حفظ ما تيسر منه. وكان قد كتب الكتابة التى مكنت منها الظروف على ما سـيأتى. وهذا ما يمكن أن نسميه الجمع الأول للقرآن، إذ اجتمع به فى صدور حفاظ أقوياء الحافظة: حفظ بعضهم كله، وحفظ بعضهم أبعاضه. واجتمع فى مكتوبات، وإن لم تأخـذ صـورة الصحف أو الكتـاب كما نفهمها اليـوم، لتفرق المواد التـى كانـت عليهـا الكتابة، واختـلاف أنواعهـا اختلافًا يحـول بينها وبين تماسـك الصحف فى الكتب، كما سـنعرف بعد من أمر تلك الكتابة الأولى، وأنها كانت على مسـطحات من مواد متعددة: خشـبية أو عظمية أو خزفية، اختلفت مساحاتها كما اختلفت موادها.

وكان هذا الذى نسـميه جمعًا أول مناسـبًا لحال المجتمع الإسـلامى حتى وفاة الرسـول ﷺ. إذ كان حتى هذا الوقـت، مجتمعًا محدود المكان، أفراده متعارفون متواصلون، لم تتسـع رقعته بعد إلى خارج وطنه، بل لم يستوعب الجزيرة العربية نفسها بعد، ولم يبعد عهده بسماع القرآن مبلغه الأعظم آناء الليـل وأطراف النهار، ولا عند الناس ما يشـعرهم بعدم كفاية ما كان حتى الآن لحفظ القرآن، بل لا يتجهون إلى شيء من ذلك لأن صاحب البلاغ قائم فيهم، وعنده كل الكتاب، وإليه وحده يرجع التفكير بالدعوة الإسـلامية فى أمورهـا كلها. وإنما جهد الواحد من أفراد هذا المجتمع أن يحفظ هو شـيئًا مـن هذا القـرآن، أو يكتبه، أو يتلوه ليفقه شـيئًا من معنـاه، ويرتاض بهديه الذى كانوا أقدر الناس على معرفة جلاله وأهميته.

جمع أبى بكر

فارق رسـول اللـه ﷺ الدنيا بعد ما دبر لحفظ القـرآن، فكتب الكتابة الممكنـة إذ ذاك، وحفـظ أصحابـه منه ما اسـتطاعوا حفظـه، وبعضهم قد حفظه بأسره كما سبق.. وذلك كله مما يمكن أن نعده ضربًا من جمع القرآن، وأن نسميه الجمع الأول للقرآن.

وبوفاة الرسول ﷺ واجه المجتمع لجديد هزة عنيفة بحركة الردة، وكان مـا كان فيها من قتال بـين الثابتين والمرتدين. وفى أواخـر حركة الردة، بعد واقعـة اليمامة مع المرتدين، نسـمع أن أبا بكر أمر بجمع القرآن، وتسـتطيع أن تـدرك التغير الذى طرأ على المجتمع الإسـلامى: بحرمانه قيادة الرسـول، وارتـداد جمهـرة كبيرة من الناس.. وهى حال تدعـو بطبيعتها إلى التفكير فى صون دعامة وجود هذا المجتمع الجديد.

وكان يمكـن أن يتجـه تفكـير ذوى النظـر البعيـد إلى الاحتفـاظ بأصل مصـون لهـذه الدعامـة، وبعد مفارقـة الرسـول ﷺ. وسـواء أكان هناك سـبب مباشر قد نبه إلى العنايـة بصيانة القرآن، وأهميتـه الجوهرية فى حياة الإسلام، هى التى دعت إلى هذا الجمع.. سواء أكان هذا أم ذاك فقد اتجهت العنايـة المبكـرة إلى الظفر بأصل مكتـوب للقرآن فى حالة أكـثر تنظيمًا من حالـة كتابته الأولى. وتم التفاهـم أخيرًا بين أبى بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وهما الزعيـمان الكبيران فى هـذه الجماعة - على أن يتحقق هـذا الغرض، ويوجد أصل مكتوب للقرآن.

وعهد بذلك إلى أحـد الصحابة الذين تحقق لهم جمع القرآن فى صدورهم حفظًا، وله سـابقة مشـكورة فى العمل لصونه، هى اشتغاله بكتابته بين يدى

الرسول ﷺ.. فهو حافظ القرآن، وهو أحد كتبته، فهو بذلك أقدر الناس على تحرير نسخة منه مكتوبة فى مجموعة من الصحف - مهما يكن نوعها - بدل كتابته الأولى على مواد مختلفة، من حيوانية ونباتية وجمادية.

واعتمد زيد بن ثابت فى تحرير هذه المجموعة على المصدرين اللذين حفظا النص القرآنى حتى الآن، وهما: الحفظ المشافه من الحفظة الأقوياء فى ذلك، والكتابة المدونة فى عهد الرسول ﷺ.. وكذلك جمع ما كتب من القرآن على صحف من كاغد أو جلد أو من جريد النخل أو الحجارة البيض الرقاق أو ألواح عظام الإبل والغنم وما إليها.

وتتحدث الأخبار عن خطة زيد فى جمعه هذا، وكيف كان يتحرى و يتثبت مما يكتبه، ليكتب من عين ما كتب بين يدى الرسول عليه صلوات الله، وأنه اشترط لذلك دليلين أو حجتين.. وهل هما شاهدان إنسانان؟ أو هما شاهد إنسان، وكتابة؟ وتذكر أنه قد توافر له ذلك فى كل ما قيده من القرآن إلا فى آيتى آخر سورة التوبة:

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [التوبة: 128].

وأنه اكتفى هنا بشاهد أو حجة واحدة فقط، لأنهما - فيما يروى - آخر ما نزل من القرآن.

ولا نشعر بحاجة للوقوف عند شيء من هذه الأخبار لغير سبب واحد يقضى بالانصراف عن ذلك، فهى أخبار آحاد لا يسهل فحص أسانيدها، وهى مع ذلك عرضة للتأثر بأهواء ذوى الهوى من أصحاب العصبية الدينية، والخصومة الاعتقادية فى كل حين. روجها فى القديم من روجها من هؤلاء،

ويثير الغبار بها أشباه لهم فى هذا العصر، من ذوى الأغراض السياسية والاعتقادية المحترفين ذلك.. وهى من كل لا تمس القرآن من بعيد أو قريب لو تمثل الواقفون عندها الظروف والملابسات التى جمع فيها القرآن هذا الجمع الثانى زمن أبى بكر. فحال الناس إذ ذاك، ومدى معرفتهم للقرآن، وحال من قام بهذا الجمع وقدرته عليه، وقدر الرقابة العامة على ما يتم من عمل فى ذلك، والطاقة الإنسانية الممكنة فى مثل هذا الجمع، وما تهيأ منها للبشرية كل حين. فى حفظ مثل تلك النصوص الدينية أو الدنيوية، وما يتصل بكل ذلك من معانٍ واعتبارات كبرى - تعطى ضمانات لمثل هذا العمل يكون الوقوف بعدها عند مثل الأخبار المتناقلة عن طريقة الجمع، وأحواله، مما يبدو عبثًا لا طائل تحته.

واعتبر ذلك بزمان جمع أبى بكر، فهو بعد شهور من وفاة الرسول ﷺ، لعلها لا تكمل عامًا فقد توفى عَلَيْهِ السَّلَامُ فى ربيع الأول أو حوالى هذا من السنة الحادية عشرة، وفى هذه السنة نفسها كان الأمر بالجمع، وهو وقت قصير لعله لم تكد تنسى فيها آذان المسلمين أنغام قراءة الرسول التى كانت تتردد أصداؤها فى أنحاء الحجاز. فالعهد قريب جد قريب، ولهذا القرب أهميته الكبيرة إذا ما تذكرنا ما كان من جمع لنصوص دينية أخرى بعد أجيال من حياة أصحابها، ثم حال المجتمع الذى يعرف هذا القرآن، ويقدره، ونظرته إلى القرآن فى هذا التقدير، فهو مجتمع متعارف متواصل، متحد البيئة، واحد النظام والروح، متماسك ماديًا ومعنويًا ونفسيًا، لم يتعرض لهزات اجتماعية: من خروج لغزو أو هجرة، أو من هجوم عدو، أو أسر مفرق، أو ما يشبه ذلك مما تعرضت له جماعات تاريخية عقودًا من السنين، جمعت بعدها نصوصًا دينية، من تفاريق ناس، وبقايا أقوام.

وهذا المجتمع الإسلامى المتماسك، المحدود المكان، صاحب الأمر فى موطنه، له من العناية الموفورة بالقرآن ما نعرفه من أنه مرجع دينه، ومادة تعبده، ومدار حياته، فهو يتلوه تدبرًا، وهو يتلوه تعبدًا، وهو يتلوه تفننًا بما هو معجزة لغتة البلاغية، التى تحدّت نهضته العربية الأدبية فى عصره كما هو معروف. وهو مأمور منذ الدهر الأول بكتابته، وهو مأمور مع ذلك بعدم كتابة شيء آخر ذى صفة دينية غيره. وهو قد كتبه فعلًا، على قدر ما استطاع وأطاق، فى حياة مبلغه ﷺ. وهو يتابع عنايته بالقرآن فى هذا الجمع المبكر الزمن، بعد شهور من أول تغير طرأ على وجود هذه الجماعة بانتقال الرسول، وظهور حدث ضخم كحروب الردة.

وفى هذه الظروف المواتية كلها يعهد بالجمع إلى رجل هو ممن حفظوا الكتاب كله كما هو معروف، وحوله بضعة نفر يحفظونه كله مثل حفظه له، وحوله مئات أو آلاف يحفظون متفرقات منه تصلح بمجموعها مرجعًا لرقابة كل منهم على ما يحفظه. وهذا الرجل الجامع كاتب يعرف القراءة والكتابة. وقد مارس كتابة هذا القرآن مع الرسول نفسه ﷺ.

وإذا ما تمثلت هذه الظروف كلها، واستكملت الصورة الوافية لها، فهل تجد غرابة فى أن يكلف زيد بن ثابت وحده، بظروفه الخاصة وظروف الحياة العامة، أن يفرغ لكتابة مجموعة من القرآن الذى يحفظه فى صحف من الورق سهلة التضام ممكنة الحفظ، تكون أصلًا محفوظًا مكتوبًا لكتاب الدين الذى يوجد منه ما يوجد من المكتوب المدون، والذى تضبطه ذاكرة حافظة قوية الحفظ لأتباع هذا الدين؟.. ما أحسب أن شيئًا من الغرابة فى أن يكتب زيد بن ثابت، حتى من حافظته هو وحده، نسخة من القرآن.

فكيف إذا رجع إلى المكتوب، ورجع إلى حفظ الحفاظ الآخرين، على أى وجه كان هذا الرجوع؟

ما أرى إلا أن تمثل حال المسلمين عند هذا الجمع سنة 11 هجرية، وحال القرآن فيهم، أولى للمعتقد والباحث جميعًا من الوقوف عن منشورات أخبار آحاد أكثرها معلقة لا سند لها، وهى خليقة بأطرابها أن تخفى الصورة الصحيحة المشرقة للحياة والناس، والظروف التى جمع فيها القرآن جمع أبى بكر الثانى بعد جمع الرسول الأول قبله.

من أجل ذلك عنينا هنا باللفت إلى هذه الحالة، وآثرنا ذلك على الحديث فى شيء من تفصيل خطة الجمع أو أخباره، لأن الحال التى تم فيها وبها هذا الجمع تهيئ من الاطمئنان إلى المجموع ما لا يكاد يتوافر مثله على التاريخ لما حفظت البشرية من نصوص وأصول.

فى هذه الظروف المسعفة كلها كتبت نسخة كاملة من القرآن فى صحف وسميت المصحف. وهى كلمة حبشية الأصل، قربتها إلى المسلمين الأخوة اللغوية بين العربية والحبشية فى الأسرة السامية، والصلة الطيبة بين طلائع المسلمين والحبشة حين وجدوها مهاجرًا لهم ومنجاة من الاضطهاد.

كتبت هذه المجموعة - كما قلنا - لتكون أصلًا محفوظًا بصون الكتاب الذى سمى كتابًا قبل أن يتم ظهوره، ويكتب فى صورة كتاب، فوصف نفسه بذلك منذ العصر المكى بمثل الآية:

﴿ طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ ﴾ [النمل: 1].

هذا المصحف الأول لم يكن مرجعًا للقراءة والمراجعة، بل هو أصل محفوظ يقى النص الدينى من أن ينقص منه شيء، أو يزيد فيه شيء، أو

يشتبه فى بعض لفظه حافظ يقع عادة فى مثل هذا الاشتباه، على الرغم من قوة حفظه. إن هذا المصحف الأول أشبه شيء بالأصول التى تحفظها الدول الآن لأقدار يرجع إليها، و يؤخذ عنها. ولذلك يمكنك أن تفهم ما يقال من أن هذا المصحف الأول يشتمل على النص القرآنى فى أكثر من حرف واحد، على ما عرفت من أمر الحروف السبعة، التى كان يقرأ بها أصحاب اللهجات المختلفة من العرب تيسيرًا عليهم وتسهيلًا.

ومن المألوف فى هذا، أن يحفظ هذا المصحف الأصل، بصحفه التى أصبحت فى صورة الكتاب على وجه ما، عند أصحاب الأمر فى المسلمين، فكان عند أبى بكر حياته، ثم صار إلى عمر بن الخطاب حين خلفه، ثم صار عنه إلى حفصة ابنته، وزوج الرسول ﷺ، ولعل لهذه الزوجة من أمهات المؤمنين صفة أو ميزة خاصة، إلى جانب بنوتها للخليفة، وزوجيتها للرسول ﷺ، هى أنها كانت تقرأ وتكتب، فهى أهل لحفظ الكتاب.

هذا الجمع الذى تم فى عهد أبى بكر كان الجمع الذى يحقق المعنى المادى للجمع والضم، إذ ضمت الصحف ما كتب متفرقًا، فلا يند منه شيء ولا يدخل فيه شيء خارج عنه، كما جمعت المحفوظ قطعًا متفرقة عند حفظة لبعض القرآن، واحتفظت بأصل رسمى لما حفظ الحفاظ من جميع القرآن. فهذا الجمع قد مثل حاجة الحياة الإسلامية لعهده، وساير التطور الذى طرأ عليها بانتقال الرسول ﷺ وما جرى بين المسلمين بعده...

وتتقدم الحياة فتكون ظروف وحاجات أخرى.

جمع عثمان

إن المجتمع الجديد الذى بلغ أشده، وأقر وجوده بعد حركة التطهير الداخلية، قد جعل يتفاعل مع ما حوله من الجماعات داخل الجزيرة، بل كان هذا التفاعل الواسع داخل الدائرة وخارجها، قد بدت طلائعه فى الفترة الأخيرة من حياة الرسول ﷺ بتجهيزه جيش «أسامة» للقتال فى الشمال، حيث يمتد نفوذ الروم، ويواليهم من العرب من يواليهم.

بدأت حركة الفتح الإسلامى فى عهد أبى بكر وعهد عمر بعده، وتهيأ لها من النجاح السريع ما تهيأ. وكان رجال هذا الجيش الزاحف إلى كافة الجهات حول الجزيرة العربية، والمستقرة فيما يفتح عليهم من جديد البلاد، هم أفراد ذلك المجتمع الإسلامى الذى راضه الرسول، ولقنه القرآن فى اليسر والسهولة التى يطوع بها لسانهم - على اختلاف لهجاتهم - كما أشرنا إلى شيء من أمره قريبًا، ولئن كان يقرأ كل بحرفه فى قومه ومنطقته فلا يلقى غير أهلها من أصحاب حرف آخر إلا للسبب الطارئ. فالآن حين تكتَّب الكتائب من مختلف المناطق، ومتفرق القبائل، ويوحد بينهم الصف فى الميدان، كما يؤلف منهم الصف فى المسجد، ويؤم إمام، ويأتم مؤتم، وتتلاقى اللهجات فى معترك الحياة، ومعارك الفتح.

ويمضى على هذه الحال المشتركة غير قليل من الزمان، وأهل هذه الحروف المتغايرة - نوعًا ما - يقرءون بها القرآن، فيما بينهم، ويقرئونه الناس حديثى العهد بالإسلام، ممن يدخلونه من مختلف الألسنة والألوان الذين لا بد لهم من معاناة شيء من العربية، وحفظ أى شيء من القرآن لإقامة عبادتهم.

كانت هذه التجربة الاجتماعية للحركة الإسلامية فيما تجمع وتمزج بين العرب على اختلاف منازلهم وتفاوت ألسنتهم وبين العرب وغيرهم من ذوى الألسنة الأخرى، فى أنحاء الدنيا القديمة.. كانت تجربة ذات أثر بعيد فى ألوان النشاط المختلفة لتلك الأمشاج التى يتم الزمن تجربته عليها جمعًا ومزجًا، وتلاقيًا وتنافرًا. ولمثل هذه التجربة نتائج كثيرة يطيب لأصحاب الاجتماع أن يشهدوها ويصفوها. أما نحن - والحديث ليس إلا عن القرآن - فإنا نقدر أن هذا التلاقى والاختلاط، والتعاون والتصارع، لا بد أن يحدث أثره فى الحياة اللغوية، لا بد أن يحدث أثره، ويعنينا منها بخاصة حياة العربية. فنقول: إن هذا المختبر الكبير الذى تتم فيه هذه التجربة البشرية خليق بأن يقرب بين العرب المختلفى اللهجات، إذ لا بد لكل منهم أن يتفاهم مع جاره فى الميدان وقسيمه فى التجربة، وذلك مما يقرب، ولا بد، من مسافة الفرق بين تلك اللهجات، فيكون شيء مما أشرنا إليه فى حديث نزول القرآن على سبعة أحرف، وهو ما قال القدماء أنفسهم عنه: «إنه تدرب الألسنة، وتمكن الناس من الاقتصار على طريقة واحدة» (الزركشى البرهان، جـ1، ص 213)، أو قالوا عنه حينًا: «إنه كثرة الناس والكتاب، وارتفاع الضرورة». (المرجع السابق، ص 224).

وقد كانت تلك التجربة الكبرى فترة ما لتدرب الألسنة والقرب بينها بما يمكن من الاقتصار على طريقة واحدة. وإمكان أدائها وفهمها. كما كانت تلك التجربة فرصة عظمى لكثرة الناس من فجاج الأرض، ومتباعد الأقاليم، تبسط عليهم دولة الإسلام جناحها، وتمد سلطانها.

هذا جانب من أثر الفترة التى مضت على كتابة المصحف الذى جمع من طرائق نطق القرآن ما يمكن أن يكون قد جمع، وحفظ - كما قدمنا - أصلاً

ينتهى إليه حفظ الحافظ للقرآن كله أو بعضه، كما تنتهى إليه كتابة من يكونون قد كتبوا من هذا القرآن لأنفسهم كلا أو بعضًا.. ولهذا التغيير اللغوى الذى أتمه العمل الهائل الواسع المدى فى الفتح الإسلامى أثره الذى لا بد أن يقدر.

وثمة جانب آخر للوضع، هو أن هؤلاء المجتمعين من أقطار الجزيرة، ومختلف حروفها اللغوية، لا بعد فى أن يثور بينهم شيء مما كان يثور أول الزمن فى حياة الرسول ﷺ، حين كان يقرأ واحد منهم بحرف لم يقرأ به رفيق له، فيفزع من ذلك، ويخف ملببًا[1] صاحبه الذى يغير القرآن.

ويقول أهل التاريخ: إن شيئًا من هذا الخلاف قد ثار، وأصحاب الأحرف العربية المختلفة فى منأى من الأرض بأرمينية، وفيهم أهل الشرق، وأهل الشمال، وكان ما يكون من تفاضل ومقابلة بين قراءة وقراءة، ومثل هذا ينتهى إلى خلاف يكون شجارًا، ففرقة وفتنة، حيث تجب الوحدة والألفة بين أعضاء جسد واحد، يؤدون عملاً لا ينجح إلا بتساند وتكامل.

ولك أن تحسب هذا الخلاف المفرق فى الوقت نفسه، التفاتًا اجتماعيًّا إلى ما تهيأ له المجتمع من اتحاد وقلة فرقة. وعلى أى حال نظرت إلى الأمر فعلى عهد عثمان مست الحاجة الاجتماعية إلى معرفة بالقرآن تلائم التطور الجديد للمجتمع الإسلامى الذى كتاب وحيه هو القرآن. مست الحاجة إلى ذلك لدى العناصر الجديدة التى تتعرب لسانًا وتدينًا، ومست الحاجة إلى ذلك لدى العناصر العربية القديمة التى تتمازج وتتخالط فى الغزو والهجرة والمستقر الخارجى.

(1) فى آخذا بتلابيبه، أى بموضع الطوق من ثيابه.

وانتهى الأمر إلى الخليفة عثمان طلبًا للوحدة، وتلافيًا للفرقة، إذ اختلف العراقيون والشاميون من جيش الفتح فى أرمينية على القراءة وتشاجروا، وخاف قائدهم أن يصير الأمر بالمسلمين إلى مثل ما صار إليه من انقسام أصحاب الديانات الأخرى على كتبهم.

هكذا تقول الرواية المنقولة، وهو ما يمكن أن يقوله التفسير الاجتماعى التاريخى: إنه حاجة إلى الوحدة فى صورتها الشاملة، و إنه رغبة فى توحيد المسلمين الغازين والمتلقين لدعوتهم الجديدة. كما يستطيع التفسير التاريخى أن يقول: إنها وحدة تهيأت أسبابها وآذنت بها الأحوال.

و يدرك الخليفة عثمان هذه الحاجة، و يستجيب لتلك الدعوة، و يدرك ذوو السن والخبرة حوله من أصحاب الرسول هذه الحاجة، و يستجيبون لتلك الدعوة، وسواء أكان إدراكهم كلهم لهذه الوحدة إدراكًا بعيد المدى يقدر حاجة العرب وغير العرب من المسلمين إلى مرجع قرآنى للاتصال بكتاب وحى الدين الجديد، أم كان إدراكًا قريب المدى يخشى أن تكون لهجات العرب فى قراءة القرآن سببًا لاختلافهم واقتتالهم بسببه.. إنها جميعًا فى المآل شعور بالوحدة، وعمل من أجلها.. فى أى صورة صورت.

ومن هذا أدركت ماذا تريد الحياة من المسلمين أن يفعلوا بالنص المحفوظ مرجعًا: إنهم محتاجون إلى أن يقدموا منه أصولًا للقراءة، يرجع إليها و يأخذ عنها المسلمون على اختلافهم، من أصحاب لهجات عربية كانت لهم أمس استطاعة القراءة بها تيسيرًا عليهم، وقد غدوا بعد جيل تغيرت فيه الحياة تغيرًا جوهريًّا كبيرًا، لا ضرورة تقضى عليهم باستعمال حروفهم، لئلا يختلفوا، فقد صاروا بحيث يستطيعون الاتفاق. و إلى تلك الأصول من المصاحف

يرجع المسلمون من غير العرب وعنها يأخذون، وما بهؤلاء حاجة إلى شيء من خلاف؛ لأنهم يأخذون العربية أخذًا كسبيًا جديدًا، فلتكن بحرف دون سواه.. فكله لديهم سواء. وكذلك كان عمل عثمان. هو تقديم هذه المصاحف الأصول لتكون مرجعًا لقراءة القرآن ينتهى إليه كل عربى مهما تكن لهجته، وينتهى إليه كل من عدا العرب من المسلمين.

وهذا الذى يصنعه عثمان إذا ما سميناه جمعًا، فإنه الجدير بأن يسمى جمع المسلمين، لا جمع القرآن.. فإن جمع القرآن - بمعنى ضم أجزائه - قد كان فى عهد الرسول بما يلائم نزوله منجمًا، ثم كان هذا الجمع - بمعنى الضم - فى عهد أبى بكر، بما حفظ أصلًا رسميًا يكون مرجعًا. وعمل عثمان هو تهيئة هذا الأصل الرسمى للتداول العملى على حال تلائم الدعوة الإسلامية التى امتدت وتمتد.

تألفت لجنة لذلك كان فى طليعتها زيد بن ثابت. وعلينا أن نتصور الوضع الاجتماعى والهدف العملى الذى أحوجت إليه الحياة، وكيف عمل لتحقيقه أولئك الذين وجهتهم الأحداث إلى تحقيقه.

أما الهدف فهو مصحف موحد، قدر المكنة، يأخذ عنه الناس فى أنحاء الدولة الجديدة، كتاب الوحى الإسلامى: القرآن، فالمهمة فى جوهرها إخراج كتابى للنص القرآنى فى حرف واحد موحد من الحروف التى أنزل بها القرآن، وتركت إباحة القراءة بها إلى حين.

أى حرف تظن أن توجه الحياة إليه من أحرف النزول؟ سيعطيك أصحاب تاريخ اللغة العربية الجواب عن هذا، بما يرقبون من سير اللغة العربية فى طريقها التطورى: إنهم رأوا القحطانية اليمنية الجنوبية تتفاعل مع العدنانية الشمالية، وينتهى الأمر بهما إلى لغة موحدة، عدنانية تستبقى من آثار

القحطانية ما شاء الزمن أن يبقيه، ثم رأوا العدنانية الأخيرة يتفاعل بعضها مع بعض، من شرق الجزيرة وغربها، بعد التفاعل بين شمالها وجنوبها، والغرب فيه الحجاز، بمعبده الأكبر، محج الجموع، وفيه الدعوة الجديدة - ففيه بذلك تفاعل لغوى وشيك أن ينتهى بلغة قوامها القرشية السائدة فى المنطقة قبل الإسلام وبالإسلام. وهذا التفاعل اللغوى كما نعرفه إنما هو انتخاب لسانى يستبقى الأصلح والأمثل، فيما تقدر سنن الحياة العاملة. وإذا ما عرفت فى إجمال اتجاه التطور اللغوى للعربية على هذا الوجه، فإنك قدير على أن تجد الإجابة عن السؤال السابق، وهو : أى أحرف النزول توجه إليه الحياة؟ إنه القرشية الانتخابية التى تعمل العوامل الاجتماعية اللغوية على إيجادها، بدفع حوادث كبرى، وموجهات عظمى، لا بمحض رغبة فرد أو أفراد، أو محاولة سيطرة تفرض ذلك.

وإذا ما قال الخليفة عثمان للرهط القرشيين فى لجنة المصحف الموحد: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش» - فذلك لأن زيد بن ثابت أنصارى خزرجى ليس قرشيًا، وقريش هى التى تتجه الأحداث الاجتماعية إلى تغليب لهجتها وحرفها، فليكتب المصحف العام الجديد بهذا الحرف، وليكتب بمثل منطوق هذا الحرف.

وإذا ما تمثلنا الوضع الاجتماعى الدينى واللغوى والسياسى كذلك، تمثلنا بكل وضوح مهمة اللجنة العثمانية التى تعمل لاستخراج صور من الأصل المحفوظ بدار الدولة للمصحف الجامع الذى كتب فى صحائف تؤلف كتابًا على عهد أبى بكر.

إن على القوم أن يكتبوا مصاحف تحفظ ما فى المصحف الأصل من حرف

قريش وتكتب ما قد يكون لسواه كما تنطقه قريش. وهذا هو العمل الذى أتمته اللجنة على هذا الدستور، فأخرجت بضع نسخ، وجهت كل نسخة منها إلى مدينة كبرى من المدن الإسلامية، وأبقت واحدة منها بالمدينة عاصمة الدولة إذ ذاك.

وما أدركته من الهدف الأكبر لهذا العمل يستتبع الخطوة المقررة للوحدة، وهى إلغاء الاعتبار الرسمى لكل ما عدا هذه النسخة المأخوذة عن الأصل المحفوظ. وإذا ما أدركت كذلك أن الأصل كان بحال من حفظ آثار حروف ولهجات لم تبق إليها حاجة، فكذلك يؤمر بما سوى المصحف الإمام الموحد من كل صحيفة أو مصحف أن يحرق، وصحف الأصل كذلك تغسل غسلًا.

وعن المصحف الإمام أخذت المصاحف جميعًا، وصار هذا المصحف برسمه وخطه هو موضع كل حديث للناس قديمًا أو جديدًا عن بحث أو درس أو تاريخ للقرآن.

كتابة القرآن

تُحدِّث المصادر العربية عن قلة الكتابة فى العرب جدًا، وتحدثْ عن أوليات فى ذلك لا ترجع فى الحجاز إلى أبعد كثيرًا من جيل الرسالة الإسلامية نفسها، كالقول بأن الذى تعلم الخط من الأنبار قدم مكة فتزوج بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية، فعلمها لأصهاره: لأبى زوجته ولأخيها (ابن كثير ، فضائل القرآن، ص 5 طبعة المنار). ودون أن نؤرخ الكتابة العربية فى الحجاز، نستطيع الاطمئنان إلى ما تدل عليه

الشـواهد الكثيرة من قلة انتشـار الكتابة فى هذه المنطقـة، ومن بدائية هذه الكتابـة فى طريقتها، ومن نـدرة مواد الكتابة أيضًا... ومـن هنا ما كان من الكتابـة الأولى للقرآن على تلك المواد، غير الصحف، من الرقاق، واللخاف، والعسب[1]...فهى كتابة لم تحكم إذ ذاك جيدًا (المرجع السابق، ص 51).

وبهـذه الكتابة فى مسـتواها، كتب مـا كتب أولًا من متفرقـات القرآن، وكتـب الأصل المحفوظ أيـام أبى بكر، ولم يصل إلينا شيء من ذلك، وكتبت كذلك المصاحف الموحدة التى أرسلها عثمان إلى الأقطار، وهى التى وصلت إلينـا الأوصاف الواضحـة المفصلة عن طريقتها، وصـارت معرفتها علمًا من «علـوم القرآن» التى أشرنـا إلى أنها اصطلاح خاص بالدراسـات القرآنية فى مختلـف نواحيهـا.. فعد من هذه الدراسـات مـا يخص كتابة القـرآن الأولى ويسـمى «علم مرسـوم الخط». وسنشـير إلى شيء ما يتحدثون به فيه. فقد صنفوا فى علم مرسـوم هذا الخط، ومـا تختلف فيه كتابة المصاحف فى وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة. ولا تزال مسـألة كتابة المصحف موضع النظر طوال العهود الماضية، حتى اليوم، كما أن الكتابة العربية كلها موضع للنظر اليوم بخاصة، مما يدفعنا إلى إجمال وصف كتابة المصاحف، وتطورها على الزمن، وما يرشد إليه هذا التتبع التاريخى من حل لبعض ما يعرض للبحث اليوم من شئون الكتابة القرآنية الخاصة، أو الكتابة العامة نفسها.

❐❐❐

كتبـت المصاحف الأولى - الأئمة - من القـرآن بالخط الكوفى أو الحيرى

(1) اللخاف، جمع لخفة، بوزن صحفة: حجارة بيض رقاق. والعسب. جمع عيب: الجريدة من النخل يكشط خوصها.

المتولـد عن الخط المصرى القديم، فى حلقـات من التطور من الخط الفينيقى والخـط الآرامى.. وغيرهمـا. ولم يكن فى حـروف هذا الخط نقـط تميز ما يتشـابه من أشكال حروفه، كما لم تعرف الكتابة العربية الشكل الضابط، وظلت المصاحف زمنًا غير منقوطة ولا مشكولة.

وقد حفظ الرسـم الأول للمصاحـف ضربًا من كتابـة الكلمات، تطور بعده الخط والرسـم، فكان لرسـم المصحـف فروق عما اعتـاد أهل العربية كتابته بالرسـم الـذى أقاموه على اعتبـارات صوتية أو اعتبـارات تصريفية للكلـمات وما إلى ذلـك. وكانت معرفة ما تفرد المصحف برسـمه فى صورته الأولى موضع عناية على الأجيال المختلفة، منذ كتب القرآن إلى اليوم، وعرف علـم خاص بهذه الفروق، بين علوم القرآن التى أشرنا إليها سـابقًا، وهو علم مرسـوم الخط، أى علم رسـم المصاحف، وألفت فيه الكتب المفردة ونظمت المتـون، حين ظهرت حركة نظم العلوم، ولا يزال من المشـهور إلى اليوم، فى عالم المتون، ما نظمه الشـاطبي[1] فى الرسم باسم «عقيلة أتراب القصائد، فى أسنى المقاصد» نظمًا لما فى كتاب «المقنع» لأبى عمرو الداني[2] (توفى 444هـ) فى رسم المصحف.

ونجد اختلاف رسـم المصحف عن رسـم العربية العادى واضحًا بزيادة حـرف ونقـص حرف، ووضع حرف مـكان حرف، ومـا إلى ذلك من فروق جوهريـة. فكلمـة «لأذبحنـه» تكتب فى المصحـف «لا أذبحنـه»، وكلمة

(1) الشاطبى - القاسم - «590هـ - 1194م» إمام لقراء فى عصره. ولد بشاطبة وتوفى بالقاهرة.

(2) الدانى - أبو عمرو عثمان «444هـ - 1052م»ففيه مالكى أندلسى، اشتهر بالقراءات. ومن أهم آثاره (التيسير فى القراءات السبع).

«بأيـد» تكتـب «بأييد»، وكلمـة «الحيـاة» و«الصلاة» تكتبـان «الحيواة» و«الصلواة».

وقد أدخلت على الخط الكوفى فى المصاحف تحسينات مختلفة على الزمن، منذ القرن الأول الهجرى نفسـه. ففى عهد عبد الملـك بن مروان[1] الخليفة الأمـوى كان الأمر بنقط المصحف وشـكله، فتصـدى لذلك الحجاج، وأمر الحسـن البـصري[2]، ويحيى بن يعمر[3] ففعلا ذلك. ويقـال إن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي[4]، وكان لمحمد بن سيرين[5] مصحف قد نقطة لـه يحيى بن يعمر (ابن كثير، فضائل القـرآن، ص 89). ونعرف أن المصحف قـد كتب بعد ذلك بالصور المتجددة للأحرف العربية غير الكوفية، وأدخل على رسـمه من التنسـيق غير قليل، فكانت فيه علامات للوقف، و إرشادات

(1) عبد الملك بن مروان «26 - 86هـ - 646 - 705م» خامس خلفاء بنى أمية. أعاد وحدة الدولة الأموية. وعرب الدواوين، وأنشأ البريد. وصك العملة الذهبية.

(2) الحسن بن أبى الحسن البصرى «21 - 110هـ - 642 - 728م» سيد التابعين، وأبرز الأئمة فى عصره، تخرج من مدرسته فى البصرة أئمة الكلام والفقهاء والزهاد. كان معارضًا للاستبداد ومشيرًا على عمر بن عبد العزيز.

(3) يحيى بن يعمر العدوانى «129هـ - 746م» من علماء التابعين، عالم بلغات العرب والفقه والحديث، ومن كتاب الرسائل الديوانية، أخذ النحو عن أبى الأسود الدؤلى وكان فصيحًا بالسليقة، وكان فى السياسة مثل الحسن البصرى معارضًا للحجاج بن يوسف.

(4) أبو الأسود الدؤلى «1 ق.هـ - 69هـ - 605 - 688م» ظالم بن عمرو، تابعى من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان، واضع علم النحو، سكن البصرة فى خلافة عمر، وولاه على إمارتها.

(5) محمد بن سيرين، أبو بكر «33 - 110هـ - 653 - 729م» تابعى بصرى إمام عصره فى تعبير الرؤيا، ومن أشراف الكتاب، والمبرزين فى الزهد وعلوم الدين.

للنطق، و إشارات لأقسام من أجزاء وأرباع وأحزاب، ولمواضع معينة فيه كالسجدات. إلى غير ذلك.

ومع ما كان من هذه التحسينات الفعلية للخط الأول الذى رسمت به المصاحف. فقد ظل الكلام يدور حول رسم المصحف من حيث تقدير عمل الصحابة الأول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومدى وجوب التزامه فى كتابه المصحف أو إمكان التغيير فيه، والحاجة العملية الماسة إلى تيسير تعلم القرآن على النشء الذين يتعلمون الكتابة بنظام الرسم العادى المخالف لرسم المصحف، وحل ذلك أو عدم حله، والفتوى فيه، بل التصرف الفعلى فى كتابة هذا القرآن لمن يريد تعلمه من الصغار أو أشباههم من العامة.

وبنظرة جامعة يتمثل لك تياران واضحان من التفكير الإسلامى فى هذه النواحى كلها، و يتساير هذان التيارات منذ القرن الأول الهجرى إلى القرن الرابع عشر. ومن الخير أن نجمل مسير التيارين لما أشرنا إليه من الأهمية الحيوية، والمشكلة الفعلية حول كتابة العربية بعامة، وما يتصل بها من كتابة المصحف.

ففى النظر إلى عمل كتاب المصحف الأولين وتقديره ترى التيار المحافظ المطمئن إلى سلامة ما كان، بل المنتهى إلى تقديسه و إجلاله، فتسمع أن الخط توقيفى وأنهم يعرفون النحو والإعراب، وقد كتبوا المصحف على الذى يعلله النحويون... وأنهم أكثر علمًا، وأصدق قلبًا ولسانًا، وأعظم أمانة منا، فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكًا عليهم. وما زيد فى خطهم على اللفظ، وما نقص منه وما كتب على لفظه فلحكم خفية وأسرار بهية، تصدى لها المؤلفون ببيان حكمها المعنوية، أو الروحانية، كما تصدى المؤلفون لإحصائها وبيانها

فى القـرآن (انظر «الصاحبى» لابن فارس، و«سـنن البيهقـى»، و«البرهان» للزركشى فى مواضع متفرقة).

ويقابـل هذا التيار المحافـظ، المسرف أحيانًا، تيار آخر يرد المسـألة إلى الاعتبـارات الاجتماعيـة، فنسـمع فى هـذا الشـأن أن: «الخـط العربى لأول الإسـلام غير بالغ إلى غاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى المتوسط، لمـكان العرب من البداوة والتوحـش، وبعدهم عن الصنائع». وانظر ما وقع لأجل ذلك فى رسـمهم المصحف، حيث رسـمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غـير مسـتحكمة فى الإجادة، فخالف الكثير من رسـومهم ما اقتضته رسـوم صناعة الخط عند أهلها، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها، تبركًا بما رسـمه أصحاب رسـول الله ﷺ، وخير الخلق من بعده، المتلقون لوحيه من كتـاب الله وكلامه، كما يقتفى لهذا العهد خـط ولى أو عالم، تبركًا، ويتبع رسـمه خطأ أو صوابًا. وأين نسـبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه، فاتبع ذلك وأثبت رسـمًا، ونبه العلماء بالرسـم عـلى مواضعه. ولا تلتفـتن فى ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسـم ليس كما يتخيل، بل لكلها وجه. ويقولون فى مثـل زيـادة الألف فى إنه «لأذبحنـه» تنبيه على كمال القـدرة الربانية... وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض.

«ومـا حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن فى ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص فى قلة إجادة الخط، وحسـبوا أن الخط كـمال، فنزهوهم عن نقصه، ونسـبوا إليهـم الكمال بإجادته، وطلبـوا تعليل ما خالف الإجادة من رسـم، وذلك ليس بصحيح».

«واعلم أن الخط ليس بكمال فى حقهم، إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية، والكمال فى الصنائع إضافى وليس بكمال مطلق، إذ لا يعود على أسباب المعاش بحسب العمران والتعاون عليه، لأجل دلالته على ما فى النفوس. وقد كان ﷺ أميًّا، وكان ذلك كمالًا فى حقه، وبالنسبة إلى مقامه، لشرفه، وتنزهه عن الصنائع العملية، التى هى أسباب المعاش والعمران كلها، وليست الأمية كمالًا فى حقنا نحن، إذ هو منقطع إلى ربه، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا، شأن الصنائع كلها، حتى العلوم الاصطلاحية، فإن الكمال فى حقه هو تنزهه عنها جملة، بخلافنا» (ابن خلدون المقدمة، ص 365 و366 طبعة عبد الرحمن محمد).

وفى مدى التزام هذا الاسم الأول للمصحف يتساوق التياران أيضًا إلى حد ما، فكره بعض العلماء ترك اتباع المصحف. وقال الإمام أحمد[1]: «تحرم مخالفه خط مصحف عثمان فى باء أو واو، أو ألف أو غير ذلك». وسئل مالك[2] رحمه الله: «هل تكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء؟» فقال: «لا. إلا على الكتبة الأولى» وينقل ذلك أبو عمرو الدانى وهو عظيم النشاط فى هذا الميدان، ثم يقول: «ولا مخالف له من علماء الأمة» البرهان جـ 1، ص 378، 379).

وبإزاء هذا لا تعدم أن تسمع مثل قول العز بن عبد السلام[3] الفقيه

(1) الإمام أحمد بن حنبل «164 - 241هـ 780 - 855م»إمام أهل الحديث والسلفية وصاحب المذهب الفقهى الشهير.

(2) الإمام مالك بن أنس «93 - 179هـ - 712 - 795م» إمام دار الهجرة، صاحب «الموطأ». ورأس المذهب الفقهى الشهير.

(3) العز بن عبد السلام «577 - 660هـ - 1181 - 1262م» سلطان العلماء، وأحد أبرز الفقهاء والأصوليين فى العصرين الأيوبى والمملوكى.

المصرى الشـافعى ينقله الزركشى مقدمًا له بقوله: «... وكان هذا فى الصدر الأول، والعلـم حى غض، وأما الآن فقد يخشى الإلباس». ولهذا قال الشـيخ عز الدين بن عبد السلام: «لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسوم الأولى، باصطلاح الأئمة، لئلا يوقع فى تغيير من الجهال». (البرهان جـ 1، ص 379).

وتستغنى بهذا القول فى عدم جواز كتابة المصحف الآن بالرسم الأول عن آراء دون هذا فى جواز الكتابة بالرسم المتبع.

وتنظـر فيـما تـم من ذلـك التطـور فى الرسـم، إن لم تقل التغيـير، فترى التيارين أيضًا يتسايران. فمنذ القرن الأول يسأل عن النقط، فيكون الجواب بكراهتـه، وخشـية أن يكون زيادة فى الحروف. وحتى الشـيخين، الحسـن البصرى وابن سيرين - وقد سمعت خبرهما النشيط فى نقط المصحف وشكله - ينقل عنهـما: أنهما كانا يكرهان نقط المصحف (ابن أبى داود السجسـتانى كتاب المصاحف ص 141). وتسـمع السـخط على عملية النقط فى مثل قول الأوزاعي[1] وغيره عمن نقطوا المصحف: «وددت أن أيديهم قطعت»!

ومن التيار الثانى تسـمع أن الناس فى جميع الأمصار، ومن لدن التابعين إلى وقتنـا هذا، على الترخيص فى الشـكل والنقط فى أمهـات المصاحف وغيرها، يقـول هذا أبو عمـرو الدانى صاحب «الجد والتأليف فى الرسـم». وقد كان مـن ذلـك فى الواقع ما أشرنا إليـه قبل من تغير الخط وزيـادة ما زيد فيه من ضوابط ومحسـنات، آخرهـا وضع أرقام عد الآيـات فى المصحف. ومنذ أول الزمن أحس الناس بحاجة طالب حفظ القرآن وقراءته إلى التيسـير عليه فى

(1) الأوزاعى - عبد الرحمن - «88 - 157هـ - 774م» فقيه الشام وأمامه فى عصره، مثل اجتهاده مذهبا من مذاهب الفقه الإسلامى، من آثاره. «السنن» و«المسائل».

ذلك. فيستفتى «مالك» فى نقط القرآن فيقول: «أما الإمام من المصاحف فلا أرى أن ينقط ولا يزاد فى المصاحف ما لم يكن فيها. وأما مصاحف الصغار التى يتعلم فيها الصبيان، وألواحهم، فلا أرى بذلك بأسًا». والجزء المتمم للثلاثين من القرآن، مطبوع بالرسم الاصطلاحى الآن، فى المطبعة الأميرية، منذ أكثر من خمسين سنة، لمدارس الجمعية الخيرية الإسلامية، وقد وضعت فتوى «مالك» هذه عليه.

ولا يزال الواقع على اختلاف الأزمنة يدفع إلى التفكير فى هذا الرسم. ولأحد علماء المسلمين الروس فى القرن الرابع عشر الهجرى رأى عرضه فى شرحه لقصيدة الشاطبى فى الرسم يطلعنا على أهمية الأمر فى عامة الأقطار الإسلامية، وصاحب هذا الرأى هو الشيخ «موسى جار الله روستوفدونى»[1] أدلى به منذ أكثر من خمسين سنة (سنة 1326هـ) فى شرحه السابق المطبوع فى قازان لهذا العهد، وخلاصته أن رسم الصحابة على نوعين:

1- رسم الاحتمال كالحذف فى:

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: 4].

فيحتمل قراءة القصر... وأمثال ذلك من كل ما يمكن فيه اختلاف القراءة، فاتباع رسم الصحابة فيه واجب، ليبقى الرسم محتملًا لكل ما ثبت من التلاوة.

(1) موسى جار الله «1292 - 1368هـ - 1875 - 1949م» شيخ الإسلام فى روسيا قبيل الثورة البولشفية و إبانها. طاف العالم الإسلامى وقضى سنين عديدة فى سجون الاستعمار - الروسى والإنجليزى - وتوفى فى القاهرة. وله آثار علمية كثيرة. منها (الوشيعة فى نقض عقائد الشيعة).

2- رسم الاصطلاح - أى اصطلاح الصحابة - لأنه يعد رسمهم ضربًا من الاصطلاح الخاص بهم، لا أثرًا لبساطة كتابتهم - كرسم «شركاء»: «شركؤ».. من كل ما ليس له وجه يظهر لنا علمى فاتباع رسم الصحابة فيه غير واجب (ص 10 من شرحه «عقيلة أتراب القصائد»، طبع قازان، بتلخيص).

ويعقب على ذلك بقوله: «والمسألة ذات شأن عظيم وعسى الله أن يهدينى إلى وضع كتاب فى هذا الموضوع».

❐❐❐

قراءة القرآن

كان التلقى المباشر المشافه للقرآن عملًا مهمًّا فى حفظه وتداوله. وعدم شيوع الكتابة فى البيئة الإسلامية الأولى قد هيأ لأهلها من قوة الحفظ طاقة كبرى، ومستوى عاليًا. ومع الانتفاع بالكتابة - فى أوسع نطاق ممكن - لصون القرآن قد عاون التلقى الشخصى الحافظ للقرآن، فيحفظه كله غير واحد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويحفظ كل واحد منهم ما لا بد منه لتقويم عبادته، وما يتهيأ له علمه. وقد اتسق نظام كتابة القرآن منذ أول الرسالة إلى أن تم نسخ مصاحف أئمة تكون أصولًا فى أنحاء العالم الإسلامى. ولكنا سنرى مع ذلك أن الحال دائمًا كان كما تراه حتى اليوم. وهو حفظ القرآن تلقيًا مشافهة، مع وجود المكتوب والمطبوع، وسهولة التداول وإمكان الرجوع، فكانت القراءة دائمًا إنما هى التلقى الناقل بالرواية المشافهة فما لفم، وليس المقرئ إلا العالم بكيفيات الأداء، الذى روى تلك الكيفيات مشافهة عمن شوفه بها... بحيث لو حفظ كتابًا فى كيفيات ذلك الأداء، بعدما وضعت

الكتب فى ذلك ونظمت شعرًا تيسيرًا لحفظها، فليس له مع ذلك الحفظ لكيفيات أداء الكلمات القرآنية، أن يقرئ أحدًا بما فى ذلك حفظه، مهما يكن تلقيه لمحفوظة هذا، بل لا بد له من أن يقرأ مشافهة على مقرئ تلقى بهذه المشافهة نفسها، و يتسلسل ذلك التشافه متصلًا، حتى الرسول ﷺ. وسبب ذلك التمسك بالمشافهة عندهم أن فى القراءة أشياء لا يمكن إحكامها إلا بالسماع والمشافهة...

إن المنهج الإسلامى فى جملته لا يقر أخذ العلم عن الصحف، و يعيب العالم الذى لا يتلقى عن أساتذة مبصرين، و يأخذ العلم من الصحيفة، بأنه صحفى وأنه عرضة للوهم والخطأ.. إلى آخر ما يقولون فى ذلك. ولكنهم بعد هذا المبدأ العام يتشددون تشددًا خاصًا فى قراءة القرآن بنحو ما سمعت فى قولهم فى المقرئ، وعدهم القراءة علمًا بكيفية أداء كلمات القرآن، واختلافها، بعزو الناقل. ومن تم له هذا التلقى المشافه لقراءة، أجيز بها من ملقنة المشافه، إجازة تسلسل سند تلقيه للقراءة التى أتم تلقيها، إلى الصحابى القارئ لها، ولا يزال نظام إجازة القارئ متبعًا إلى أيامنا...

ومن مراحل التعليم الدينى فيما شهدنا، بعد حفظ القرآن - وهو فى حقيقته ليس إلا تلقيًا مشافهًا - يصحح الحافظ فيه لوحه على مقرئ له هذا التلقى ولا ينقله من مكتوب فقط. وبعد هذا الحفظ المشافه لكل قطعة قطعة من القرآن يكون «التجويد»، أى قراءة القرآن قطعة قطعة على مدى أشهر عدة، يؤديها المجود مشافهة على مقرئ مشافه، يطمئن إلى حسن أدائه لكلمات القرآن، وكيفية نطقها، على الوضع التوقيفى، فبعد أن يكون قد حفظ أصلًا فى مخارج الحروف ونطقها، وكيفية ذلك عند تلاقى

مختلف أصواتها، ويحفظ هذا الأصل - وهو متن خاص فى ذلك، أو متنان لمن استزاد - ولا يزال مقرئه الذى يلقنه هذه المشافهة يعاوده بالسؤال بين الحين والحين عن اصطلاحاتهم فى تلاقى الأصوات المختلفة للحروف - من مد وغن و إخفاء و إقلاب و إدغام وروم و إشمام... إلخ - بعد أن يروضه رياضة تدريبية عملية على أداء هذه الأصوات، ويضبط له أصواتها وأوقاتها بضوابط عملية تحدد الوقت تحديدًا موسيقيًّا رياضيًّا، لهم أساليبهم فيه، كما لهم أساليبهم فى رياضة الجهاز الصوتى للإنسان ليخرج الأحرف من مخارجها على النحو الموصوف المقرر فى متون التجويد.

و إنما قدمنا هذا البيان بين يدى القول فى قراءات القرآن لندرك الاعتبارات العملية التى نشأت عنها قراءات القرآن، ونعرف فى الوقت نفسه الجو الذى كانت تنقل فيه تلك القراءات، وأسلوب القوم فى ضبطها وحفظ صورها، ووسائلهم فى ذلك.

وقد فهمت من حديث النزول، ثم من الإشارة السابقة إلى القراءة، أن المسألة فى جملتها وتفصيلها مسألة السنة تطوع بنطق، وحناجر تؤدى أصواتًا، وأن ناطقى العربية الذين تلقوا هذا القرآن ذلك التلقى المشافه منذ اللحظة الأولى، تختلف ألسنتهم ويشق عليهم أن يؤخذوا بغير حروفهم، ولذلك يسر عليهم فى ذلك بأن يقرءوا بما يستطيعون. وكانت فى القرآن صور للنطق المختلف فى اللهجات العربية.

وقد عرفنا أن شيئًا من ذلك قد تيسر بعد جيل من الناس تقريبًا، حين كتب مصحف عثمان الذى عد أصلًا يرجع ليه، وتؤخذ عنه مصاحف الكاتبين، ويحتكم إليه القارئون والمقرئون، بالمشافهة المقررة على ما وصفنا.. وعلى

هذه الحال كان يجرى العملان معًا فى تداول القرآن وهما: الكتابة المتدرجة: من متفرقات، إلى صحف، إلى مصحف كتاب.. والحفظ المتصل التسلسل بالتلقى المشافه. والقارئون يلوذ كل منهم إلى طاقته اللسانية، و يقرأ ما وقف عليه بحرفه المستطاع. و باتساع الرقعة الإسلامية فى هذا القدر الذى أشرنا إليه - من وفاة الرسول ﷺ إلى خلافة عثمان - يتسع ميدان حفظ القرآن، و يدخل الناس فى الإسلام من مشارق الدنيا ومغاربها، و ينشدون حفظ شيء من القرآن، و يتلقون ذلك بالمشافهة الضابطة، ممن يلقون من عرب لهم ألسنتهم، وقراءاتهم و يساير المحفوظ التوقيفى المكتوب الرسمى الذى جعل أصلًا للقرآن. وتتمثل ما كان يتم تدريجيًا من قرب مسافة الفرق فى النطق، شيئًا فى شيء، مع وجود هذه القراءات الميسرة للقرآن، فنعرف كيف، ولماذا اختلفت قراءات الناس للقرآن، بما عرفنا من أحرف النزول التى عرفنا قبل ذلك، ونقدر فى الوقت نفسه أن ما خلفته أحرف النزول فى ألسنة القارئين، قد ضبط ونظم بنسخة رسمية من القران كتبت بتلك الكتابة التى أطلنا فى وصف خبرها قريبًا، وكانت بغير نقط ولا شكل، فكانت تحتمل صورًا مما يحفظه الناس بالتلقى وكانت تلك الأحرف المتعددة تنضبط فى الوقت نفسه بما تقبله كتابة المصحف الذى هو مرجع رسمى كتبت:

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: 4].

بلا ألف، قرئت «مالك» بالمد و«ملك» بالقصر، و إذا كتبت «فى المهد صبيا» قرئت بما يستطيعه اللسان من إظهار الدال أو طيها فى الصاد، كما تحتمل الكلمة المكتوبة الترقيق والتفخيم والإمالة، وما إلى ذلك من صور النطق المختلفة التى تطوع بها ألسنة الناطقين، ويحدد الباقى المقبول منها رسم المصحف.

ومن هذا البيان تدرك فى وضوح أن القراءات القرآنية المتغايرة الأداء، إنما نشأت من اختلاف اللهجات العربية الذى أحوج إلى التيسير على أصحابها بما سمى أحرفًا للنزول، وأن هذه الأحرف قد تركت صورًا مختلفة من القراءة للقرآن، وأن هذا الاختلاف فى اللهجات قد ضاقت مسافته تدريجيًّا حتى بقى منه ما يحتمله رسم واحد للقرآن، هو الذى كتب به المصحف الذى اعتمد حين كتب مجتمعًا.

وإذا سمعت عدد السبعة فى الأحرف التى نزل بها القرآن، وسمعت مع ذلك ما يسمى القراءات السبع، فلا يشتبه عليك أن القراءات هى الأحرف، أو أن هذه السبعة هى تلك السبعة، فإن القراءات لست هى الأحرف، وإنما هى بقايا الأحرف فى الألسنة، بقدر ما سمح به رسم المصحف حين قرأ أهل كل قطر إسلامى بما لقنهم إياه مشافهة من جاءهم من حملة القرآن ونقلته، فبقى فى ألسنتهم من صور النطق ما بقى وحدد ذلك بما تقبله طبيعة خط المصحف الرسمى الإمام.

ومن هذا البيان ندرك أن القراءات توقيفية تلقينية بالمشافهة السامعة، وأنها أثر ما قضت به الحياة من التيسير على أصحاب اللهجات العربية المختلفة، وأن أصحاب هذه اللهجات حيث نزلوا من الأقطار الإسلامية خارج جزيرتهم قد أقرءوا بلهجاتهم فأشاعوها، وأن شيئًا من التقريب بين تلك اللهجات كان يتم بفعل الزمن، وأن خط المصحف كان ضابطًا لبقاء ما يبقى من آثار اختلاف تلك اللهجات، وأن ما لا يقبله الخط القرآنى من تلك اللهجات، كان يهمل وينذثر.

وتتمة هذا الفهم أن تقدر أن السبعة عدد يذكر فى العربية ويراد به

الكثرة لا الحصر فى سبعة معدودة، لا أكثر منها، وقد مضت الأحرف السبعة بما كان لها من كثرة، وبقيت من آثارها القراءات التى ليست سبعًا على سبيل الحصر أيضًا، كما يدل تاريخ هذه القراءات وواقعها، وهو ما نشير إلى شيء منه.. بعدما تبينت لك نشأة القراءات لغويًا، والظاهرة الاجتماعية التى قضت بوجود الأحرف، وتخلفت عنها تلك القراءات.

كانت القراءات المصورة للهجات القارئين من الصحابة الذين تلقوا القرآن عن الرسول ﷺ عددًا كثيرًا بطبيعة الحال، ولم تكن هناك حاجة إلى عدها و إحصائها، و إنما كان الاهتمام - كما عرفنا - بضبط أدائها، ونقلها عن عارفيها. وظل الأمر كذلك أجيالًا عدة من حياة المسلمين، حتى أوائل القرن الرابع الهجرى إذ قام أحد شيوخ القراء فى بغداد بعمل اختيار شخصى منه هو وحده، تخير فيه قراءات مختلفة لمقرئين من مختلف الأقطار الإسلامية الكبرى ومدنها التى كانت مستقر صحابة قارئين، أخذ عنهم القراءة تابعون مقرئون معروفون. وكان أن هذا القارئ الذى قام بعملية ذلك الاختيار الشخصى - وهو أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد، المتوفى سنة 324هـ - قد اختار لسبعة قراء، فبدأت فى القرن الرابع الهجرى فقط تظهر عبارة «القراءات السبع». و إن كانت عملية الاختيار نفسها لا تحصر القراء المختارين أنفسهم فى سبعة قراء، بل تختار لكل قارئ راويين من رواته الكثيرين أيضًا، ونظل نسمع مع استعمال «القراءات السبع» «القراءات العشر» أيضًا، والقراءات الأربع عشرة، كما نقرأ أن القراءات لا تحصر بسبع ولا بسبعات، إذ عدد الرواة الموثوق بهم أكثر من أن يحصى (البرهان جـ1، ص 329). واللهجات العربية يختلف أداؤها لكلمات كثيرة فى القرآن على ضخامته، فحصر القراءات فى سبع،

شيء لا أثر فيه ولا سنة، ولا وجه للتمسك بهذا العدد خاصة (البرهان جـ، ص 330).

وقد يفسر اختيار «ابن مجاهد» للقراء السبعة بتفسيرات مختلفة، يبقى من بينها تفسير عمله فى هذا الاختيار بأنه قد تحدد بما عرفه من أوجه القراءات، وهو لم يكن متسع الرواية والرحلة كغيره (البرهان ج1، ص 327)، حتى إن عمله هذا لم يخل من لوم من الأقدمين، لما فى اختياره لسبع قراءات من إيهام أنها الأحرف السبعة، وكان خيرًا أن يزيد عن عدد السبعة أو ينقص.. ولكن الاختيار قد سار واشتهر، ورده الناس، وألف المؤلفون الكتب، ونظموا المتون فى القراءات السبعية.

والسبعة الذين اختار لهم «ابن مجاهد» تتوزعهم المدن الإسلامية الكبرى. فمنهم مدنى هو نافع بن عبد الرحمن المتوفى سنة 169هـ، ومنهم مكى هو عبد الله بن كثير المتوفى سنة 120هـ، ومنهم شامى دمشقى هو عبد الله بن عام اليحصبى المتوفى سنة 118هـ.

والباقون من العراق ومدنه، فمنهم كوفيان هما: عاصم بن أبى النجود المتوفى سنة 128هـ، وحمزة بن حبيب المتوفى سنة 158هـ، ومنهم بصرى هو أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة 154هـ. والرابع من العراقيين أبو على بن حمزة الكسائى المتوفى سنة 189هـ - ويمكن أن يعد كوفيًا.

ولكل واحد من هؤلاء السبعة رواة كثيرون لقراءات معتبرة، إلا أن «ابن مجاهد» كما اقتصر اختياره على قراء سبعة، اقتصر اختياره على راويين لكل قارئ تلقيا عنه القراءة مباشرة أو بالواسطة: فلنافع راويان، هما: قالون وورش المصرى.

ولابن كثير روايان هما: البزى وقنبل.

ولابن عامر راويان، هما: ابن عمار، وابن ذكوان.

ولعاصم راويان: هما: حفص، وشعبة.

ولحمزة راويان، هما: خلف، وخلاد.

ولأبي عمرو راويان، هما: الدورى والسوسى.

وللكسائى راويان: أحدهما هو الدورى أحد رواة أبي عمرو، والثانى الليث.

ويزاد فى الاختيار ثلاثة قراء مع السبعة، فتكون القراءة العشرية. وأحد هؤلاء الثلاثة المتممين للعشرة إنما هو خلف أحد رووايى حمزة.

وتكثرت القراءات للتيسير على الناطقين بلهجات العربية، كما فهمنا، وتنقل بهذه الرواية المشافهة، ويرجع فى ذلك إلى المصحف الأصل المدون... فتكون هذه الاعتبارات العملية الاجتماعية والواقعية المحددة، هى ضابط القراءة المقبولة.

وتحدد قبولها ضوابط ثلاثة هى:

1- موافقة لفظها لخط «المصحف الموحد». فكل قراءة لا بد أن يساندها خط المصحف الإمام لكى تقبل.

2- أن تجىء على الفصيح من لغة العرب. فلا بد فى القراءة لكى تقبل أن تستقيم من جهة العربية. وهنا يفهم التعاون المتبادل فى حياة العربية وتاريخها اللغوى بين القراءات، والرواية اللغوية. فالقراءات القرآنية التى

حفظت بالرواية الشفوية مادة للعربية بما هى أصداء للهجاتها.. واللهجات التى ضبطتها الرواية اللغوية، وفحصها الدرس اللغوى الباحث تضبط قوة القراءة، وتدل عليها - وبعد هذين الضابطين، الدينى واللغوى يكون النقل الصحيح المضبوط بنظام منهجهم النقلى الذى حرروه وأحكموا أصوله، فيشترط، بعد ما سبق، فى القراءة المقبولة...

3- تصحيح سندها الراوى لها فلا بد فى القراءة المقبولة - بعد شهادة الخط الرسمى واللغة - أن يسلم نقلها.

و إذا اختل ضابط من هذه المقومات الثلاثة كانت القراءة ضعيفة أو شاذة فى اصطلاحهم فالقراءة بلهجة لغوية ضعيفة قراءة شاذة. و إذا ما نقلت فى مجال الدرس اللغوى للهجات العربية فما يكون لها اعتبار فى المقام القرآنى. و إذا وردت كلمات مفسرة لبعض ألفاظ القرآن، وليست متنه الذى سجله المصحف الإمام، فقراءتها على أنها قرآن شاذة، والقراءة التى لا يصح نقلها بقواعدهم النقلية قراءة شاذة، وليس شيء من هذه الأشياء التى تخرجها هذه المميزات الثلاث بعد من القرآن... والقراءة به ممنوعة منع تحريم لا منع كراهة. (البرهان، ج1 - ص 332). و إن كان الدرس اللغوى المستقصى قد أدرك ما بين القراءات واللهجات من الصلة الوثيقة، فوجد القراءات الشاذة مادة لغوية تكمل معرفته بالعربية، وألف رجال الدرس اللغوى كتبًا تجمع القراءات الشاذة، وتبين وجهتها اللغوية، ومن أشهر ذلك كتاب «المحتسب» لابن جني[1].

(1) ابن جنى أبو الفتح، عثمان «330 - 392هـ - 942 - 1002م) من أئمة اللغويين والنحاة والأدباء. صحب أبا على الفارسى وكان صديقًا للمتنبى. وله آثار علمية كثيرة. وبعد كتابه «الخصائص» أفضل ما كتب فى فلسفة العربية.

و إذا ما كانت القراءات القرآنية المتنوعة قد أوجدتها منذ فجر الإسلام حاجة لسانية، واعتبارات اجتماعية، على ما أدركنا... وقد جعلت تخف تلك الحاجة، وتتغير تلك الاعتبارات - فإن هذه القراءات قد صارت صنفًا من تتبع النص القرآنى فى مختلف كيفيات أدائه، ومحافظة على هذا النص إلى حد ما. ومن هنا كان الإقبال على علم «القراءات» تأليفًا فى مختلف صور الأصول العلمية فى الثقافة الإسلامية، ولا سيما الدينية، من وضع الأصول الضابطة التى تسمى المتون، وتوليها بالشرح، والتوسع فى خدمة ذلك الشرح بالحواشى إلخ، ومن جعل المتون منظومة ليسهل حفظها. وجارى تلك العنايات بالتأليف عناية بالممارسة العملية لهذه القراءات، ومعرفة ما يمكن معرفته من مروياتها المختلفة حتى إن القارئ عندهم لا يزال يحسب مبتدئًا بعد أن يعرف ثلاث قراءات، و يعد متوسطًا وهو ينقل خمس قراءات، وكلما زاد هذا العدد كان حقيقًا باسم القارئ.... و إن كان قد يمتد الأمر فى ذلك إلى جميع القراءات المختلفة فى القطعة الواحدة من القرآن، وترداد ذلك، ولا سيما مع القراءة بالصوت الحسن، وليس فى هذا الذى يسمونه الجمع شيء من الأثر الطيب فى قراءة القرآن، فلا هو تيسير على لسان لا يطوع ببعض النطق، ولا هو متفق مع التدبر المطلوب فى قراءة القرآن، وهو ما التفت إليه القدماء أنفسهم فكرهوا ترداد الآية بقراءات مختلفة على هذا الذى يسميه القراء الآن «الجمع» .. وقسا مفتون منهم فى إنكار هذه الطريقة.

ترتيب القرآن

ما عرفناه من نزول القرآن مفرقًا يحوجنا إلى الإشارة إلى ترتيبه. وترتيب الآيات بوضعها فى السور، وتأليف وحدة منها، هو عمل قد تم

فى حياة الرسـول ﷺ، وبتوقيف منه هو، وقرئت هذه السـور كاملة فى حياته.

أما ترتيب السور فى المصحف فلم يكن للرسول فيه توقيف، بل ترك دون تقييد. فكتب الكاتبون من الصحابة لأنفسهم مصاحف يختلف فيها ترتيب الواحـد منهم للسـور فى مصحفه عـن ترتيب الآخر لهـا... ونقل طرف من ترتيبهم للسور فى مصاحفهم. ولا بأس فى اختلافهم فى مثل هذا، بوضع سورة قبل أخرى أو بعدها، ما دام قد ترك لهم ذلك[1] هذا من حيث الترتيب الشكلى

(1) فى هذا الذى رآه الأستاذ أمين الخولى حول ترتيب سور القرآن - نظر؛ فالمنقول فى هذه القضية - كما فى «الإتقان فى علوم القرآن» - للسيوطى - أن العلماء قد أجمعوا على أن ترتيب الآيات فى كل سورة من سور القرآن إنما هو توقيف من الرسول ﷺ أما ترتيب السور فى المصحف. فلقد اختلفوا فيه. فرأى الجمهور أنه اجتهاد من الصحابة، ورأى آخرون أنه توقيف من الرسول.. والذين دققوا وحققوا فى هذه الآراء المروية عن القدماء، اكتشفوا أن هذا الخلاف لفظى بل وأن الذين روى عنهم أن هذا الترتيب كان اجتهادًا قد رويت عنهم روايات أخرى تقول إنه كان توقيفًا من الرسول - عليه الصلاة والسلام - ونموذج ذلك ما ذكره الزركشى فى «البرهان فى علوم القرآن»عندما قال: «والخلاف بين الفريقين لفظى لأن القائل بأنه اجتهاد من الصحابة يقول إنه رمز إليهم ذلك، لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته. ولهذا قال مالك: إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبى ﷺ من قول مالك، بأن ترتيب السورباجتهاد منهم..» - «الإتقان» ج1، طبعة القاهرة، 1354هـ - 1935م.. هذا عن النقل - الذى يؤكد على أن الخلاف هنا لفظى، ترتيب الصحبة للسور إنما كان على هذا النحو الذى سمعوه من الرسول ﷺ ويدعم هذا النقل ما نراه من أن حفظ كتاب الله - سبحانه وتعالى للقرآن - هو إرادة إلهية، وفعل إلهى - ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9] - يقتضى جمع القرآن جمعًا توقيفيًا ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: 17] والجمع الإلهى للقرآن يقتضى بالبداهة ترتيبه آيات وسورا، فلا يتصور جمع ومجموع دون ترتيب - فالانطلاق من النص القرآنى وهو قطعى الثبوت، يؤكد على أن الترتيب لسور القرآن=

للقرآن. أما من حيث الترتيب الموضوعى فإنا نلحظ مما سبق أن القرآن الكريم لم ترتب آياته فى سوره، ولا سوره فى جملته، على ترتيب نزولها الزمنى: بحيث وضعت المكيات قبل المدنيات مثلًا، وكل آية أو سورة من المكى أو المدنى قبل التى تلتها، وهكذا.. فليس فيه ترتيب على زمن نزوله وظهوره. ثم ليس فيه ترتيب على حسب موضوعاته ومتناولاته: بحيث يكون فيه ما يخص العقائد مجتمعًا، وما يخص العبادات متجاورًا، وما يخص الأخلاق متصلًا، وهكذا.. فليس فيه هذا الترتيب الموضوعى أيضًا، كما أنه إذا عرض لشيء من أمر الأمم السابقة وأنبيائهم وما إلى ذلك، لم يعرض له فى ترتيب الأزمان والأحداث، فتجد فيه مثل سفر التكوين فى التوراة، ترتب فيه الأحداث من بدء الخليقة على أزمانها، وتحدد تلك الأزمنة، وتعين معها الأمكنة.. كلا ليس فى القرآن شيء كهذا، ولا يلتمس فيه إذ هو لا يحدد أزمنة، ولا يعين سنين، وفى أغلب الأمر لا يحدد الأماكن ولا يسمى الأشخاص، وما ماثل ذلك. فهو ترتيب متفرد ينبغى أن يقدر ما فيه من القصد إلى أن يكون - أولًا، وقبل كل شيء ومع كل شيء - كتاب هداية نفسية خلقية اجتماعية.. تتناسب مع عموم الدعوة الإسلامية، وتوجيهها إلى الإنسانية جمعاء فى كل زمان ومكان وتتناسب مع دوام الدعوة الإسلامية واستمرارها إلى آخر الدهر وعلى مدى الزمن، ما دامت على هذه الأرض حياة. كما تتناسب كذلك مع ختم هذه الدعوة لرسالات السماء إلى الأرض، واستطاعة الدنيا أن تكتفى بها، وتلتقى عندها، فهو يمس دائمًا الأصول الكبرى. والأسس العامة، والقواعد الكلية، فى إطار من الشعور الدينى المؤمن، والفضيلة الخلقية المصلحة لنفوس البشر،

= - كآياته - إنا هو فعل إلهى وتوقيف.. ولا يعقل ترك القرآن - قطعى الثبوت - إلى أحاديث آحاد، هى - فى أحسن الحالات - ظنية الثبوت..».

المهيئة لهم أن يكونوا - فى نشاطهم العملى وجهادهم الحيوى - أناسًا أخيارًا، أطهارًا، أبرارًا غير متكالبين ولا متناحرين ولا متباغضين.

وإذا ما مس شيئًا من التفصيلات تطلبها واقع الحياة فلتكون كذلك مثلًا عامة، يرجع إليها الناس فيما أمرهم به من التبصر والاعتبار بمثل قوله:

﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: 2].

وبذلك يمضون - على تغير أحوالهم وتطور شئونهم، واختلاف بيئاتهم، وتنوع مشكلاتهم - وهم دائمًا أولئك المراقبون لربهم، المحكمون لضمائرهم، المقدرون لمسئولياتهم.. يدبرون من أمورهم المتجددة ما تصلح به حياتهم.. فى ظل تلك الخشية من قلوب وجلة، ونفوس مطمئنة لا تنس نصيبها من الدنيا وتذكر مع ذلك اليوم الآخر والحساب المرتقب.

ومن هذا الترتيب الذى توزعت فى جميع أجزائه وآياته مواضع العبرة المهمة، تجد الهداية المرجوة فى كل قطعة منه وكل بيان وكل قصة وكل موعظة.. وحسبنا هذا الإجمال لأهداف ترتيب القرآن.

تقسيم القرآن

نعرف الآن من المصحف أن القرآن يتآلف من ثلاثين جزءًا، وكل جزء يتألف من ثمانية أرباع، تتوزع بينها سور القرآن البالغ عددها مائة وأربع عشرة سورة. وقد بينا أن ترتيب هذه السور، بآياتها المقدرة لها، قد تم وعرف فى عهد الرسول ﷺ، وعرفت سور بأسمائها وروى أكثر من اسم للسورة الواحدة. وأما هذه التجزئة إلى ثلاثين فمن عمل العلماء، مع ما عرف لهم من التتبع المستقصى لهذا القرآن: يعدون آياته بل يعدون كلماته وحروفه

كما يلحظون خصائص فى ذلك كله. ومع هذه العناية المناسبة لمكانة القرآن فى حياة الإسلام والمسلمين، كانت تجزئاتهم للقرآن. وأشهرها هذه التجزئة إلى ثلاثين جزءًا. وقد يقسمون الجزء إلى قسمين يسمون الواحد حزبًا.. ويتتبعون ذلك كله بالبيان المفصل، والآية التى يبدأ بها كل جزء وحزب وما إلى ذلك.. وهم يقصدون إلى توزيع الحفظ وتيسيره على القارئين لا أكثر، مع رغبتهم فى المعرفة التفصيلية لكل ما حواه هذا الكتاب المبين[1].

❐❐❐

(1) «دائرة معارف الشعب» مجلد 1، ص 7 - 34. طبعة القاهرة، 1959م.

3- الإمام الشيخ/ محمد الطاهر بن عاشور

فى إعجاز القرآن

لم أر غرضًا تناضلت له سهام الأفهام، ولا غاية تسابقت إليها جياد الهمم فرجعت دونها حسرى، واقتنعت، بما بلغته من صبابة نزرا، مثل الخوض فى وجوه إعجاز القرآن، فإنه لم يزل شغل أهل البلاغة الشاغل، وموارداها للمعلول والناهل، ومُغلى سبائها للنديم والواغل. ولقد سبق أن ألف علم البلاغة مشتملًا على نماذج من وجوه إعجازه، والتفرقة بين حقيقته ومجازه. إلا أنه باحث عن كل خصائص الكلام العربى البليغ ليكون معيارًا للنقد أو آلة للصنع، ثم ليظهر من جراء ذلك كيف تفوق القرآن على كل كلام بليغ بما توفر فيه من الخصائص التى لا تجتمع فى كلام آخر للبلغاء حتى عجز السابقون واللاحقون منهم عن الإتيان بمثله. قال أبو يعقوب السكاكي[1] فى كتاب المفتاح: «واعلم أنى مهدت لك فى هذا العلم قواعد متى بنيت عليها أعجب كل شاهد بناؤها، واعترف لك بكمال الحذق فى البلاغة أبناؤها - إلى أن قال -: ثم إذا كنت ممن ملك الذوق وتصفحت كلام رب العزة أطلعتك على ما يوردك موارد العزة، وكشفت عن وجه إعجازه القناع». اهـ.

(1) السكاكى، أبو يعقوب، يوسف بن أبى بكر (555 - 626هـ - 1160 - 1229م) من علماء العربية والأدب، من آثاره (مفتاح العلوم)، و(رسالة فى علم المناظرة).

فأما أنا فأردت فى هذه المقدمة أن ألم بك أيها المتأمل إلمامة ليست كخطرة طيف، ولا هى كإقامة المنتجع فى المربع حتى يظله الصيف، وإنما هى لمحة ترى منها كيف كان القرآن معجزًا، وتتبصر منها نواحى إعجازه، وما أنا بمستقصى دلائل الإعجاز فى آحاد الآيات والسور، فذلك له مصنفاته، وكل صغير وكبير مستطر. ثم ترى منها بلاغة القرآن ولطائف أدبه التى هى فتح لفنون رائعة من أدب لغة العرب حتى ترى كيف كان هذا القرآن فتح بصائر، وفتح عقول، وفتح ممالك، وفتح أدب غض ارتقى به الأدب العربى مرتقى لم يبلغه أدب أمة من قبل. وكنت أرى الباحثين ممن تقدمنى يخلطون هذين الغرضين خلطًا، وربما أهملوا معظم الفن الثانى، وربما ألموا به إلمامًا وخلطوه بقسم الإعجاز، وهو الذى يحق أن يكن البحث فيه من مقدمات علم التفسير، ولعلك تجد فى هذه المقدمة أصولًا ونكتًا أغفلها من تقدموا ممن تكلموا فى إعجاز القرآن مثل الباقلاني[1]، والرماني[2] وعبد الظاهر[3]، والخطابي[4]،

(1) الباقلانى، أبو بكر، محمد بن الطيب (338 - 403هـ - 950 - 1013م) قاض من كبار علماء الكلام، انتهت إليه رئاسة الأشاعرة فى عصره، ناظر علماء النصرانية فى القسطنطينية، أمام ملكها، من آثاره (إعجاز القرآن) و(مناقب الأئمة) و(الملل والنحل) و(كشف أسرار الباطنية).

(2) الرمانى: على بن عيسى بن على بن عبدالله أبو الحسن الرمانى، معتزلى، مفسر، من كبار النحاة.

(3) عبد الظاهر، الجرجانى، أبو بكر (471هـ - 1078م) من أئمة اللغة، وواضع أصول البلاغة، ومن الشعراء، من آثاره (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) و(إعجاز القرآن) و(المغنى) و(العمدة).

(4) الخطابى، أبو سليمان، حمد بن محمد)319 - 388هـ - 931 - 998م) فقيه ومحدث. من آثاره (بيان إعجاز القرآن) و(معالم السنن) و(غريب الحديث) و(شرح البخارى) و(إصلاح غلط المحدثين).

وعياض[1]، والسكاكى، فكونوا منها بالمرصاد، وأفلوا عنها كما يفلى عن النار الرماد. و إن علاقة هذه المقدمة بالتفسير هى أن مفسر القرآن لا يعد تفسيره لمعانى القرآن بالغًا حد الكمال فى غرضه ما لم يكن مشتملًا على بيان دقائق من وجوه البلاغة فى آيه المفسرة بمقدار ما تسمو إليه الهمة من تطويل واختصار، فالمفسر بحاجة إلى بيان ما فى آى القرآن من طرق الاستعمال العربى وخصائص بلاغته وما فاقت به آى القرآن فى ذلك حسبما أشرنا إليه فى المقدمة الثانية لئلا يكون المفسر حين يعرض عن ذلك بمنزلة المترجم لا بمنزلة المفسر. فمن أعجب ما نراه خلو معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول إلى هذا الغرض الأسمى إلا عيون التفاسير، فمن مقل مثل معانى القرآن لأبى إسحاق الزجاج[2] والمحرر الوجيز للشيخ عبد الحق بن عطية الأندلسي[3] ومن مكثر مثل الكشاف. ولا يعذر فى الخلو عن ذلك إلا التفاسير التى نحت ناحية خاصة من معانى القرآن مثل أحكام القرآن، على أن بعض أهل الهمم العلية من أصحاب هذه التفاسير لم يهمل هذا العلق النفيس كما يصف بعض العلماء كتاب أحكام القرآن لإسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكى البغدادي[4]

(1) القاضى عياض، أبو الفضل، عياض بن موسى (476 - 544هـ - 1083 - 1149م) عالم المغرب، وإمام الحديث فى عصره، ومن كبار فقهاء المالكية، من آثاره (الشفا فى تعريف حقوق المصطفى) و(شرح صحيح مسلم) و(مشارق الأنوار).

(2) الزجاج، أبو إسحاق، إبراهيم بن السرى بن سهل (241 - 311هـ - 855 - 923م) بغدادى، عالم بالنحو واللغة، من آثاره (معانى القرآن) و(الأمالى) و(الاشتقاق) و(خلق الإنسان).

(3) ابن عطية الأندلسى، أبو محمد، عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى (481 - 542هـ - 1088 - 1148م) فقيه أندلسى، ومن مفسرى القرآن الكريم، من آثاره، المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، فى عشرة مجلدات.

(4) إسماعيل بن إسحاق بن حماد، الجهضمى (200 - 282هـ - 815 - 896م) فقيه مالكى،=

وكـما نراه فى مواضع من أحكام القرآن لأبى بكر بـن العربي[1] ثم إن العناية بمـا نحن بصدده من بيان وجوه إعجاز القرآن إنما نبعت من مختزن أصل كبير مـن أصول الإسـلام وهو كونه المعجـزة الكبرى للنبـى ﷺ وكونه المعجزة الباقية وهو المعجزة التى تحدى بها الرسول معانديه تحديًّا صريحًا. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [العنكبوت: 50 - 51].

ولقد تصدى للاسـتدلال على هذا أبو بكر الباقلانى فى كتاب له سـماه أو سمى «إعجاز القرآن» وأطال، وخلاصة القول فيه أن رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام بنيت على معجزة القرآن، و إن كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت فى أوقات وأحوال ومع ناس خاصة ونقل بعضها متواترًا و بعضها نقل نقلًا خاصًا، فأما القرآن فهو معجزة عامة، ولزوم الحجة بـه باق مـن أول ورودها إلى يـوم القيامة، و إن كان يعلم وجـه إعجازه من عجـز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله فيغنى ذلك عن نظر مجدد، فكذلك عجز أهل كل العصر من العصور التالية عن النظر فى حال عجز أهل العصر

= ولى قضاء بغداد والمدائن، والنهروانات. ومن آثره (أحكام القرآن) و(الاحتجاج بالقرآن) و(الموطأ) (وشواهد الموطأ) فى عشرة مجلدات و(المبسوط) و(الرد على أبى حنيفة) و(الرد على الشافعى) و(الأصول) و(السنن).

(1) أبو بكر بن العربى، محمد بن عبد الله (468 - 543هـ - 1076 - 1148م) من كبار علماء المالكية بالأندلس، موسوعى، له مشاركات متميزة فى الفقه والأصول والحديث والأدب والنحو وعلوم القرآن. من آثاره (أحكام القرآن) و(قانون التأويل)، و(العواصم من القواصم)، و(الإنصاف فى مسائل الخلاف) (فى عشرين مجلدًا).

الأول، ودليل ذلك متواتر من نص القرآن فى عدة آيات تتحدى العرب بأن يأتوا بسورة مثله، وبعشر سور مثله مما هو معلوم، ناهيك أن القرآن نادى بأنه معجز لهم، نحو قوله تعالى:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ [البقرة: 23 - 24].

فإنه سهل وسجل: سهل عليهم أن يأتوا بمثل سورة من سوره، وسجل عليهم أنهم لا يفعلون ذلك أبدًا، فكان كما سجل فالتحدى متواتر وعجز المتحدين أيضًا متواتر بشهادة التاريخ إذ طالت مدتهم فى الكفر ولم يقيموا الدليل على أنهم غير عاجزين وما استطاعوا الإتيان بسورة مثله ثم عدلوا إلى المقاومة بالقوة قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾.

وقال: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: 38].

وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾) [هود: 13 - 14].

فعجز جميع المتحدين عن الإتيان بمثل القرآن أمر متواتر بتواتر هذه الآيات بينهم وسكوتهم عن المعارضة مع توافر دعاويهم عليها. وقد اختلف العلماء فى تعليل عجزهم عن ذلك فذهبت طائفة قليلة إلى تعليله بأن الله صرفهم

عن معارضة القرآن فسلبهم المقدرة أو سلبهم الداعى، لتقوم الحجة عليهم بمرأى ومسمع من جميع العرب. ويعرف هذا القول بالصرفة كما فى المواقف للعضد[1] والمقاصد للتفتزاني[2] (ولعلها بفتح الصاد وسكون الراء وهى مرة من الصرفة وصيغ بصيغة المرة للإشارة إلى أنها صرف خاص فصارت كالعلم بالغلبة) ولم ينسبوا هذا القول إلا إلى الأشعري[3] فيما حكاه أبو الفضل عياض فى الشفاء وإلى النظام[4] والشريف المرتضى[5] وأبى إسحاق الإسفرائيني[6]

(1) العضد، عضد الدين الإيجى، أبو الفضل، عبد الرحمن بن أحمد (756هـ، 1355م)، عالم بالأصول والعربية والمعانى والبيان، والبديع. من آثاره: (المدخل فى علم المعانى والبيان والبديع)، و(المواقف)، و(العقائد العضدية)، و(الرسالة العضدية)، و(أشرف التواريخ)، و(شرح مختصر ابن الحاجب).

(2) التفتازانى، سعد الدين، مسعود بن عمر (712 - 793، 1312 - 1390م)، من علماء الفقه والمنطق والبيان والنحو والتفسر والكلام، من آثاره (مقاصد الطالبين)، و(شرح العقائد النسفية)، و(تهذيب المنطق)، و(التلويح إلى كشف حقائق التنقيح)، و(شرح الشمسية)، و(حاشية الكشاف)، و(شرح الأربعين النووية).

(3) الأشعرى، أبو الحسن على بن إسماعيل)260 - 324هـ، 874 - 936م). من أئمة المتكلمين المجتهدين، ومؤسس مذهب الأشاعرة. كان معتزليًا ثم خرج على المعتزلة. بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب، منها: (مقالات الإسلاميين)، و(الإبانة عن أصول الديانة)، و(الرد على المجسمة)، و(مقالات الملحدين)، و(الرد على ابن الراوندى)، و(الأسماء والأحكام)، و(رسالة فى الإيمان).

(4) النظام، أبو إسحاق، إبراهيم بن سيار (231هـ، 845م). من أئمة المعتزلة، متبحر فى علوم الفلسفة، وإليه تنسب النظامية، إحدى فرق المعتزلة.

(5) الشريف المرتضى، أبو القاسم، على بن الحسين بن موسى (355 - 436هـ، 966 - 1044م) شيعى، من أئمة الكلام والأدب والشعر، ونقيب الطالبين فى عصره. من آثاره: (أمالى المرتضى)، و(إنقاذ البشر من الجبر والقدر). و(تنزيه الأنبياء)، و(الشافى فى الإمامة).

(6) الإسفرائينى، أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران (418هـ، 1027م) عالم بالفقه والأصول، وثقة فى رواية الحديث، كان يلقب بركن الدين، من آثاره:=

فيـما حكاه عنهم عضد الدين فى المواقـف وهو قول ابن حزم[1] صرح به فى كتـاب الفصل (ص 7 جزء 3) (ص 184 جزء 2)، وقد عزاه صاحب المقاصد فى شرحـه إلى كثير من المعتزلة، وأما الذى عليـه جمهرة أهل العلم والتحقيق واقتصر عليه أئمة الأشعرية و إمام الحرمين[2] وعليه الجاحظ[3] وأهل العربية كـما فى المواقف، فالتعليـل لعجز المتحدين به بأنه بلـوغ القرآن فى درجات البلاغـة والفصاحـة مبلغًا تعجز قـدرة بلغاء العرب عن الإتيـان بمثله، وهو الذى نعتمده ونسـير عليه فى هذه المقدمة العاشرة، وقد بدا لى دليل قوى على هذا وهو بقاء الآيات التى نسـخ حكمها وبقيت متلوة من القرآن ومكتوبة فى المصاحـف فإنهـا لما نسـخ حكمها لم يبق وجـه لبقاء تلاوتهـا وكتبها فى المصاحف إلا ما فى مقدار مجموعها من البلاغة بحيث يلتئم منها مقدار ثلاث آيات متحدى بالإتيان بمثلها مثال ذلك آية الوصية فى سورة العقود. و إنما وقع التحدى بسورة، أى و إن كانت قصيرة، دون أن يتحداهم بعدد من الآيات لأن

= (الجامع فى أصول الدين، فى خمسة مجلدات، و(رسالة) فى أصول الفقه، وله مناظرات مع المعتزلة.

(1) ابن حزم الأندلسى، أبو محمد، على بن أحمد بن سعيد بن حزم (384 - 456هـ، 994 - 1064م)، عالم موسوعى وفيلسوف ومتكلم، وأبرز فقهاء المذهب الظاهرى، من آثاره: (المحلى)، و(الملل والنحل)، و(الالتباس فيما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس).

(2) إمام الحرمين، أبو المعالى، عبد الملك بن عبد الله الجوينى (419 - 478هـ، 1028 - 1085م).

(3) الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (163 - 255هـ، 780 - 869م) عالم موسوعى، من أئمة الأدباء والفلاسفة، ورأس فرقة الجاحظية من المعتزلة، من آثاره: (الحيوان)، و(البخلاء)، و(البيان والتبيين)، و(مجموع الرسائل)، و(الحنين إلى الأوطان)، و(مسائل القرآن)، و(فضيلة المعتزلة)، و(الاستبداد والمشاورة فى الحرب).

من أفانين البلاغة ما مرجعه إلى مجموع نظم الكلام وصوغه بسبب الغرض الذى سيق فيه من فواتح الكلام وخواتيمه، وانتقال الأغراض، والرجوع إلى الغرض، وفنون الفصل، والإيجاز والإطناب، والاستطراد والاعتراض، وقد جعل شرف الدين الطيبي[1] هذا هو الوجه لإيقاع التحدى بسورة دون أن يجعل بعدد من الآيات. و إذ قد كان تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمل كان علينا أن نضبط معاقدها التى هى ملاكها، فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجعًا إلى ثلاث جهات:

الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربى البليغ من حصول كيفيات فى نظمه مفيدة معانى دقيقة ونكتًا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم.

الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف فى نظم الكلام مما لم يكن معهودًا فى أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة.

الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعانى الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر فى عصر نزول القرآن وفى عصور بعده متفاوتة، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون فى إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبى بكر الباقلانى والقاضى عياض. وقد عد كثير من العلماء من وجوه إعجاز القرآن ما يعد جهة رابعة هى ما انطوى عليه من الأخبار عن المغيبات مما دل على أنه منزل من علام الغيوب، وقد يدخل فى هذه الجهة

(1) اسمه على الأصح الحسين، وقيل الحسن بن محمد الطيبى بكسر الطاء وسكون الياء، الشافعى المتوفى سنة 743هـ.

مـا عده عياض فى الشـفاء وجها رابعًا مـن وجوه إعجاز القـرآن وهو ما أنبأ بـه من أخبار القرون السـالفة مما كان لا يعلم منه القصـة الواحدة إلا الفذ مـن أحبار أهـل الكتاب، فهذا معجـز للعرب الأميين خاصـة وليس معجزًا لأهـل الكتاب؛ وخاصٌ ثبوت إعجازه بأهل الإنصاف من الناظرين فى نشـأة الرسـول ﷺ وأحواله، وليس معجزًا للمكابريـن فقد قالوا إنما يعلمه بشر. فإعجـاز القرآن من الجهتين الأولى والثانيـة متوجه إلى العرب، إذ هو معجز لفصحائهم وخطبائهم وشعرائهم مباشرة، ومعجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أن عجز مقارعيه عن معارضته مع توفر الدواعى عليه هو برهان ساطع على أنـه تجاوز طاقة جميعهم. ثم هو بذلك دليل على صدق المنزل عليه لدى بقية البشر الذين بلغ إليهم صدى عجز العرب بلوغًا لا يستطاع إنكاره لمعاصريه بتواتـر الأخبـار، ولمن جـاء بعدهـم بشـواهد التاريـخ. فإعجـازه للعرب الحاضرين دليل تفصيلى، وإعجازه لغيرهم دليل إجمالى. ثم قد يشارك خاصة العرب فى إدراك إعجازه كل من تعلم لغتهم ومارس بليغ كلامهم وآدابهم من أئمة البلاغة العربية فى مختلف العصور، وهذا معنى قول السـكاكى فى المفتاح مخاطبًـا للناظر فى كتابه متوسـلًا بذلك (أى بمعرفة الخصائـص البلاغية التى هـو بصدد الـكلام عليها) إلى أن تتأنـق فى وجه الإعجـاز فى التنزيل منتقلًا ممـا أجمله عجز المتحدين به عنـدك إلى التفصيل. والقـرآن معجز من الجهة الثالثة للبشر قاطبة إعجازًا مستمرًا على ممر العصور، وهذا من جملة ما شمله قول أئمة الدين: إن القرآن هو المعجزة المسـتمرة على تعاقب السنين، لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحكمية والعملية والأخلاقية، وهو دليل تفصيلى لأهل تلك المعانى وإجمالى لمن تبلغه شهادتهم بذلك. وهو من الجهة الرابعة - عند الذين اعتبروها زائدة

على الجهـات الثلاث - معجز لأهل عصر نزوله إعجازًا تفصيليًّا، ومعجز لمن يجيء عددهم ممن يبلغه ذلك بسـبب تواتر نقل القرآن، وتعين صرف الآيات المشـتملة على هذا الإخبار إلى ما أريد منها. هذا ملاك الإعجاز بحسـب ما انتهى إليه استقراؤنا، إجمالًا، ولنأخذ في شيء من تفصيل ذلك وتمثيله.

فأما الجهة الأولى فمرجعها إلى ما يسمى بالطرف الأعلى من البلاغة، كان منتهـى التنافس عند العرب بمقدار التفوق في البلاغة والفصاحة، وقد وصف أئمـة البلاغة والأدب هذين الأمرين بما دون له علما المعاني والبيان، وتصدوا في خلال ذلك للموازنة بين ما ورد في القرآن من ضروب البلاغة وبين أبلغ ما حفظ عن العرب من ذلك مما عد في أقصى درجاتها. وقد تصدى أمثال أبي بكر الباقلاني وأبي هلال العسكري[1] وعبد القاهر والسكاكي وابن الأثير[2]، إلى الموازنـة بـين مـا ورد في القرآن وبين مـا ورد في بليغ كلام العـرب من بعض فنـون البلاغة بما فيه مقنع للمتأمل ومثل للمتمثـل، وليس من حظ الواصف إعجاز القرآن وصفًا إجماليًّا كصنعنا ههنا أن يصف هذه الجهة وصفًا مفصلًا لكـثرة أفانينها، فحسـبنا أن نحيل في تحصيل كلياتهـا وقواعدها على الكتب المجعولة لذلك مثل دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، والقسم الثالث فما بعده من المفتاح، ونحو ذلـك، وأن نحيل في تفاصيلها الواصفة لإعجاز آي القرآن

(1) أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله (395، 1005نم). عالم بالأدب وشاعر. له آثار كثيرة، منها: (جمهرة الأمثال)، و(معجم) في اللغة، و(كتاب الصناعتين: النظم والنثر)، و(شرح الحماسة)، و(المحاسن) في تفسير القرآن - خمسة مجلدات، و(الفروق) - في اللغة - .

(2) ابن الأثير، أبو السعادات، مجد الدين المبارك بن محمد (544 - 606هـ، 1150 - 1210م)، محدث ولغوي وأصولي. من آثاره: (النهاية)، و(جامع الأصول)، و(الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف) - في التفسير - .

على التفاسير المؤلفة فى ذلك وعمدتها كتاب الكشاف للعلامة الزمخشري[1]، وما سنستنبطه ونبتكره فى تفسيرنا هذا إن شاء الله، غير أنى ذاكر هنا أصولًا لنواحى إعجازه من هذه الجهة وبخاصة ما لم يذكره الأئمة أو أجملوا فى ذكره. وحسبنا هنا الدليل الإجمالى وهو أن الله تعالى تحدى بلغاءهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم يتعرض واحد إلى معارضته، اعترافًا بالحق وربًّا بأنفسهم عن التعريض بالنفس إلى الافتضاح، مع أنهم أهل القدرة فى أفانين الكلام نظمًا ونثرًا وترغيبًا وزجرًا قد خصوا من بين الأمم بقوة الذهن وشدة الحافظة وفصاحة اللسان وتبيان المعانى، فلا يستصعب عليهم سابق من المعانى، ولا يجمح بهم عسير من المقامات. قال عياض فى الشفاء: «فلم يزل يقرعهم النبى ﷺ أشد التقريع ويوبخهم ويسفه أحلامهم ويحط أعلامهم وهم فى كل هذا ناكصون عن معارضته محجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتكذيب والإغراء بالافتراء، وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: 24]، و﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: 2] و﴿إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: 4] و﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: 25]. وقد قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: 24] فما فعلوا ولا قدروا ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلة[2] كشف

(1) الزمخشرى، جار الله، أبو القاسم، محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمى (467 - 538هـ، 1075 - 1144م). من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب. معتزلى المذهب، من آثاره: (الكشاف) فى تفسير القرآن الكريم، و(أساس البلاغة)، و(مقدمة الأدب) فى اللغة، و(الفائق)، فى غريب الحديث، و(نكت الأعراب فى غريب الإعراب)، و(ربيع الأبرار) فى الأدب.

(2) مسيلمة الكذاب، مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفى (12هـ، 633م)، متنبئ بنى حنيفة باليمامة فى نجد. قتل فى حروب الردة بمعركة اليمامة، التى قادها خالد بن الوليد - على عهد أبى بكر الصديق.

عواره لجميعهم ولما سمع الوليد بن المغيرة[1] قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: 90] قال: «والله إن له لحلاوة و إن عليه لطلاوة و إن أسفله لمغدق و إن أعلاه لمثمر وما هو بكلام بشر» وذكر أبو عبيدة[2] أن أعرابيًا سمع رجلًا يقرأ ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: 94] فسجد وقال: سجدت لفصاحته وكان موضع التأثير فى هذه الجملة هو كلمة اصدع فى إبانتها عن الدعوة والجهر بها والشجاعة فيها، وكلمة ﴿بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ فى إيجازها وجمعها. وسمع آخر رجلًا يقرأ ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا﴾ [يوسف: 80] فقال: أشهد أن مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الكلام. وكون النبى ﷺ تحدى به وأن العرب عجزوا عن معارضته مما علم بالضرورة إجمالًا وتصدى أهل علم البلاغة لتفصيله، قال السكاكى فى المفتاح: «واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها؛ أو كالملاحة. ومدرك الإعجاز عندى هو الذوق ليس إلا. وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين (المعانى والبيان). نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها لتجلى عليك، أما نفس وجه الإعجاز فلا». اهـ.

---

(1) الوليد بن المغيرة، أبو عبد شمس، الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم (95ق.هـ - 1هـ، 530 - 622م). من زعماء قريش، وقاضى العرب فى الجاهلية، ومن زنادقتها، ويلقب بالعدل، أدرك الإسلام وعاداه، لكنه شهد بأن القرآن ليس كلام بشر. وهو والد سيف الإسلام خالد بن الوليد.

(2) أبو عبيدة النحوى، معمر بن المثنى (110 - 209هـ، 728 - 824م). من أئمة العلم بالأدب واللغة وحفاظ الحديث، له قرابة مائتى مؤلف، منها: (مجاز القرآن)، و(معانى القرآن)، و(إعراب القرآن)، و(نقائض جرير والفرزدق)، و(مآثر العرب)، و(المثالب)، و(أيام العرب)، و(ما تلحن فيه العامة)، و(فتوح أرمينية)، و(طبقات الشعراء).

قال التفتـزانى: «يعنى أن كل ما ندركه بعقولنـا ففى غالب الأمر نتمكن مـن التعبير عنـه، والإعجاز ليس كذلـك، لأنا نعلم قطعًا مـن كلام الله أنه بحيـث لا يمكـن للبـشر معارضتـه والإتيان بمثلـه ولا يماثلـه شيء من كلام فصحـاء العرب مع أن كلماته كلمات كلامهم، وكـذا هيئات تراكيبه، كما أنـا نجـد كلامًا نعلم قطعًا أنه مسـتقيم الوزن دون آخر، وكـما أنا ندرك من أحـد كون كل عضو منه كـما ينبغى وآخر كذلـك أو دون ذلك، لكن فيه شيء نسـميه الملاحة ولا نعـرف ما هو، وليس مـدرك الإعجاز عند المصنف سـوى الذوق وهو قوة إدراكية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ووجوه محاسنه الخفية، فإن كان حاصلًا بالفطرة فذاك وإن أريد اكتسابه فلا طريق إليه سـوى الاعتناء بعلمى المعانى والبيان وطول ممارسـتهما والاشـتغال بهما وإن جمع بـين الذوق الفطرى وطول خدمة العلمين فـلا غاية وراءه، فوجه الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة لا كما ذهب إليه النظّام وجمع من المعتزلة أن إعجازه بالصرفة بمعنى أن الله صرف العرب عن معارضته وسـلب قدرتهـم عليها، ولا كما يذهب إليـه جماعة من أن إعجازه بمخالفة أسـلوبه لأسـاليب كلامهم من الأشـعار والخطب والرسائل لا سـيما فى المقاطع مثل يؤمنون وينفقون ويعلمون (قال السـيد: لا سـيما فى مطالع السور ومقاطع الآى) أو بسـلامته من التناقض (قال السـيد: مع طوله جدًا) أو باشتماله على الإخبار بالمغيبات، والكل فاسد. اهـ.

وقال السـيد الجرجاني[1]: فهذه أقوال خمسـة فى وجه الإعجاز لا سـادس

(1) الجرجانى: الشريف الجرجانى، على بن محمد (740 - 816هـ، 1340 - 1413م) فيلسوف، من كبار العلماء بالعربية. من آثاره: (التعريفات) و(شرح مواقف الإيجى) و(مقاليد العلوم) و(تحقيق الكليات) و(تقسيم العلوم) و(رسالة فى فن أصول الحديث).

لها. وقال السيد: أراد المصنف أن الإعجاز نفسه و إن لم يمكن وصفه وكشفه بحيث يدرك به كل الأمور المؤدية إلى كون الكلام معجزًا أعنى وجوه البلاغة قد تحتجب فربما تيسر كشفها ليتقوى بذلك ذوق البليغ على مشاهدة الإعجاز. يريد السيد بهذا الكلام إبطال التدافع بين قول صاحب المفتاح: يدرك ولا يمكن وصفه، إذ نفى الإمكان، وبين قوله: نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها، فأثبت تيسر وصف وجوه الإعجاز، بأن الإعجاز نفسه لا يمكن كشف القناع عنه، وأما وجوه البلاغة فيمكن كشف القناع عنها. واعلم أنه لا شك فى أن خصوصيات الكلام البليغ ودقائقه مرادة لله تعالى فى كون القرآن معجزًا وملحوظة للمتحدين به على مقدار ما يبلغ إليه بيان المبين. و إن إشارات كثيرة فى القرآن تلفت الأذهان لذلك، ويحضرنى الآن من ذلك أمور: أحدها ما رواه مسلم والأربعة عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة (أى سورة الفاتحة) بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل. فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: قال الله تعالى: حمدنى عبدى. و إذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: «أثنى على عبدى» و إذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال: مجدنى عبدى. وقال مرة: فوض إلى عبدى) فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: هذا لعبدى ولعبدى ما سأل. ففى هذا الحديث تنبيه على ما فى نظم فاتحة الكتاب من خصوصية التقسيم إذ قسم الفاتحة ثلاثة أقسام، وحسن التقسيم من المحسنات البديعية مع ما تضمنه ذلك التقسيم من محسن التخلص فى قوله: فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: «هذا بينى وبين عبدى» إذ كان ذلك مزيجًا

من القسمين الذى قبله والذى بعده. وفى القرآن مراعاة التجنيس فى غير ما آية، والتجنيس من المحسنات، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ ﴾ [الأنعام: 26]. وفيه التنبيه على محسن المطابقة كقوله: ﴿ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الحج: 4]. والتنبيه على ما فيه من تمثيل كقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 43]. وقوله: ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: 25] ولذا نحن نحاول تفصيل شيء مما أحاط به علمنا من وجوه الإعجاز نرى من أفانين الكلام الالتفات، وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها. وهو بمجرده معدود من الفصاحة، وسماه ابن جنى شجاعة العربية لأن ذلك التغيير يجدد نشاط السامع فإذا انضم إليه اعتبار لطيف يناسب الانتقال إلى ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة وكان معدودًا عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه فى القرآن ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة فى الانتقال. وكان للتشبيه والاستعارة عند القوم المكان القصى والقدر العلى فى باب البلاغة وبه فاق امرؤ القيس ونبهت سمعته، وقد جاء فى القرآن من التشبيه والاستعارة ما أعجز العرب كقوله: ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم:4] وقوله: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الإسراء: 24] وقوله: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ [يس: 37] وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ [هود: 44] وقوله: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 138] إلى غير ذلك من وجوه البديع. ورأيت من محاسن التشبيه عندهم كمال الشبه، ورأيت وسيلة ذلك الاحتراس وأحسنه ما وقع فى القرآن كقوله تعالى: ﴿ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴾ [محمد: 15] احتراس عن كراهة الطعام ﴿ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ احتراس عن أن تتخلله أقذاء من

بقايا نحله. وانظر التمثيلية فى قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [البقرة: 266] ففيه إتمام جهات كمال تحسين التشبيه لإظهار أن الحسرة على تلفها أشد. وكذا قوله تعالى ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ [النور: 35] إلى قوله: ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ ﴾ فقد ذكر من الصفات، والأحوال ما فيه مزيد وضوح المقصود من شدة الضياء، وما فيه تحسين المشبه وتزيينه بتحسين شبهه وأين من الآيتين قول كعب؟[1]

شجت بذى شم من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
تنفى الرياح القذى عنه وأفرطه من صوب سارية بيض يعاليل

إن نظم القرآن مبنى على وفرة الإفادة، وتعدد الدلالة فجمل القرآن لها دلالتها الوضعية التركيبية التى يشاركها فيها الكلام العربى كله، ولها دلالتها البلاغية التى يشاركها فى مجملها كلام البلغاء ولا يصل شيء من كلامهم إلى مبلغ بلاغتها ولها دلالتها المطوية وهى دلالة ما يذكر على ما يقدر اعتمادًا على القرينة، وهذه الدلالة قليلة فى كلام البلغاء وكثيرة فى القرآن مثل تقدير القول وتقدير الموصوف وتقدير الصفة. ولها دلالة مواقع جملة بحسب ما قبلها وما بعدها ككون الجملة فى موقع العلة لكلام قبلها، أو فى موقع الاستدراك أو فى موقع تعريض أو نحوه وهذه الدلالة لا تتأتى فى كلام العرب لقصر أغراضه فى قصائدهم وخطبهم بخلاف القرآن، فإنه لما كان من قبيل التذكير والتلاوة سمحت أغراضه بالإطالة. وبتلك الإطالة

(1) كعب بن زهير - أبو المضرب - كعب بن زهير بن أبى سلمى (26هـ 645م) من مشاهير شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام، ووفد على النبى ﷺ وأنشده لأميته فخلع عليه النبى ﷺ بردته. له (ديوان شعر).

تـأتِّ تعدد مواقع الجمل والأغـراض مثال ذلك قوله: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: 22] بعد قولـه: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: 21] فإن قوله: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ إلى آخـره مفيد بتراكيبه فوائد من التعليم والتذكـير، وهـو لوقوعه عقب قولـه: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ واقع موقع الدليل على أنه لا يستوى عمل السيئات مع من عمل الصالحات فى نعيم الآخرة، وإن للتقديم والتأخير فى وضع الجمل وأجزائها فى القرآن دقائق عجيبة كثيرة لا يحاط بها، وسننبه على ما يلوح منها فى مواضعه إن شاء الله.

وإليـك مثلًا مـن ذلك يكون لك عونًا على اسـتجلاء أمثاله. قال تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴾ [النبـأ: 21 - 22] إلى قوله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴾ [النبـأ: 31 - 32] إلى قوله: ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴾ [النبـأ: 34، 35] فكان للابتداء بذكـر جهنم ما يفسر المفاز فى قوله: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ أنه الجنة لأن الجنة مكان الفوز: ثم كان قوله: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴾ [النبأ: 35] ما يحتمل لضمير ﴿ فِيهَا ﴾ من قوله: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ ﴾ أن يعـود إلى ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ وتكـون (في) للظرفية المجازية أى الملابسـة أو السـببية أى لا يسمعون فى ملابسة شرب الكأس ما يعترى شاربيها فى الدنيا مـن اللغو واللجاج، وأن يعود إلى ﴿ مَفَازًا ﴾ بتأويله باسـم مؤنث وهو الجنة وتكـون (في) للظرفية الحقيقية أى لا يسـمعون فى الجنة كلامًـا لا فائدة فيه ولا كلامًـا مؤذيًـا، وهذه المعـانى لا يتأتى جميعها إلا بجمل كثـيرة لو لم يقدم ذكر جهنم ولم يعقب بكلمة ﴿ مَفَازًا ﴾ ولم يؤخر ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ ولم يعقب بجملـة ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ إلخ. ومما يجب التنبيه له أن مراعاة المقام فى أن

ينظـم الكلام على خصوصيات بلاغية هى مراعاة من مقومات بلاغة الكلام وخصوصًـا فى إعجـاز القرآن، فقد تشـتمل آية من القـرآن على خصوصيات تتسـاءل نفس المفسر عن دواعيها وما يقتضيها فيتصـدى لتطلب مقتضيات فيهـا ربمـا جاء بهـا متكلفة أو مغصوبـة، ذلك لأنه لم يلتفـت إلا إلى مواقع ألفـاظ الآيـة، فى حال أن مقتضياتهـا فى الواقع منوطة بالمقامـات التى نزلت فيها الآية مثال ذلك قوله تعالى فى سـورة المجادلة: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلـة: 19] ثم قوله: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22] فقد يخفى مقتضى اجتلاب حرف التنبيه فى افتتـاح كلتـا الجملتين فيأوى المفسر إلى تطلـب مقتضيه و يأتى بمقتضيات عامة مثـل أن يقول: التنبيه للاهتمام بالخبر، ولكـن إذا قدرنا أن الآيتين نزلتا بمسمع من المنافقين والمؤمنين جميعًا علمنا أن اجتلاب حرف التنبيه فى الأولى لمراعـاة إيقاظ فريقى المنافقين والمؤمنين جميعًـا فالأولون لأنهم يتظاهرون بأنهم ليسـوا من حزب الشـيطان فى نظر المؤمنين إذ هم يتظاهرون بالإسلام فكان الله يقول: قد عرفنا دخائلكم، وثانى الفريقين هم المؤمنون نبهوا لأنهم غافلـون عن دخائل الآخرين فكأنـه يقول لهم: تيقظوا فـإن الذين يتولون أعداء كـم هم أيضًا عـدو لكم لأنهم حزب الشـيطان والشـيطان عدو الله وعـدو الله عدو لكم! واجتلاب حرف التنبيه فى الآية الثانية لتنبيه المنافقين إلى فضيلة المسـلمين لعلهم يرغبون فيها فيرعوون عن النفاق وتنبيه المسلمين إلى أن حولهم فريقًا ليسـوا من حزب الله فليسوا بمفلحين ليتوسموا أحوالهم حق التوسـم فيحذروهم. ومرجع هذا الصنف من الإعجاز إلى ما يسـمى فى عرف علـماء البلاغة بالنكـت البلاغية فإن بلغاءهم كان تنافسـهم فى وفرة إيداع الكلام من هذه النكت، وبذلك تفاضل بلغاؤهم، فلما سـمعوا القرآن

إنثالت على كل من سمعه من بلغائهم من النكت التى تفطن لها ما لم يجد من قدرته قبلا بمثله. وأحسب أن كل بليغ منهم قد فكر فى الاستعانة بزملائه من أهل اللسان فعلم ألا مبلغ بهم إلى التظاهر على الإتيان بمثل القرآن فيما عهده كل واحد من ذوق زميله، هذا كله بحسب ما بلغت إليه قريحة كل واحد ممن سمع القرآن منهم من التفطن إلى نكت القرآن وخصائصه. ووراء ذلك نكت لا يتفطن إليها كل واحد، وأحسب أنهم تآمروا وتدارسوا بينهم فى نواديهم أمر تحدى الرسول إياهم بمعارضة القرآن وتواصفوا ما اشتملت عليه بعض آياته العالقة بحوافظهم وأسماعهم من النكت والخصائص وأوقف بعضهم بعضًا على ما لاح له من تلك الخصائص، وفكروا وقدروا وتدبروا فعلموا أنهم عاجزون عن الإتيان بمثلها إن انفردوا أو اجتمعوا، ولذلك سجل القرآن عليهم عجزهم فى الحالتين فقال تارة: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: 38] وقال لهم مرة: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88] فحالة اجتماعهم وتظاهرهم لم تكن مغفولًا عنها بينهم ضرورة أنهم متحدون بها. وهذه الناحية من هذه الجهة من الإعجاز هى أقوى نواحى إعجاز القرآن وهى التى يتحقق بها إعجاز أقصر سورة منه. وفى هذه الجهة ناحية أخرى وهى ناحية فصاحة اللفظ وانسجام النظم وذلك بسلامة الكلام فى أجزائه ومجموعة مما يجر الثقل إلى لسان الناطق به، ولغة العرب لغة فصيحة وأهلها مشهورون بفصاحة الألسن. قال فخر الدين الرازي[1] فى مفاتيح الغيب: «إن المحاسن اللفظية غير مهجورة فى الكلام

(1) الفخر الرازى، أبو عبد الله، محمد بن عمر (544 - 606هـ، 1150 - 1210م) إمام عصره فى التفسير وعلوم الأوائل والمعقول والمنقول. ولقد انعكست ثقافته الموسوعية فى آثاره الفكرية. ومنها (تفسيره الكبير - مفاتيح الغيب) و(معالم أصول الدين)=

الحكمى، والكلام له جسم وهو اللفظ وله روح وهو المعنى، وكما أن الإنسان الذى نور روحه بالمعرفة ينبغى أن ينور جسمه بالنظافة، كذلك الكلام، ورب كلمة حكيمة لا تؤثر فى النفوس لركاكة لفظها». وكان مما يعرض لشعرائهم وخطبائهم ألفاظ ولهجات لها بعض الثقل على اللسان، فأما ما يعرض للألفاظ فهو ما يسمى فى علم الفصاحة بتنافر حروف الكلمة أو تنافر حروف الكلمات عند اجتماعها مثل مستشزرات والكنهبل فى معلقة امرىء القيس، وسفنجة والخفيدد فى معلقة طرفة، وقول القائل: «وليس قرب قبر حرب قبر» وقد سلم القرآن من هذا كله مع تفننه فى مختلف الأغراض وما تقتضيه من تكاثر الألفاظ، وبعض العلماء أورد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ [يس: 60] وقوله: ﴿أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: 48] وتصدى للجواب، والصواب أن ذلك غير وارد كما قاله المحققون لعدم بلوغه حد الثقل، ولأن حسن دلالة اللفظ على المعنى بحيث لا يخلفه فيها غيره مقدم على مراعاة خفة لفظه. فقد اتفق أئمة الأدب على أن وقوع اللفظ المتنافر فى أثناء الكلام الفصيح لا يزيل عنه وصف الفصاحة فإن العرب لم يعيبوا معلقة امرىء القيس ولا معلقة طرفة. قال أبو العباس المبرد[1]: «وقد يضطر الشاعر المفلق والخطيب المصقع والكاتب البليغ فيقع فى كلام أحدهم المعنى المستغلق واللفظ المستكره فإذا انعطفت عليه جنبتا الكلام غطتا على عواره وسترتا من

= و(محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين) و(المسائل الخمسون فى أصول الكلام) و(المباحث المشرقية) و(المطالب العالية) و(نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز) و(شرح سقط الزند) للمعرى.

(1) المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد (210 - 586هـ، 826 - 899م) إمام العربية والأدب والأخبار فى عصره. من آثاره: (الكامل) و(المقتضب) و(إعراب القرآن) و(شرح لامية العرب).

شـينه» وأما ما يعرض للهجات العرب فذلـك شيء تفاوتت فى مضماره جياد ألسـنتهم وكان المجلى فيها لسـان قريش ومن حولها من القبائل المذكورة فى المقدمة السادسة وهو مما فسر به حديث: «أنزل القرآن على سبعة أحرف»، ولذلك جاء القرآن بأحسـن اللهجات وأخفها وتجنب المكروه من اللهجات، وهذا من أسـباب تيسير تلقى الأسماع له ورسوخه فيها. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمـر: 17] ومـما أعـده فى هـذه الناحية صراحة كلماته باسـتعمال أقـرب الكلمات فى لغة العـرب دلالة على المعانى المقصودة، وأشـملها لمعان عديدة مقصودة بحيث لا يوجد فى كلمات القرآن كلمـة تقـصر دلالتها عن جميـع المقصود منهـا فى حالة تركيبهـا، ولا تجدها مسـتعملة إلا فى حقائقها مثل إيثار كلمة حـرد فى قوله تعالى: ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴾ [القلـم: 25] إذ كان جميع معانى الحـرد صالحًا للإرادة فى ذلك الغرض. أو مجـازات أو اسـتعارات أو نحوها مما تنصب عليـه القرائن فى الكلام فإن اقتضى الحال تصرفا فى معنى اللفظ كان التصرف بطريق التضمين وهو كثير فى القـرآن مثل قولـه تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ ﴾ [الفرقـان: 40] فجاء فعل أتى مضمنًا معنى مروا فعدى بحرف على؛ لأن الإتيان تعدى إلى اسـم القرية والمقصود منه الاعتبار بمـآل أهلها فإنه يقال أتى أرض بـنى فـلان ومر على حى كذا وهـذه الوجوه كلها لا تخالف أسـاليب الكلام البليغ بل هى معدودة من دقائقه ونفائسـه التى تقل نظائرها فى كلام بلغائهم لعجز فطنة الأذهان البشرية عن الوفاء بجميعها.

وأمـا الجهة الثانية وهى مـا أبدعه القرآن من أفانين التصرف فى أسـاليب الـكلام البليـغ وهذه جهـة مغفولة من علـم البلاغة، فاعلـم أن أدب العرب نوعان شعر ونثر، والنثر خطابة وأسجاع كهان، وأصحاب هذه الأنواع و إن

تنافسوا فى ابتكار المعانى وتفاوتوا فى تراكيب أدائها فى الشعر فهم بالنسبة إلى الأسلوب قد التزموا فى أسلوبى الشعر والخطابة طريقة واحدة تشابهت فنونها فلم يكادوا يعدون ما ألفوه من ذلك حتى إنك لتجد الشاعر يحذو حذو الشاعر فى فواتح القصائد وفى كثير من تراكيبها، فكم من قصائد افتتحت بقولهم «بانت سعاد» للنابغة[1] وكعب بن زهير، وكم من شعر افتتح بـ:

«يا خليلى أربعا واستخبرا»

وكم من شعر افتتح بـ: «يا أيها الراكب المزجى مطيته»

وقال امرأو القيس فى معلقته:

وقوفًا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

فقال طرفه[2] فى معلقته بيتًا مماثلًا له سوى أن كلمة القافية منه «وتجلد». وكذلك القول فى خطبهم، تكاد تكون لهجة واحدة وأسلوبًا واحدًا فيما بلغنا من خطب سحبان[3] وقس بن ساعدة[4] وكذلك أسجاع الكهان وهى

(1) النابغة الذبيانى، أبو أمامة، زياد بن معاوية بن ضباب (18ق.هـ - 604م). أحد الأشراف فى الجاهلية، ومن فحول الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية. كانت تضرب له قبة من جلد أحمر فى سوق عكاظ، فيأتيه الشعراء يعرضون عليه قصائدهم. له ديوان صغير.

(2) طرفة بن العبد، أبو عمرو، (86 - 60ق.هـ، 538 - 564م). من شعراء الطبقة الأولى فى الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، فى شعره حكمة، وله ديوان صغير.

(3) سحبان وائل، سحبان بن زفر بن إياس الوائلى (54هـ، 674م). يضرب به المثل فى الفصاحة والخطابة والبيان. أدرك الإسلام، وهداه الله إليه.

(4) قس بن ساعدة بن عمرو الإيادى (23ق.هـ، 600م). أحد حكماء العرب وخطبائهم فى الجاهلية كان أسقف نجران، أدركه النبى ﷺ، ورآه فى عكاظ قبل النبوة.

قد اختصت بقصر الفقرات وغرابة الكلمات. إنما كان الشعر الغالب على كلامهم، وكانت الخطابة بحالة ندور لندرة مقاماتها. قال عمر: «كان الشعر علم القوم ولم يكن لهم علم أصح منه» فانحصر تسابق جياد البلاغة فى ميدان الكلام المنظوم، فلما جاء القرآن ولم يكن شعرًا ولا سجع كهان، وكان من أسلوب النثر أقرب إلى الخطابة، ابتكر للقول أساليب كثيرة بعضها تتنوع بتنوع المقاصد، ومقاصدها بتنوع أسلوب الإنشاء، فيها أفانين كثيرة فيجد فيه المطلع على لسان العرب بغيته ورغبته ولهذا قال الوليد ابن المغيرة لما استمع إلى قراءة النبى ﷺ: «والله ما هو بكاهن ما هو بزمزمته ولا سجعه، وقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه، وقريضة ومبسوطة ومقبوضة. ما هو بشاعر» وكذلك وصفه أنيس بن جنادة الغفارى الشاعر أخو أبى ذر حين انطلق إلى مكة ليسمع من النبى ﷺ و يأتى بخبره إلى أخيه فقال: «لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقراء الشعر[1] فلم يلتئم، وما يلتئم على لسان واحد بعدى أنه شعر» ثم أسلم وورد مثل هذه الصفة عن عتبة بن ربيعة[2] والنضر بن الحارث[3]، والظاهر أن المشركين لما لم يجدوا بدًا من إلحاق القرآن بصنف من أصناف كلامهم ألحقوه بأشبه الكلام به فقالوا: إنه شعر تقريبًا للدهماء بما عهده القوم من الكلام الجدير بالاعتبار من حيث ما فيه من دقائق المعانى و إحكام الانتظام والنفوذ إلى

(1) الأقراء، جمع قرء، وهو الطريق.

(2) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، أبو الوليد (2هـ، 624م). كبير قريش. وأحد سادتها فى الجاهلية، كان من رءوس الشرك، الذين قاوموا الإسلام، وقتل يوم بدر.

(3) النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف (2هـ، 624م). كان من شجعان قريش ووجوهها، وصاحب لواء المشركين يوم بدر. أصابته جراحة يوم بدر، ووقع فى الأسر، ومات من جراحته.

العقـول، فإنه مع بلوغه أقـصى حد فى فصاحة العربية ومـع طول أغراضه وتفنن معانيه وكونه نثرًا لا شعرًا ترى أسلوبه يجرى على الألسنة سلسًا سهلًا لا تفـاوت فى فصاحة تراكيبه، وترى حفظه أسرع من حفظ الشـعر. وقد اختار العرب الشـعر لتخليـد أغراضهم وآدابهم لأن مـا يقتضيه من الوزن يلجـىء إلى التدريب عـلى ألفاظ متوازنة فيكسـبها ذلك التـوازن تلاؤمًا، فتكون سلسـة على الألسن، فلذلك انحصر تسـابق جياد البلاغة فى الكلام المنظوم وفحول الشـعراء مع ذلك متفاوتون فى سلاسـة الكلام مع تسامحهم فى أمور كثيرة اغتفرها الناس لهم وهى المسماة بالضرورات. بحيث لو كان لواحـد من البـشر أن يتكلف فصاحة لمـا يقوله من كلام و يعـاود تنقيحه وتغيـير نظمه بإبدال الكلـمات أو بالتقديم بما حقه التأخـير، أو التأخير لما حقه التقديم، أو حذف أو زيادة لقضى زمنًا مديدًا فى تأليف ما يقدر بسورة من متوسـط سـورة القرآن، ولما سـلم مع ذلك من جمل يتعثر فيها اللسـان. ولم يـدع مع تلك الفصاحـة داع إلى ارتكاب ضرورة أو تقصير فى بعض ما تقتضيـه البلاغة، فبـنى نظمه على فواصل وقرائن متقاربة فلم تفته سلاسـة الشـعر ولم ترزح تحت قيود الميزان، فجاء القرآن كلامًا منثورًا ولكنه فاق فى فصاحته وسلاسـته على الألسنة وتوافق كلماته وتراكيبه فى السلامة من أقـل تنافر وتعثر على الألسـنة، فكان كونه من النثر داخـلًا فى إعجازه وقد اشـتمل القرآن على أنواع أساليب الكلام العربى وابتكر أساليب لم يكونوا يعرفونها و إن لذلك التنويـع حكمتين داخلتين فى الإعجاز: أولاهما: ظهور أنه من عند الله إذ قد تعارف الأدباء فى كل عصر أن يظهر نبوغ نوابغهم على أساليب مختلفة كل يجيد أسلوبًا أو أسلوبين. الثانية: أن يكون فى ذلك زيادة التحدى للمتحدين به بحيث لا يسـتطيع أحد أن يقول إن هذا الأسلوب لم

تسبق لى معالجته ولو جاءنا بأسلوب آخر لعارضته. نرى من أعظم الأساليب التى خالف بها القرآن أساليب العرب أنه جاء فى نظمه بأسلوب جامع بين مقصديه وهما: مقصد الموعظة ومقصد التشريع، فكان نظمه يمنح بظاهره السامين ما يحتاجون أن يعلموه وهو فى هذا النوع يشبه خطبهم، وكان فى مطاوى معانيه ما يستخرج منه العالم الخبير أحكامًا كثيرة فى التشريع والآداب وغيرها، وقد قال فى الكلام على بعضه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 7] هذا من حيث ما لمعانيه من العموم والإيماء إلى العلل والمقاصد وغيرها، ومن أساليبه ما أسميه بالتفنن وهو بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتنظير والتذييل والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبًا لثقل تكرير الكلم، وكذلك الإكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية، فهو فى القرآن كثير، ثم الرجوع إلى المقصود فيكون السامعون فى نشاط متجدد بسماعه و إقبالهم عليه، ومن أبدع أمثلة ذلك قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 17 - 20] بحيث كان أكثر أساليب القرآن من الأساليب البديعة العزيزة مثلها فى شعر العرب وفى نثر بلغائهم من الخطباء وأصحاب بدائه الأجوبة. وفى هذا التفنن والتنقل مناسبات بين المتنقل منه والمتنقل إليه هى فى منتهى الرقة والبداعة بحيث لا يشعر سامعه وقارئه بانتقاله إلا عند حصوله. وذلك

التفنن مما يعين على استماع السامعين و يدفع سآمة الإطالة عنهم، فإن من أغراض القرآن استكثار أزمان قراءته كما قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: 20] فقوله: ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ يقتضى الاستكثار بقدر التيسر، وفى تناسب أقواله وتفنن أغراضه مجلبة لذلك التيسير، وعون على التكثر، نقل عن أبى بكر بن العربى أنه قال فى كتابه سراج المريدين: «ارتباط آى القرآن بعضها مع بعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسعة المعانى منتظمة المبانى، علم عظيم» ونقل الزركشي[1] عن عز الدين بن عبد السلام[2]: «المناسبة علم حسن و يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، والقرآن نزل فى نيف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض». وقال شمس الدين محمود الأصفهاني[3] فى تفسيره نقلاً عن الفخر الرازى أنه قال: «إن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه هو أيضًا

(1) الزركشى، أبو عبد الله، بدر الدين، محمد بن بهادر (745 - 794هـ، 1344 - 1932م) فقيه شافعى وأصولى. من آثاره: (البحر المحيط) فى أصول الفقه، و(المنثور) المعروف بقواعد الزركشى، و(التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح).

(2) عز الدين بن عبد السلام، سلطان العلماء، عبد العزيز بن عبد السلام (577 - 660هـ، 1181 - 1262م) فقيه وأصولى، مجتهد، مجاهد، من آثاره: (التفسير الكبير) و(الإلمام فى أدلة الأحكام) و(قواعد الشريعة) و(قواعد الأحكام فى إصلاح الأنام) و(الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز) فى مجاز القرآن.

(3) شمس الدين الأصفهانى، أبو عبد الله، محمد بن محمود (616 - 688هـ، 1219 - 1289م) قاض من فقهاء الشافعية، من آثاره: (شرح المحصول) و(القواعد) فى أصول الفقه والدين والمنطق والجدل (وغاية المطلب) فى المنطق.

معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك».

إن بلاغة الكلام لا تنحصر فى أحوال تراكيبه اللفظية، بل تتجاوز إلى الكيفيات التى تؤدى بها تلك التراكيب.

فإن سكوت المتكلم البليغ فى جملة سكوتًا خفيفًا قد يفيد من التشويق إلى ما يأتى بعده ما يفيده إبهام بعض كلامه ثم تعقيبه ببيانه، فإذا كان من مواقع البلاغة نحو الإتيان بلفظ الاستئناف البيانى، فإن السكوت عند كلمة وتعقيبها بما بعدها يجعل ما بعدها بمنزلة الاستئناف البيانى و إن لم يكنه عينه، مثاله قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: 15، 16].

فإن الوقف على قوله ﴿مُوسَىٰٓ﴾ يحدث فى نفس السامع ترقبًا لما يبين حديث موسى، فإذا جاء بعده ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ إلخ حصل البيان مع ما يحصل عند الوقف على كلمة موسى من قرينة من قرائن الكلام لأنه على سجعة الألف مثل قوله: «طوى، طغى، تزكى» إلخ. وقد بينت عند تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] أنك إن وقفت على كلمة ﴿رَيْبَ ۛ﴾ كان من قبيل إيجاز الحذف أى لا ريب فى أنه الكتاب فكانت جملة ﴿فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ابتداء كلام وكان مفاد حرف (فى) استنزال طائر المعاندين أى: إن لم يكن كله هدى فإن فيه هدى. و إن وصلت «فيه» كان من قبيل الإطناب وكان ما بعده مفيدًا أن هذا الكتاب كله هدى. ومن أساليب القرآن العدول عن تكرير اللفظ والصيغة فيما عدا المقامات التى تقتضى التكرير من تهويل ونحوه، ومما عدل فيه عن تكرير الصيغة قوله

تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التحريم: 4] فجاء بلفظ قلوب جمعًا مع أن المخاطب امرأتان فلم يقل قلبا كما تجنبا لتعدد صيغة المثنى. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾ [الأنعام: 139] فروعي معنى ﴿مَا﴾ الموصولة مرة فأتى بضمير جماعة المؤنث وهو ﴿خَالِصَةٞ﴾ وروعي لفظ ﴿مَا﴾ الموصولة فأتى بـ ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ مذكرًا مفردًا. إن المقام قد يقتضي شيئين متساويين أو أشياءً متساوية فكون البليغ مخيرًا في أحدهما وله ذكرهما تفننًا وقد وقع في القرآن كثير و إذا قلنا... فكلوا منها من هذا: من ذلك قوله: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا﴾ [البقرة: 35] بواو العطف في سورة البقرة، وقوله في الأعراف ﴿فَكُلَا﴾ بفاء التفريع وكلاهما مطابق للمقام فإنه أمر ثان وهو أمر مفرع على الإسكان فيجوز أن يحكى بكل من الاعتبارين، ومنه قوله في سورة البقرة: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ [البقرة: 58]. وفي سورة الأعراف: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: 161] فعبر مرة بـ ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ ومرة بـ ﴿ٱسۡكُنُواْ﴾ وعبر مرة بواو العطف ومرة بفاء التفريع. وهذا التخالف بين الشيئين يقصد لتلوين المعاني المعادة حتى لا تخلو إعادتها عن تجدد معنى وتغاير أسلوب، فلا تكون إعادتها مجرد تذكير. قال في الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الأنبياء:4] ليس بواجب أن يجاء بالآكد في كل موضع ولكن يجاء بالوكيد تارة وبالآكد أخرى كما يجاء بالحسن في موضع وبالأحسن في غيره ليفتن الكلام افتنانًا».

ومنها اتساع أدب اللغة في القرآن. لم يكن أدب العرب السائر فيهم غير الشعر، فهو الذي يحفظ و ينقل و يسير في الآفاق، وله أسلوب خاص من انتقاء

الألفاظ و إبداع المعانى، وكان غيره من الكلام عسير العلوق بالحوافظ، وكان الشعر خاصًا بأغراض وأبواب معروفة أشهرها وأكثرها النسيب والحماسة والرثاء والهجاء والفخر، وأبواب أخر لهم فيها شعر قليل وهى الملح والمديح. ولهم من غير الشعر الخطب، والأمثال، والمحاورات: فأما الخطب فكانت تنسى بانتهاء المقامات المقولة فيها فلا يحفظ من ألفاظها شيء، و إنما يبقى فى السامعين التأثر بمقاصدها زمانًا قليلًا للعمل به فتأثر المخاطبين بها جزئى ووقتى. وأما الأمثال فهى ألفاظ قصيرة يقصد منها الاتعاظ بمواردها، وأما المحاورات فمنها عادية لا يهتمون بما تتضمنه إذ ليست من الأهمية بحيث تنقل وتسير، ومنها محاورات نواد وهى المحاورات الواقعة فى المجامع العامة والمنتديات وهى التى أشار إليها لبيد[1] بقوله:

وكثيرة غربائها مجهولة تجرى نوافلها ويخشى ذامها
غلب تشذر بالذحول كأنها جن البدى رواسيا أقدامها
أنكرت باطلها ويؤت بحقها عندى ولم يفخر على كرامها

وتلك مثل مجامعهم عند الملوك وفى مقامات المفاخرات وهى نادرة الوقوع قليلة السيران وحيدة الغرض؛ إذ لا تعدو المفاخرات والمبالغات فلا يحفظ منها إلا ما فيه نكتة أو ملحة أو فقرات مسجوعة مثل خطاب امرئ القيس مع شيوخ بنى أسد، فجاء القرآن بأسلوب فى الأدب غض جديد صالح لكل العقول، متفنن إلى أفانين أغراض الحياة كلها معط لكل فن ما يليق به

(1) لبيد العامرى، أبو عقيل، لبيد بن ربيعة بن مالك (41هـ، 661م) أحد الشعراء الفرسان الأشراف فى الجاهلية. ومن أصحاب المعلقات. أدرك الإسلام، ووفد على النبى ﷺ، وهو معدود من الصحابة. هجر الشعر بعد إسلامه. وله ديوان صغير.

من المعانى والألفاظ واللهجة: فتضمن المحاورة والخطابة والجدل والأمثال (أى الكلم الجوامع) والقص والتوصيف والرواية. وكان لفصاحة ألفاظه وتناسبها فى تراكيبه، وترتيبه على ابتكار أسلوب الفواصل العجيبة المتماثلة فى الأسماع، وإن لم تكن متماثلة الحروف فى الأسجاع، كان لذلك سريع العلوق بالحوافظ خفيف الانتقال والسير فى القبائل، مع كون مادته ولحمته هى الحقيقة دون المبالغات الكاذبة والمفاخرات المزعومة، فكان بذلك له صولة الحق وروعة لسامعيه، وذلك تأثير روحانى وليس بلفظى ولا معنوى. وقد رأيت المحسنات فى البديع جاءت فى القرآن أكثر مما جاءت فى شعر العرب، وخصوصًا الجناس كقوله: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104]، والطباق كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: 4] وقد ألف ابن أبى الأصبع[1] كتابًا فى بديع القرآن. وصار - لمجيئه نثرًا - أدبًا جديدًا غضًا ومتناولًا لكل الطبقات. وكان لبلاغته وتناسقه نافذ الوصول إلى القلوب حتى وصفوه بالسحر وبالشعر ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: 30].

مبتكرات القرآن

هذا وللقرآن مبتكرات تميز بها نظمه عن بقية كلام العرب. فمنها أنه جاء على أسلوب يخالف الشعر لا محالة. وقد نبه عليه العلماء المتقدمون. وأنا أضم إلى ذلك أن أسلوبه يخالف أسلوب الخطابة بعض المخالفة، بل جاء

(1) ابن أبى الإصبع، عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبى الإصبع العدوانى (585 - 654هـ، 1189 - 1256ن) من العلماء بالأدب. من آثاره: (بديع القرآن) فى أنواع البديع الواردة فى الآيات الكريمة (وتحرير التحبير) و(الجواهر السوانح فى سرائر القرائح).

بطريقة كتاب يقصد حفظه وتلاوته وذلك من وجوه إعجازه إذ كان نظمه على طريقة مبتكرة ليس فيها اتباع لطرائقها القديمة فى الكلام وأعد من ذلك أنه جاء بالجمل الدالة على معانٍ مفيدة محررة شأن الجمل العلمية والقواعد التشريعية، فلم يأت بعمومات شأنها التخصيص غير مخصوصة، ولا بمطلقات تستحق التقييد غير مفيدة، كما كان يفعله العرب لقلة اكتراثهم بالأحوال القليلة والأفراد النادرة. مثاله قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾ [النساء: 95] وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: 50] فبين أن الهوى قد يكون محمودًا إذا كان هوى المرء عن هدى، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [العصر: 2 - 3] ومنها أنه جاء على أسلوب التقسيم والتسوير وهى سنة جديدة فى الكلام العربى أدخل بها عليه طريقة التبويب والتصنيف وقد أومأ إليها فى الكشاف إيماءً. ومنها الأسلوب القصصى فى حكاية أحوال النعيم والعذاب فى الآخرة، وفى تمثيل الأحوال، وقد كان لذلك تأثير عظيم على نفوس العرب إذ كان فن القصص مفقودًا من أدب العربية إلا نادرًا، كان فى بعض الشعر كأبيات النابغة فى الحية التى قتلت الرجل وعاهدت أخاه وغدر بها، فلما جاء القرآن بالأوصاف بهت بها العرب كما فى سورة الأعراف من وصف الجنة وأهل النار وأهل الأعراف ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 44] وفى سورة الحديد ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾ [الحديد: 13] الآيات. ومما يتبع هذا أن القرآن يتصرف فى حكاية أقوال المحكى عنهم فيصوغها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه لا على الصيغة التى صدرت عليها، فهو إذا حكى أقوالًا غير عربية صاغ مدلولها فى صيغة تبلغ حد الإعجاز بالعربية. وإذا حكى أقوالًا عربية تصرف فيها تصرفًا يناسب أسلوب المعبر مثل ما يحكيه عن العرب

فإنه لا يلتزم حكاية ألفاظهم بل يحكى حاصل كلامهم، وللعرب فى حكاية الأقوال اتساع مداره على الإحاطة بالمعنى دون التزام الألفاظ، فالإعجاز الثابت للأقوال المحكية فى القرآن هو إعجاز لا للأقوال المحكية.

ومن هذا القبيل حكاية الأسماء الواقعة فى القصص فإن القرآن يغيرها إلى ما يناسب حسن مواقعها فى الكلام من الفصاحة مثل تغيير شاول إلى طالوت، وتغيير اسم تارح أبى إبراهيم إلى آزر.

وكذلك التمثيل فقد كان فى أدب العرب الأمثال وهى حكاية أحوال مرموز لها بتلك الجمل البليغة التى قيلت فيها أو قيلت لها المسماة بالأمثال، فكانت تلك الجمل مشيرة إلى تلك الأحوال، إلا أنها لما تداولتها الألسن فى الاستعمال وطال عليها الأمد نسيت الأحوال التى وردت فيها ولم يبق للأذهان عند النطق بها إلا الشعور بمغازيها التى تقال لأجلها.

أما القرآن فقد أوضح الأمثال وأبدع تركيبها كقوله تعالى ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ ﴾ [إبراهيم: 18] وقوله: ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾ [الحج: 31] وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً ﴾ إلى قوله: ﴿ فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٖ ﴾ [النور: 39 - 40] وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ ﴾ [الرعد: 14].

لم يلتزم القرآن أسلوبًا واحدًا، واختلفت سوره وتفننت، فتكاد تكون لكل سورة لهجة خاصة، فإن بعضها بنى على فواصل وبعضها ليس كذلك. وكذلك فواتحها منها ما افتتح بالاحتفال كالحمد، ويا أيها الذين آمنوا، وألم

ذلك الكتاب، وهى قريب مما نعبر عنه فى صناعة الإنشاء بالمقدمات. ومنها ما افتتح بالهجوم على الغرض من أول الأمر نحو ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: 1] و﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: 1]. ومن أبدع الأساليب فى كلام العرب الإيجاز وهو متنافسهم وغاية تتبارى إليها فصحاؤهم، وقد جاء القرآن بأبدعه إذ كان - مع ما فيه من الإيجاز المبيّن فى علم المعانى - فيه إيجاز عظيم آخر وهو صلوحية معظم آياته لأن تؤخذ منها معان متعددة كلها تصلح لها العبارة باحتمالات لا ينافيها اللفظ، فبعض تلك الاحتمالات مما يمكن اجتماعه، وبعضها و إن كان فرض واحد منه يمنع من فرض آخر فتحريك الأذهان إليه و إخطاره بها يكفى فى حصول المقصد من التذكير به للامتثال أو الانتهاء.

ولولا إيجاز القرآن لكان أداء ما يتضمنه من المعانى فى أضعاف مقدار القرآن. وأسرار التنزيل ورموزه فى كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدًا يدق عن تفطن العالم و يزيد عن تبصره، ولا ينبئك مثل خبير.

إنك تجد فى كثير من تراكيب القرآن حذفًا ولكنك لا تعثر على حذف يخلو الكلام من دليل عليه من لفظ أو سياق، زيادة على جمعه المعانى الكثيرة فى الكلام القليل، قال فى الكشاف فى سورة المدثر «الحذف والاختصار هو نهج التنزيل» قال بعض بطارقة الروم لعمر بن الخطاب لما سمع قوله تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: 52]: قد جمع الله فى هذه الآية ما أنزل على عيسى من أحوال الدنيا والآخرة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: 7]، جمع بين أمرين ونهيين وبشارتين، ومن ذلك قوله ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ

حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: 179] مقابلًا أوجز كلام عرف عندهم وهو «القتل أنفى للقتل»، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾ [هود: 44] ولقد بسط السكاكى فى المفتاح آخر قسم البيان نموذجًا مما اشتملت عليه هذه الآية من البلاغة والفصاحة. وتصدى أبو بكر الباقلانى فى كتابه المسمى «إعجاز القرآن» إلى بيان ما فى سورة النمل من الخصائص» فارجع إليهما.

وأعد من أنواع إيجازه إيجاز الحذف مع عدم الالتباس، وكثر ذلك فى حذف القول، ومن أبدع الحذف قوله تعالى: ﴿ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴾ [المدثر: 40 - 42] أى يتذاكرون شأن المجرمين فيقول من علموا شأنهم: سألناهم فقلنا: ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴾. قال فى الكشاف: قوله: ﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴾ ليس ببيان للتساؤل عنهم و إنما هو حكاية قول المسئولين، أى أن المسئولين يقولون للسائلين قلنا لهم: ما سلككم فى سقر؟ قالوا: لم نك من المصلين. اهـ. ومنه حذف المضاف كثيرًا كقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 177]. وحذف الجمل التى يدل الكلام على تقديرها نحو قوله تعالى: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ ﴾ [الشعراء: 63]. إذ التقدير: فضرب فانفلق. ومن ذلك الإخبار عن أمر خاص بخبر يعمه وغيره لتحصل فوائد: فائدة الحكم العام، وفائدة الحكم الخاص، وفائدة أن هذا المحكوم عليه بالحكم الخاص هو من جنس ذلك المحكوم عليه بالحكم العام.

وقد تتبعت أساليب من أساليب نظم الكلام فى القرآن فوجدتها مما لا عهد بمثلها فى كلام العرب، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ﴾ [الطلاق: 10 - 11] فإبدال (رسولًا) من (ذكرًا) يفيد أن هذا الذكر ذكر هذا الرسول، وأن مجيء الرسول هو ذكر لهم، وأن وصفه بقوله: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يفيد أن الآيات ذكر.

ونظير هذا قوله: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾ [البينة: 1 - 2] الآية، وليس المقام بسامح لإيراد عديد الأمثلة من هذا. ولعله يأتى فى أثناء التفسير.

ومن بديع الإيجاز فى القرآن وأكثره ما يسمى بالتضمين، وهو يرجع إلى إيجاز الحذف، والتضمين أن يضمن الفعل أو الوصف معنى فعل أو وصف آخر ويشار إلى المعنى المضمن بذكر ما هو من متعلقاته من حرف أو معمول فيحصل فى الجملة معنيان.

ومن هذا الباب ما اشتمل عليه من الجمل الجارية مجرى الأمثال، وهذا باب من أبواب البلاغة نادر فى كلام بلغاء العرب، وهو الذى لأجله عدت قصيدة زهير فى المعلقات فجاء فى القرآن ما يفوق ذلك كقوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: 84] وقوله: ﴿طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ [النور: 53] وقوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [فصلت: 34].

وسلك القرآن مسلك الإطناب لأغراض من البلاغة، ومن أهم مقامات الإطناب مقام توصيف الأحوال التى يراد بتفصيل وصفها إدخال الروع فى قلب السامع وهذه طريقة عربية فى مثل هذا كقول ابن زيابة[1]:

(1) ابن زيابة، عمرو بن لأى، من بنى تميم اللات بن ثعلبة. شاعر جاهلى. من أشراف بكر.

نبئت عمرًا غارزًا رأسه في سِنَة يوعد أخواله

فمن آيات القرآن في مثله قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [القيامة: 26 - 29] وقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: 83 - 84] وقوله: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ﴾ [إبراهيم: 43].

ومن أساليب القرآن المنفرد بها التي أغفل المفسرون اعتبارها أنه يرد فيه استعمال اللفظ المشترك في معنيين أو معانٍ إذا صلح المقام بحسب اللغة العربية لإرادة ما يصلح منها، واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي والمجازي إذا صلح المقام لإرادتهما، وبذلك تكثر معاني الكلام مع الإيجاز وهذا من آثار كونه معجزة خارقة لعادة كلام البشر ودالة على أنه منزل من لدن العليم بكل شيء والقدير عليه. وقد نبهنا على ذلك وحققناه في المقدمة التاسعة. ومن أساليبه الإتيان بالألفاظ التي تختلف معانيها باختلاف حروفها أو اختلاف حركات حروفها وهو من أسباب اختلاف كثير من القراءات مثل ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ﴾ [الزخرف: 19] قرئ (عند) بالنون دون ألف وقرئ (عباد) بالموحدة وألف بعدها، ومثل ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: 57] بضم الصاد وكسرها.

واعلم أن مما يندرج تحت جهة الأسلوب ما سماه أئمة نقد الأدب بالجزالة، وما سموه بالرقة وبينوا لكل منهما مقاماته وهما راجعتان إلى معاني الكلام، ولا تخلو سورة من القرآن من تكرر هذين الأسلوبين، وكل منهما بالغ غايته في موقعه، فبينا تسمعه يقول ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53] ويقول:

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: 28] إذ تسمعه يقول: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: 13] قال عياض فى الشفا: إن عتبة بن ربيعة لما سمع هذه الآية أمسك بيده على فم النبى ﷺ وقال له: ناشدتك الله والرحم إلا ما كففت.

عادات القرآن

يحق على المفسر أن يتعرف عادات القرآن من نظمه وكلمه. وقد تعرض بعض السلف لشيء منها، فعن ابن عباس: كل كاس فى القرآن فالمراد بها الخمر. وذكر ذلك الطبري[1] عن الضحاك[2] أيضًا.

وفى صحيح البخارى فى تفسير سورة الأنفال قال ابن عيينة: ما سمى الله مطرًا فى القرآن إلا عذابًا، وتسميه العرب الغيث كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ [الشورى: 28].

وعن ابن عباس أن كل ما جاء من «يا أيها الناس» فالمقصود به أهل مكة المشركون.

وقال الجاحظ فى البيان: «وفى القرآن معان لا تكاد تفترق، مثل الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة،

(1) الطبرى، أبو جعفر، محمد بن جرير (224 - 310هـ، 839 - 923م) إمام فى التفسير والفقه والتاريخ. من آثاره: (أخبار الرسل والملوك) و(جامع البيان فى تفسير القرآن) و(اختلاف الفقهاء).

(2) الضحاك بن عثمان (180هـ - 796م) من كبار أصحاب الإمام مالك بالمدينة، علامة قريش بأخبار العرب وأيامها فى أشعارها.

والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس». قلت: والنفع والضر، والسماء والأرض.

وذكر صاحب الكشاف وفخر الدين الرازى أن من عادة القرآن أنه ما جاء بوعيد إلا أعقبه بوعد، وما جاء بنذارة إلا أعقبها ببشارة. ويكون ذلك بأسلوب الاستطراد والاعتراض لمناسبة التضاد، ورأيت منه قليلًا فى شعر العرب كقول لبيد:

فاقطع لُبانة من تعرَّض وصلُه ... فلشر واصل خلة صرَّامها
واحْب المجامل بالجزيل وصرمُه ... باق إذا طلعت وزاغ قوامها

وفى الكشاف فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ [الصافات: 50 - 51] الآية: «جىء به ماضيًا على عادة الله فى أخباره». وقال فخر الدين فى تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: 109] من سورة العقود: «عادة هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعًا كثيرة من الشرائع والتكاليف أتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء وأحوال القيامة ليصير ذلك مؤكدًا لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع».

وقد استقريت بجهدى عادات كثيرة فى اصطلاح القرآن سأذكرها فى مواضعها، ومنها أن كلمة هؤلاء إذا لم يرد بعدها عطف بيان يبين المشار إليهم فإنها يراد بها المشركون من أهل مكة كقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ [الزخرف: 29] وقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا

بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: 89] وقد استوعب أبو البقاء الكفوي[1] فى كتاب الكليات فى أوائل أبوابه كليات مما ورد فى القرآن من معانى الكلمات، وفى الإتقان للسيوطي[2] شيء من ذلك.

وقد استقريت أنا من أساليب القرآن أنه إذا حكى المحاورات والمجاوبات حكاها بلفظ قال دون حروف عطف، إلا إذا انتقل من محاورة إلى أخرى، انظر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ إلى قوله: ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ ﴾ [البقرة: 30 - 33].

وأما الجهة الثالثة من جهات الإعجاز وهى ما أودعه من المعانى الحكمية والإشارات العلمية فاعلموا أن العرب لم يكن لهم علم سوى الشعر وما تضمنه من الأخبار: قال عمر بن الخطاب: «كان الشعر علم القوم ولم يكن لهم علم أصح منه».

إن العلم نوعان: علم اصطلاحى وعلم حقيقى، فأما الاصطلاحى فهو ما تواضع الناس فى عصر من الأعصار على أن صاحبه يعد فى صف العلماء، وهذا قد يتغير بتغير العصور ويختلف باختلاف الأمم والأقطار، وهذا النوع لا تخلو عنه أمة.

---

(1) أبو البقاء الكفوى (1094هـ، 1683م) صاحب الكليات، وهى من أهم الموسوعات فى المصطلحات.

(2) السيوطى، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبى بكر (849 - 911هـ، 1445 - 1505) عالم موسوعى، وإمام حافظ، ومؤرخ وأديب، كان مؤسسة لجمع وتصنيف العلوم. من آثاره (الإتقان فى علوم القرآن) و(الأشباه والنظائر) و(الإكليل فى استنباط التنزيل) و(تاريخ الخلفاء) و(ترجمان القرآن) و(تفسير الجلالين) و(جمع الجوامع).

وأما العلم الحقيقى فهو معرفة ما بمعرفته كمال الإنسان، وما به يبلغ إلى ذروة المعارف و إدراك الحقائق النافعة عاجلًا وآجلًا، وكلا العلمين كمال إنسانى ووسيلة لسيادة أصحابه على أهل زمانهم، وبين العلمين عموم وخصوص من وجه. وهذه الجهة خلا عنها كلام فصحاء العرب؛ لأن أغراض شعرهم كانت لا تعْد وصف المشاهدات والمتخيلات والافتراضات المختلفة ولا تحوم حول تقرير الحقائق وفضائل الأخلاق التى هى أغراض القرآن، ولم يقل إلا صدقًا كما أشار إليه فخر الدين الرازى.

وقد اشتمل القرآن على النوعين، فأما النوع الأول فتناوله قريب لا يحتاج إلى كد فكر ولا يقتضى نظرًا فإن مبلغ العلم عندهم يومئذ علوم أهل الكتاب ومعرفة الشرائع والأحكام وقصص الأنبياء والأمم وأخبار العالم، وقد أشار إلى هذا القرآن بقوله: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ ﴾ [الأنعام: 155 - 157] وقال: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ ﴾ [هود: 49] ونحو هذا من محاجة أهل الكتاب. ولعل هذا هو الذى عناه عياض بقوله فى الشفاء: «ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم القصة منه إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذى قضى عمره فى تعلم ذلك فيورده النبى ﷺ على وجهه فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه كخبر موسى مع الخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذى القرنين، ولقمان» إلخ كلامه، وإن كان هو قد ساقه فى غير مساقنا بل جاء به دليلًا على الإعجاز من حيث علمه به ﷺ مع

ثبوت الأمية، ومن حيث محاجته إياهم بذلك. فأما إذا أردنا عد هذا الوجه فى نسق وجوه الإعجاز فذلك - فيما نرى - من جهة أن العرب لم يكن أدبهم مشتملًا على التاريخ إلا بإشارات نادرة، كقولهم: درع عادية، ورمح يزينة، وقول شاعرهم:

«أحلام عادٍ وأجسامٌ مطهرة»

وقول آخر:

تراه يطوف الآفاق حرصًا ليأكل رأس لقمان بن عاد

ولكنهم لا يأبهون بذكر قصص الأمم التى هى مواضع العبرة، فجاء القرآن بالكثير من ذلك تفصيلًا كقوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: 21] وكقوله: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: 13] ولهذا يقل فى القرآن التعرض إلى تفاصيل أخبار العرب لأن ذلك أمر مقرر عندهم معلوم لديهم، وإنما ذكر قليل منه على وجه الإجمال على معنى العبرة والموعظة بخبر عاد وثمود وقوم تبع.

وأما النوع الثانى من إعجازه العلمى فهو ينقسم إلى قسمين: قسم يكفى لإدراكه فهمه وسمعه، وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم فينبلج للناس شيئًا فشيئًا انبلاج أضواء الفجر على حسب مبالغ الفهوم وتطورات العلوم، وكلا القسمين دليل على أنه من عند الله لأنه جاء به أمى فى موضع لم يعالج أهله دقائق العلوم، والجائى به ثاو بينهم لم يفارقهم. وقد أشار القرآن إلى هذه الجهة من الإعجاز بقوله تعالى فى سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [القصص: 49، 50] ثم إنه ما كان قصاراه مشاركة أهل العلوم في علومهم الحاضرة، حتى ارتقى إلى ما لم يألفوه وتجاوز ما درسوه وألفوه.

قال ابن عرفة[1] عند قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ [آل عمران: 27] في سورة آل عمران: «كان بعضهم يقول: إن القرآن يشتمل على ألفاظ يفهمها العوام وألفاظ يفهمها الخواص وعلى ما يفهمه الفريقان ومنه هذه الآية فإن الإيلاج يشمل الأيام التي لا يدركها إلا الخواص والفصول التي يدركها سائر العوام». أقول: وكذلك قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: 30].

فمن طرق إعجازه العلمية أنه دعا للنظر والاستدلال، قال في الشفاء: «ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم تعهد للعرب، ولا يحيط بها أحد من علماء الأمم، ولا يشتمل عليها كتاب من كتبهم فجمع فيه من بيان علم الشرائع، والتنبيه على طرق الحجة العقلية، والرد على فرق الأمم ببراهين قوية وأدلة كقوله:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22] وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: 81].

ولقد فتح الأعين إلى فضائل العلوم بأن شبه العلم بالنور وبالحياة كقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: 70] وقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾

(1) ابن عرفة، الكندى، علاء الدين، على بن المظفر بن إبراهيم (640 - 716هـ، 1242 - 1316م) أديب وشاعر وعارف بالقراءات. من آثاره: (التذكرة الكندية) في خمسين جزءًا، وديوان شعر في ثلاثة مجلدات.

[البقرة: 257] وقال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: 43] وقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾ [الزمر: 9].

وهذا النوع من الإعجاز هو الذى خالف به القرآن أساليب الشعر وأغراضه مخالفة واضحة، هذا والشاطبي[1] قال فى الموافقات: «إن القرآن لا تحمل معانيه ولا يتأول إلا على ما هو متعارف عند العرب» ولعل هذا الكلام صدر منه فى التقصى من مشكلات فى مطاعن الملحدين اقتصادًا فى البحث و إبقاء على نفيس الوقت، و إلا فكيف ينفى إعجاز القرآن لأهل كل العصور، وكيف يقصر إدراك إعجازه بعد عصر العرب على الاستدلال بعجز أهل زمانه إذ عجزوا عن معارضته، و إذ نحن نسلم لهم التفوق فى البلاغة والفصاحة، فهذا إعجاز إقناعى بعجز أهل عصر واحد ولا يفيد أهل كل عصر إدراك طائفة منهم لإعجاز القرآن. وقد بينت نقض كلام الشاطبى. وقد بدت لى حجة لتعلق هذه الجهة الثالثة بالإعجاز ودوامه وعمومه وهى قوله ﷺ فى الحديث الصحيح: «ما من الأنبياء نبى إلا أوتى - أو أعطى - من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، و إنما كان الذى أوتيت وحيًا أوحاه الله إلى و إنى أرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة» ففيه نكتتان غفل عنهما شارحوه: الأولى أن قوله ما مثله آمن عليه البشر اقتضى أن كل نبى جاء بمعجزة هى إعجاز فى أمر خاص كان قومه أعجب به

(1) الشاطبى، أبو إسحاق، إبراهيم بن موسى (790هـ، 1388م) محدث وفقيه وأصولى ولغوى ومفسر للقرآن الكريم، صار علمًا على مقاصد الشريعة الذى بلوره فى كتابه (الموافقات).

وأعجـز عنه. فيؤمنون على مثل تلك المعجزة، ومعنى (آمن عليه) أى لأجله وعـلى شرطه، كما تقـول: على هذا يكـون عملنا أو اجتماعنـا، الثانية: أن قولـه (و إنما كان الـذى أوتيت وحيًـا) اقتضى أن ليسـت معجزته من قبيل الأفعال كما كانت معجزات الرسـل الأولين أفعـالًا لا أقولًا، كقلب العصا وانفجـار الماء مـن الحجر، و إبـراء الأكمه والأبرص، بـل كانت معجزته مـا فى القـرآن من دلالة على عجز البشر عن الإتيـان بمثله من جهتى اللفظ والمعـانى، وبذلـك يمكن أن يؤمن بـه كل من يبتغـى إدراك ذلك من البشر وتتدبـره و يفصح عن ذلك تعقيبه بقوله: (فأرجـو أن أكون أكثرهم تابعًا) إذ قـد عطف بالفاء المؤذنة بالترتيب، فالمناسـبة بين كونـه أوتى وحيًا وبين كونه يرجـو أن يكون أكثرهم تابعًا لا تنجلى إلا إذا كانت المعجزة صالحة لجميع الأزمان حتى يكون الذين يهتدون لدينه لأجل معجزته أممًا كثيرين عـلى اختلاف قرائحهم فيكون هو أكثر الأنبيـاء تابعًا لا محالة، وقد تحقق ذلـك لأن المعـنى بالتابـع التابع له فى حقائـق الدين الحق لا اتبـاع الادعاء والانتساب بالقول. ولعل الرجاء متوجه إلى كونه أكثر من جميعهم تابعًا أى أكـثر اتباعًا من اتباع جميع الأنبيـاء كلهم، وقد أُغفل بيان وجه التفريع فى هذا اللفظ النبوى البليغ.

وهـذه الجهـة من الإعجاز إنمـا تثبت للقـرآن بمجموعـه أى مجموع هذا الكتاب، إذ ليست كل آية من آياته ولا كل سورة من سوره بمشتملة على هذا النـوع من الإعجـاز، ولذلك فهو إعجاز حاصل من القـرآن وغير حاصل به التحدى إلا إشارة نحو قوله:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

و إعجازه من هذه الجهة للعرب ظاهر: إذ لا قبل لهم بتلك العلوم كما قال الله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: 49] و إعجازه لعامة الناس أن تجيء تلك العلوم من رجل نشأ أميًّا فى قوم أميين، و إعجازه لأهل الكتاب خاصة إذ كان ينبئهم بعلوم دينهم مع كونه أميًّا، ولا قبل لهم بأن يدعوا أنهم علَّموه لأنه كان بمرأى من قومه فى مكة بعيدًا عن أهل الكتاب الذين كان مستقرهم بقرى النضير وقريظة وخيبر وتيماء وبلاد فلسطين، ولأنه جاء بنسخ دين اليهودية والنصرانية، والإنحاء على اليهود والنصارى فى تحريفهم فلو كان قد تعلم منهم لأعلنوا ذلك وسجلوا عليه أنه عقهم حق التعليم.

وأما الجهة الرابعة وهى الإخبار بالمغيبات فقد اقتفينا أثر من سلفنا ممن عد ذلك من وجوه الإعجاز اعتدادًا منا بأنه من دلائل كون القرآن منزلًا من عند الله، و إن كان ذلك ليس له مزيد تعلق بنظم القرآن ودلالة فصاحته و بلاغته على المعانى العليا، ولا هو كثير فى القرآن، وسيأتى التنبيه على جزئيات هذا النوع فى تضاعيف هذا التفسير إن شاء الله. وقد جاء كثير من آيات القرآن بذلك، منها قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: 1، 2] روى الترمذى فى تفسيرها عن ابن عباس قال: كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم و إياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم لأنهم أهل كتاب فذكره أبو بكر لرسول الله فنزل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: 1، 4] فخرج أبو بكر يصيح بها فى نواحى مكة، فقال له ناس من قريش: أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى. وذلك قبل تحريم الرهان، فلما كانت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس وأسلم عند ذلك كثير

من قريش. وقوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: 55] وقوله: ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 8] فما حدث بعد ذلك من المراكب منبأ به في هذه الآية. وقوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: 1] نزلت قبل فتح مكة بعامين. وقوله: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ﴾ [الفتح: 27] وأعلن ذلك الإعجاز بالتحدى به في قوله تعالى في شأن القرآن ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ [البقرة: 23، 24] فسجل أنهم لا يفعلون ذلك أبدًا وكذلك كان، كما بيناه آنفًا في الجهة الثالثة.

وكأنك بعد ما قررناه في هذه المقدمة قد صرت قديرًا على الحكم فيما اختلف فيه أئمة علم الكلام من إعجاز القرآن للعرب هل كان بما بلغه من منتهى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وما احتوى عليه من النكت والخصوصيات التي لا تقف بها عدة، ويزيدها النظر مع طول الزمان جدة، فلا تخطر ببال ناظر من العصور الآتية نكتة أو خصوصية إلا وجد آيات القرآن تتحملها بحيث لا يمكن إيداع ذلك في كلام إلا لعلام الغيوب، وهو مذهب المحققين. أو كان الإعجاز بصرف الله تعالى مشركي العرب عن الإتيان بمثله وأنه لولا أن الله سلبهم القدرة على ذلك لأمكن أن يأتوا بمثله لأنه مما يدخل تحت مقدور البشر، ونسب هذا إلى أبي الحسن الأشعري وهو منقول في شرح التفتزاني على المفتاح عن النظّام وطائفة من المعتزلة، ويسمى مذهب أهل الصرفة، وهو الذي قال به ابن حزم في كتابه في الملل والنحل.

والأول هو الوجه الذى اعتمده أبو بكر الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن، وأبطل ما عداه بما لا حاجة إلى التطويل به، وعلى اعتباره دوَّن أئمة العربية علم البلاغة، وقصدوا من ذلك تقريب إعجاز القرآن على التفصيل دون الإجمال، فجاءوا بما يناسب الكامل من دلائل الكمال[1].

(1) (تفسير التحرير والتنوير) - المقدمة العاشرة - الجزء الأول، ص 101 - 130.

4- العلامة الأستاذ/ محمد فريد وجدي

رد شبهات على القرآن الكريم[1]

لم تعن أمة فى العالم بكتاب سماوى أو أرضى عناية الأمة الإسلامية بالقرآن الكريم. ولم يُحَط كلام إلهى أو بشرى بمثل ما أحيطت به آياته من وسائل الحفظ والرعاية والتقديس. فقد كانت تنزل الآية منها أو الآيات فتنتقش فى صدر النبى ﷺ، فيتلوها ساعة نزولها على الآلاف من المحيطين به، فيسارعون إلى استظهارها ليتلوها تعبدًا و يصلوا بها، ولا يكتفى النبى ﷺ بذلك فيأمر كتابًا له بكتابتها، ويحتفظ بها فى داره مع أمثالها.

وقد تم نزول القرآن، فكان يحفظه كله رسول الله وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى، ومئات كثيرة غيرهم، لا يسقطون منه حرفًا. فلما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى، وخلفه أبو بكر بادر عمر فطلب إليه أن يأمر بتدو ين القرآن فى كتاب، حفظًا له من النسيان والتحريف، فكان أبو بكر يأبى ذلك قائلًا: إن شيئًا لم يفعله النبى ﷺ لا أفعله أنا. فلما حدثت وقعة اليمامة وقتل فيها من حفاظ القرآن عدد عديد أدرك أبو بكر أصالة رأى عمر، فأوعز بجمع القرآن، فحشر حفاظه وأخرج إليهم المخطوطات التى

(1) نقلًا عن المجلد الثامن، من مجلة الأزهر، سنة 1356هـ، ص 404، وما بعدها.

عملت على عهد الرسول، وأمرهم بتدوينه ونشره بين الناس، فقاموا بذلك على أتم وجه. ولم يرتفع صوت إذ ذاك بأن آية سقطت منه أو كلامًا زيد فيه، والدين فى عنفوان قوته، وحفاظ الفرقان كثيرون، ومنهم الخليفة نفسه، ولم تمض على وفاة النبى ﷺ بضعة أشهر.

ثم مات أبو بكر بعد أن مكث فى الخلافة نحو سنتين، وقام بالأمر بعده عمر، ولبث يدبر شئون الدولة نحو إحدى عشرة سنة، فتح فى خلالها سورية والعراق وبلاد الفرس ومصر وجزءًا من شمال أفريقيا. وانتشرت المصاحف المكتوبة على عهده، وأكثر الناس من حفظ القرآن، فلم ينبس أحد ببنت شفة اعتراضًا على زيادة شيء أو نقصه فى القرآن، ولا يخفى على أحد شدة الفاروق فى الدين وغيرته عليه.

فلما توفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أسندت الخلافة إلى عثمان بن عفان، وكان للمسلمين إذ ذاك إمبراطورية مترامية الأطراف، ودخل فى الإسلام ملايين من الناس، واحتاج المسلمون إلى المصاحف فكانوا يكتبونها بأيديهم لعدم وجود مطابع إذ ذاك. ولا تخفى على أحد أخطاء النسخ، فإن الناسخ مهما كان حريصًا على تحرى الأصل تبدر منه أخطاء لا يفطن إليها، ولا سيما فى عهد لم تضبط فيه قواعد الكتابة، ولم يوجد فى أحرفها نقط، ولا لألفاظها علامات لضبط النطق بها، وهو ما يعرف الآن بالشكل، فحدث فى قراءات الناس خبط، ورفع الأمر إلى أمير المؤمنين، فأمر القراء تحت رياسة زيد بن ثابت - وهو الذى كان عهد إليه أبو بكر بجمع المصحف - بكتابة أربعة مصاحف ونشرها فى الآفاق، وأمر باتخاذها مرجعًا للضبط و إحراق ما عداها.

فعل عثمان هذا وهو بين ظهرانى كبار الصحابة، وفيهم على بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الله بن عباس وغيرهم من الذين قالوا لعمر بن الخطاب: «لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا»، فما ظنك باعوجاج يرتكب ضد القرآن ؟

يهول بعض الناس أن عثمان أمر بإحراق ما يخالف مصحفه من المصاحف المنسوخة، وأى شيء فى هذا؟ أليس الإحراق وسيلة لملاشاة النسخ المحرفة تلجأ إليها الحكومات إلى اليوم؟ ألم تأمر الحكومة المصرية بإحراق عشرات الألوف من نسخ القرآن لم يحسن مصححو مطبعتها تصحيحها، فجاءت مشوبة بأخطاء كثيرة، فعمدت إلى هذه الوسيلة فى الزمن الذى نحن فيه؟

هل كان لعثمان من السلطان ما يستطيع معه أن يغتصب مصاحف كبار الصحابة المعاصرين له فيحرقها، ويبدلهم منها نسخًا أخرى فيها ما يعتقدون أنه تحريف؟

أرأيت كيف تثور البراكين فتغمر فى حممها المدن، وتحرق بموادها الملتهبة الحرث والنسل، وكيف تعصف الأعاصير الهوجاء فتدك كل بناء، وكيف تهيج الزلازل فتجعل عالى الأرض سافلها، وتدك شم الجبال؟ كل هذا كان أهون منظرًا إذا حدَّث جبار نفسه بتحريف القرآن فى أمة تعتبره روحها المدبر، ودستورها المهيمن، ووسليتها التى تصل بها إلى الله، وهم رجال وغى ومغاوير كفاح، يعتبرون الموت فى سبيل الدين حياجة دونها كل حياة؟

وإذا سلمنا جدلًا بأن مصحف عثمان كان يخالف النسخ الصحيحة فى بعض المواطن، فلم يلبث عثمان فى الخلافة إلا نحو اثنتى عشرة سنة، وجاء بعده خليفة من أعلى الخلفاء كعبًا فى الدين والورع والمحافظة على سير النبى ﷺ،

فلم لم يبطل مصحف عثمان، وينسخ صورة صحيحة للقرآن وقد كان يحفظه كله ولديه مصحف يتلوه فيه؟

إن مسألة الزيادة فى كتاب أو النقص منه لا يعقل أن تحصل فى كتاب كالقرآن تتعبد أمة برمتها بتلاوته، وتصلى بآياته، وتفصل فى جميع شئونها بأحكامه ومقرراته، وليس لديها كتاب غيره، ولم يوكل أمره إلى جماعة أو طبقة من الناس تتحكم فيه برأيها، ولكنه كان حقًا مشاعًا للناس كافة، يتولونه بالحفظ والرعاية. فمثل هذا الكتاب إن اعتراه تبديل أو تحريف كانت تتعدد نسخه، أو تتخالف آياته، ولا تستطيع أية حكومة مستبدة أن تبيد جميع ما يخالف هواها من صوره. والحكومة الإسلامية لم تكن استبدادية، وقد تداول الخلافة فى صدر الإسلام أربعة رجال أقروا كلهم صورة واحدة من القرآن، ولم يرد عنهم أن بعضهم أبطل نسخ بعض، ولا ورد عن آلاف الصحابة أن واحدًا منهم أبرز صورة زعم أنها أصح من غيرها. فهل تآمرت الأمة الإسلامية كلها على التسامح فى تحريف كتابها إلى هذا الحد ومكانه منها كما عرفت؟

حدثنا التاريخ أن الأناجيل قد تعددت حتى بلغت أكثر من سبعين، فأوعز الإمبراطور قسطنطين[1] إلى الكهنة أن يرتضوا صورة واحدة له، فاجتمعوا فى مؤتمر وقرروا أن يعتمدوا أربع صور منه هى الموجودة إلى اليوم. فهل حدثنا تاريخ المسلمين عن مثل هذا التعدد لصور القرآن؟

يقولون نعم، وهى التى أمر بإحراقها عثمان. نقول إن التى أمر بإحراقها

(1) هو قسطنطين الكبير (280 - 337م) الذى عقد فى عهده مجمع نيقية المسكونى سنة 325م.

عثمان هى النسخ التى أصابتها آفة الاستنساخ، وهذه الآفة لا تزال موجودة إلى يومنا هذا، فما من كتاب يعرض للاستنساخ إلا وقعت فيه أخطاء جمة، لا دواء لها إلا تحرير نسخة صحيحة للنقل منها و إحراق ما عداها، كما حدث على عهد عثمان، وكما يحدث فى كل زمان ومكان.

وقد رأيت استحالة استبداد عثمان بالقرآن على عهد كان أكثر أصحاب رسول الله ﷺ أحياء، وكانوا أشد ما يكونون اشتغالًا بتلاوة القرآن وعملًا به. وله حفاظ منتشرون فى جميع أرجاء المملكة الإسلامية. فكيف يعقل أن يكون عثمان قد تعمد تحريف الكتاب فى هذه البيئة الغاصة بحفظته وقارئيه، وكلهم يفدونه بأرواحهم، و ينافحون عن حماه بأشد مما ينافحون عن أنفسه وأعراضهم؟

الدواعى التى تدفع لتحريف الكتب السماوية

إذا وقع التحريف فى كتاب سماوى فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بواحد من أربعة أسباب أو بأكثر من سبب منها، وهى:

(1) ضياع أصل الكتاب.

(2) غلو فى الدين يحمل على تأليه صاحب الدعوة، أو رفع درجة أسرته، وأصحابه وحفظة دينه إلى ما فوق مستوى الناس، ومنحهم حقوقًا وامتيازات ليتمكنوا بها من تسخير النفوس لإراداتهم.

(3) النص على حصر السلطان الروحى فى طائفة معينة، أو تحديد شكل الحكومة وجعلها ثيوقراطية تحت تصرف رجال الدين.

(4) تعمد إفساد الدين بالنقص من كتابه والزيادة عليه، بحيث يفضى ذلك إلى زهد النفوس فيه، وكراهتهم له.

هذه هى الدواعى التى تحمل على تحريف الكتب السماوية، وكلها ممتنعة بالنسبة للقرآن.

امتناع السبب الأول من أسباب التحريف:

أما امتناع السبب الأول، فإن أصل القرآن كان مكتوبًا ومحفوظًا فى دار النبى ﷺ، وكان مئات من الناس يحفظونه، فلما أريد جمعه أتوا بهذه المخطوطات وقابلها الكتاب بما حفظوه فى صدورهم وجعلوا ما كتبوه مصحفًا، فاستنسخه ألوف من الناس وحفظوه ونقلوه إلى جميع عواصم الملك الإسلامى. فهل توجد فى العالم وسيلة تفوق هذه الوسيلة للتحقق من مطابقة صورة كتاب لأصله؟ اللهم لا.

أين هذا مما حدث لما سبقه من الكتب؟ فقد ضاعت أصولها، وشتت أهلها فى الأرض، ومزقوا كل ممزق. فالتوراة ضاع أصلها الأول ثم جمعت أسفارها من هناك وهناك، واشتد اختلاف الناس فيها حتى إن توراة النصارى تخالف توراة اليهود مخالفة جوهرية.

وكذلك كان حال الأناجيل، فقد ضاعت أصولها ثم نقلت عن ترجمة يونانية جدت لها بعد آماد طويلة.

فهذه الكتب يعترف أهلها أنفسهم بأنه قد لحقها ما لحقها، ولكنهم يعتذرون عنه بأنه لم يعد على الروح التى أودعها مجموعها. فقد جاء فى كتاب (محاورة فى الوحى) قول مؤلفه: «وليس من ضرورة للاعتقاد بأن جميع

ما دار من مخاطبة الله للإنسان، قد دون فى الأسفار: (أولًا) لأن البرهان على ذلك متعذر. و(ثانيًا) لأنه يكفى الاعتقاد بأنه دون ما فيه كفاية. وهذا الرأى المعروف برأى «الاقتصاد فى الوحى» يجلو لنا الحقيقة».

وقال فى موضع آخر من ذلك الكتاب:

«إن من تعاليم التوراة ما لا يجوز مسه لئلا يفسد جوهرها، ومنها ما يسبب مسه ضررًا باختلاف أهمية ذلك الجزء، ومنها ما لا يؤثر فيه المس أبدًا حتى إنه و إن حذفت كلماته أو جمله يبقى سليمًا صحيحًا، ومن هذا القبيل الكلمات والعبارات التى سقطت فى أثناء نسخ التوراة».

ولكنا معشر المسلمين لا نقول «الاقتصاد فى الوحى»، ونرى أن كل ما أوحى إلى الرسول مما أمر بتلاوته يجب أن يكون ماثلًا فى المصحف. ولدينا الدليل القاطع على أن كل ما أوحاه الله إليه قد دون وحفظ سليمًا من كل تحريف إلى يومنا هذا، على أسلوب من التدقيق والضبط لا يعقل أن يكون أبلغ منه فى عالم النقل الصحيح.

امتناع السبب الثانى للتحريف:

وأما امتناع السبب الثانى لتحريف القرآن، وهو الغلو فى الدين، فلا يحتاج إلى دليل، فإن نصوص الكتاب تنطق صراحة بالنهى عن الغلو فى الدين. قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: 171].

ولم يكتف الكتاب بهذا بل قطع الذرائع دون كل محاولة للغلو، فذكر أن المرسلين لا يمتازون عن سواهم إلا بالوحى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ [النحل: 43].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [الكهف: 110].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: 93].

فالكتاب كما ترى لم يدع متسربًا للغلو فى ذات الرسول من أية ناحية من النواحى فظل أكرم نعت له فى صلاة المسلمين أنه عبد الله ورسوله.

وأما عن أسرة النبى ﷺ فلا توجد آية واحدة فى الكتاب تميزهم عن الناس. وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: **«اعملى يا فاطمة فإنى لا أغنى عنك من الله شيئًا»** وقال: **«والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»**.

وقد أقاد النبى ﷺ من نفسه، فإنه لما شعر بدنو أجله جمع الناس وقال لهم: من كنت قد أسأت إليه فليأت وليقتص منى.

ولما شكا يهودى عليًا كرم الله وجهه، دعاه عمر أمير المؤمنين ليقاضيه أمام خصمه، فلما أقبل قال له: اجلس يا أبا الحسن، فغضب على، فسأله عمر: أغضبت لمساواتك بخصمك؟ قال: لا، ولكن لتمييزك إياى عنه بتكنيتى والتكنية تعظيم!

أظن أنه لا يوجد فى تاريخ العالم ما هو أبلغ من هذا فى احترام مبدأ المساواة فى الحكم، وفى نكران الذات أمام هذا المبدأ.

فإذا كانت هذه المساواة واجبة فى حق بنت رسول الله وابن عمه، فمن تظن أن ينال هذه الخطوة بعدهما؟

وقس على هذا معاملة العلماء، فلم يُرفع أحدهم على عامة الناس فى حكم، ولم يستثن من تكليف بدنى أو مالى، بل قد رفعت الدعاوى على أمراء المؤمنين من صغار رعاياهم أمام القضاة فلم يحابوهم وحكموا عليهم.

امتناع السبب الثالث للتحريف:

السبب الثالث لتحريف الكتب السماوية هو النص على حصر السلطان الروحى فى طائفة معينة من الأمة، أو فى جعل الحكومة ثيوقراطية تحت تصرف رجال الدين.

هذا السبب لا ظل له فى الإسلام، لأن الكتاب نص على خلافه فى غير موطن منه، فجاءت حكومة المسلمين ديموقراطية حرة، قال عليه الصلاة والسلام: «اسمع وأطع ولو لعبد حبشى كأن رأسه زبيبة».

وقد ولى النبى بلالًا على المدينة وكان مملوكًا حبشيًا، وفيها أجلاء الصحابة وكبار رجالات الأمة.

والإسلام لا يعترف بوجود طائفة من الأمة يجب أن تودع السلطان الروحى دون سائر الطوائف، بل ليس فى الإسلام سلطان روحى إلا للكتاب والسنة.

لذلك كان الأئمة الأولون الذين يرجع إليهم فى فهم الدين، أكثرهم من الموالى، أى الذين كانوا أرقاء أولاد آباء كانوا أرقاء. قال العلامة السخاوي[1]

(1) السخاوى، شمس الدين محمد (831 - 902هـ، 1428 - 1797م). من كبار المؤرخين=

فى شرح ألفية الحديث للعراقى: إن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك[1] قال للإمام المحدث الزهرى يومًا: «من يسود أهل مكة؟ قال: عطاء[2]. قال: بم سادهم؟ قال الزهرى: سادهم بالديانة والرواية. قال هشام: نعم، من كان ذا ديانة حقت الرياسة له. ثم سأله الخليفة عن اليمن، فقال الزهري[3]: وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة، فأخذ الزهرى يعد له أسماء سادات هذه البلاد، وكلما سمى له رجلًا كان هشام يسأله: هل هو عربى أم مولى؟ فكان الزهرى يقول: مولى، إلى أن أتى على ذكر النخعي[4]، فقال: إنه عربى، فقال هشام، الآن فرجت عنى، والله ليسودن الموالى العرب ويخطب لهم على المنابر»!

من هنا ترى أن الإسلام لم يهب السلطان الروحى لطائفة من الطوائف، ولكنه دعا إلى العلم وتركه حقًا شائعًا بين المسلمين كافة أحرارهم وأرقائهم،

= وعلماء الأدب والحديث، من أشهر آثاره: (الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع)، و(ذيل لتاريخ المقريزى)، (وشرح ألفية الحديث للعراقى) - الحافظ، عبد الرحيم (806هـ، 1404م)، وللسخاوى: (الألفية) فى مصطلح الحديث، و(الألفية) فى غريب القرآن الكريم.

(1) هشام عبد الملك، (71 - 125هـ، 690 - 743م)، عاشر الخلفاء الأمويين، حارب البيزنطيين فى أوروبا، وبلغت الدولة فى عهده أقصى اتساعها.

(2) عطاء بن أبى رباح (27 - 114هـ، 647 - 732م). من التابعين وأجلاء الفقهاء، يمنى، نشأ بمكة، وكان مفتيها ومحدثها.

(3) طاوس بن كيسان، أبو عبد الرحمن (33 - 106هـ، 653 - 724م). من أكابر التابعين والفقهاء والمحدثين والزهاد، يمنى، توفى وهو حاج، وصلى عليه هشام بن عبد الملك، واشتهر مع أبى ذر والثورى بأنهم أكثر الناس تجنبًا لمخالطة السلاطين.

(4) النخعى، إبراهيم بن يزيد (46 - 96هـ، 666 - 715م)، من أكابر التابعين وأئمة الفقه وأصحاب المذاهب الفقهية وحفاظ الحديث.

بيضهم وسودهم، فسبق إليه من سبق، فلم يسأل الناس عن أصلهم، وهذا ما ليس له مثيل فى أمة غير الأمة الإسلامية.

وقد طبع الله هذا المبدأ السامى بطابع قرآنى عالى القدر، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13]، فجعل التفاضل بالتقوى لا بالجنس ولا باللون ولا بالانتساب لطائفة من الطوائف. وبذلك سقط السبب الثالث من أسباب التحريف التى عددناها.

السبب الرابع لتحريف الكتب السماوية:

أما السبب الرابع وهو تعمد إفساد الدين بالنقص من كتابه والزيادة فيه، هذا أكثر امتناعًا بالنسبة للقرآن الكريم من كل الأسباب السابقة، فإن الذين جمعوه من المخطوطات، وقابلوه على محفوظاتهم منه، كلهم من المشهود لهم بالتقوى والصلابة فى الدين، ناهيك بقوم آثروا حفظ الكتاب كله فى صدورهم فهذا الجهد الجاهد لا يكون إلا من نفوس استوعب حب الدين كل شعورهم، واستولى بجلاله على قلوبهم، فلا يعقل أن يصدر من هؤلاء تحريف للكتاب بقصد إفساده وتزهيد الناس فيه.

ثم إن ما كتبوه عرضوه على أبى بكر وعمر وجميع كبار الصحابة، فلم يروا فيه ما ينكرونه منه، وكلهم كان يحفظه أو يتلوه بدون انقطاع.

فلما استكتب عثمان منه أربع نسخ صحيحة ليوزعها فى الآفاق، تحرى القراء أن يكون مطابقًا لمصحف أبى بكر، وكان ذلك تحت رقابة أصحاب رسول الله ﷺ.

ولم يظهر فى ذلك العهد ما يخالف مصحف عثمان، وتولى الخلافة بعده

على بن أبي طالب، فلم يحدث أقل تغيير فيه، ولو كان ينقص أو يزيد حرفًا لما أغضى عنه الإمام ولا أغضى عنه أحد من الذين أحدثوا الثورة على عثمان.

نسخ الأحكام ونسخ تلاوة بعض الآيات

نزل القرآن نجومًا على حسب الحوادث الطارئة، ولم ينزل دفعة واحدة. ونظرًا لأنه يتولى تأليف أمة جديدة على نظم وأصول نهائية. كانت الحاجة ماسة إلى مسايرة الأطوار التى تدخل فيها، والتدرج معها فى جميع الأدوار التى تبلغها فى حياتها الاجتماعية.

من هنا كانت الضرورة قاضية بنسخ بعض الأحكام بقصد تخفيفها أو تشديدها على مقتضى الأحوال. واقتضت حكمة الشارع أيضًا أن تبقى تلاوة بعض الآيات الدالة على تلك الأحكام المنسوخة، وأن ينسخ تلاوة بعضها الآخر، وفى القرآن نسخ لتلاوة بعض الآيات مع بقاء أحكامها معمولًا بها.

وهذه الأمور أرشد إليها النبى ﷺ نفسه، ودون المصحف فى عهد أبى بكر مع مراعاتها بالدقة.

فمن أمثلة نسخ الحكم دون نسخ تلاوة الآية الدالة عليه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ ﴾ [البقرة: 240].

فقضت هذه الآية بأن مدة تربص المرأة بنفسها بعد موت زوجها يجب أن تكون حولًا كاملًا على نفقة الزوج. فنسخ هذا الحكم وجعلت مدة التربص أربعة أشهر وعشرًا كما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: 234].

ومن أمثلة نسخ الحكم ونسخ تلاوة الآية الدالة عليه ما روى عن عائشة أن القرآن جاء فى الرضاع بعشر معلومات، ثم نسخن بخمس معلومات. فالعشر مرفوعة التلاوة والحكم جميعًا، والخمس مرفوعة التلاوة باقية الحكم.

ومنها ما روى أن سورة الأحزاب كانت بمنزلة السبع الطوال أو أزيد، ثم نسخت تلاوة آيات كثيرة منها.

أما أمثلة الآيات التى نسخت تلاوتها وبقيت أحكامها، فكآية الرجم هى «الشيخ والشيخة إذا زنيًا فارجموهما ألبتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم» وما روى من قوله تعالى: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[1].

فهذه الأمور كلها كانت معلومة عند الصحابة، ومضبوطة إلى حد أنه لم يحدث فيها خلاف. ولو كانت تحتمل أقل خلاف لحدث ولملئت الأسفار بأخباره.

لم يكن كتاب الإسلام محتكرًا فى يد طائفة من الطوائف، فيسهل عليها التلاعب به، ولكنه كان حقًا للناس كافة. وقد اختلف المسلمون فى كل شيء إلا فى هذه المسألة، فلم كان ذلك؟ ألأنهم كانوا أكثر عناية بالأشياء الثانوية منهم بالقرآن، وأنت تعلم أنه كان متعبدهم ودستورهم، بل روحهم التى بها يتحركون؟

(1) حول معنى النسخ فى القرآن - هناك خلاف كبير، ومن أراد تحقيق هذا المبحث، ومعرفة معنى النسخ عند القدماء وعند المحدثين، ورأى علماء الأصول، فليرجع إلى كتابنا (حقائق وشبهات حول معنى النسخ فى القرآن الكريم)، طبعة القاهرة، دار السلام، 1431، 2010م.

أما رأيت إلى أى حد اختلف المسلمون فى أحاديث رسولهم، حتى رفضوا منها مئات الألوف باعتبار أنها موضوعة أو ضعيفة، فهل كان المسلمون أشد اعتدادًا بأحاديث رسولهم منهم بكلام ربهم؟

شبهات خصوم الإسلام على القرآن

جاء فى كتاب (الوحى الجديد) لأحد دعاة بعض الملل قوله فى صفحة 44.

(أولًا) إنه من المستحيل أن يكون القرآن الحالى حاويًا لجميع ما أنزل، بل إنه من المؤكد تاريخيًّا أنه قد ذهب منه جانب ليس بقليل.

(ثانيًا) من المستحيل إقامة البرهان على أنه طبق ما نطقت به شفتا محمد تمامًا، بل إنه فى آيات عديدة منه اختلافات مدهشة، ولا يعرف إلا الله ما هو النص الصحيح. انتهى.

نقول: أما عن الأمر الأول فإننا معشر المسلمين نعترف بأن المصحف لا يحوى جميع ما أنزله الله على محمد. ولكن جميع ما سمح بأن ينقل فى المصاحف ويتلى تعبدًا. فقد علمت فى فصل متقدم أن النبى ﷺ نبه على أن آيات كثيرة منه قد نسخت تلاوتها فلم تدون. فماذا يكسبه الخصم من وراء إعلانه شيئًا هو عند المسلمين من المعلومات الأولية؟ لعله يريد بذلك أن يؤثر فى عقول العامة، ولكن العامة يلجأون عادة إلى علمائهم فيفهونهم الأمر على وجهه، فتبطل الشبهة، ويبقى عارها لاصقًا بمن أوردها.

وأما عن الأمر الثانى فهو يريد منه اختلاف القراءات. وهذه القراءات وجدت على عهد النبى ﷺ فأقرها، وليس فيها ما يوجب اختلافًا فى العقائد ولا فى الأحكام، وسترى تفصيل ذلك عند كلامنا على ما أورده منها. وإن

شيئًا وجد على عهد صاحب الرسالة فأقره، وعنى المسلمون بتدوينه وضبطه، لا يجوز أن يتخذ اليوم شبهة للتشكيك فى عبارات القرآن.

هل اختلاف هذه القراءات تمس جوهر العقائد، أو أصول العبادات، أو دستور المعاملات؟

لم يقل أحد ذلك فى الإسلام إلى اليوم، ولم يثر بينهم شقاقًا ولا جدالًا، ولا كان سببًا لتشكك أحد ولا لارتداده. فكيف يثار هذا الأمر اليوم على هذا الوجه، ويفهم ذلك الكاتب منه ما لم تفهمه أمة برمتها فى مدى أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، على شدة عنايتها بالقرآن، وبحث كل صغيرة وكبيرة فيه؟

ويقول كاتب رسالة (الوحى الجديد) فى صفحة 45:

«إننا نعلم تمامًا بشهادة زيد بن ثابت التى لا ريب فيها، أنه لم تدون جميع السور والآيات التى سمعت من فم محمد، بل إن كثيرًا منها حفظ فى صدور الناس، ومرت سنون عديدة قبل أن أُمر زيد بتدوينها، نقلًا عن ذاكرة أولئك القراء فكيف تأمن على الحقيقة من ذاكرتهم؟».

ونحن نقول: إن القرآن كان قد كتب كله على عهد رسول الله ﷺ كما سمع من فمه، وإن ما كتب حفظ فى داره، وكان مئات من الناس قد حفظوه كله، ومنهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى، فلما لحق رسول الله بالرفيق الأعلى لم تمض إلا بضعة أشهر حتى دعا أبو بكر القراء وعلى رأسهم زيد بن ثابت وأمرهم أن يدونوا القرآن فى مصحف، سلمهم تلك المخطوطات ليرجعوا إليها إن اختلفوا فى شيء.

هذا ما شهدت به أمة برمتها، فكيف يقول كاتب الرسالة: إن القرآن لم

يكتب كله على عهد النبى؟ وما معنى قوله مرت سنون كثيرة قبل أن أمر زيد ابن ثابت بكتابته، ولم تمض عليه غير بضعة أشهر، ولم يحكم أبو بكر الذى كتب القرآن على عهده أكثر من سنتين وأشهرا. فإن هى هذه السنين يرسل بها كشبهة على سلامة القرآن وليس منها فى شيء؟

إن التى مرت عليها سنون كثيرة قبل أن تدون هى أحاديث النبى ﷺ، وهى تلى القرآن فى الدرجة، و مع ذلك فقد حدث فيها بين العلماء من الاختلاف ما لا يسع المقام ذكره، حرصًا على ألفاظ النبى ﷺ أن تبدل أو يزاد عليها أو ينقص منها، فهل كان حرصهم على الأحاديث النبوية أشد من حرصهم على كلام الله، فيتركوه يحرف أمام أعينهم ولا يحدثوا حول هذا التحريف شغبًا ولا اضطرابًا، و يقروه على ما كتب لا يختلفون فيه، ولا يصطخبون حياله؟

هذا أمر لا يسيغه أقل الناس فهمًا، فكيف يسيغه كاتب تلك الرسالة و يرسل به كشبهة على سلامة القرآن وليس منها فى شيء.

وقال فى صفحة 47:

«إن ابن مسعود هذا، (وقد نعته بأنه أعلم الناس بالقرآن)، لم يكن ليعتبر نسخة عثمان صحيحة، و إنه رفض أن يسلمه نسخته ليحرقها، و إنه أشار على أهل العراق ليكتموا نسخهم قائلًا: «يا أهل العراق اكتموا المصاحف التى عندكم وغلقوها». و إنه حذف السورة الأولى (أى الفاتحة) والسورتين الأخيرتين من نسخته، بحجة أن تلك السور ليست من كتاب الله».

نقول هنا: يمكن أن يتساءل متفهم: أى مصلحة للذين جمعوا القرآن أن يضعوا فيه ثلاث سور قصار ليست منه فى شيء؟ أرموا بذلك لغرض من

الأغراض التى تحمل النفوس السافلة على التحريف وليس فيها ما يشوه جمال القرآن، ولا ما يتناقض والحكمة التى أتى بها؟

وهل يعقل أن يضع المجرمون فاتحة لكتاب، وأن يذيلوه بسورتين صغيرتين، فى أمة تتعبد بتلاوة ذلك الكتاب، وفيها ألوف من الرجال الذين حضروا وحيه وكتبوه، وصحبوا رسولهم فى جميع أدواره؟

لو كان المدسوس فيه آية من سورة طويلة أو كلمة تقلب المعنى وتوجهه إلى ناحية أخرى، لهان الخطب على العقل، ولكانت الشبهة تحتاج إلى شيء من العلاج، ولكن والمدسوس، ثلاث سور صغيرة، فى أظهر مكان منه فأمر لا يحتمل النظر، فضلًا عن الدحض.

وهل يعقل أن يحدث مثل هذا الأمر فلا يثير صخبًا، ولا يهيج غضبًا، ولا يستدعى شغبًا، ويمر كأنه لم يكن فى أمة دستورها هذا الكتاب وحده، ومتعبدها سوره وآياته؟

وكيف سكت عنه ابن مسعود نفسه، فلم يسمع له فيه زئير يدوى فى العالم الإسلامى دوى الرعود القاصفة؟ لعلك تقول: خشى بأس عثمان. فقد قتل عثمان، وابن مسعود حى يرزق، فلم لم ينبه المسلمين إلى هذه الجناية ويلجأ إلى خليفته ليمحو من المصاحف هذه الزيادة التى ليست منه؟

ما الذى حمل المسلمين، والدين لا يزال فى نضرته، وكتابه مرجعهم فى جميع شئونهم، ومتعبدهم فى صلواتهم، على أن يهملوا قول ابن مسعود ولا يرفعوا به رأسًا؟ ألأنهم ما كانوا يبالون بسلامة القرآن من الزيادة، أم لأنهم كانوا يخافون بطش الذين حرفوه، وقد دالت دولتهم، وتلتها دولة أخرى على رأسها على، أقل ما يقال فيها إنها كانت خلافة أجمع المسلمون على أنها كانت راشدة؟

ما هذا الإجماع كله على عدم الاكتراث لقول ابن مسعود، وهو ينبه إلى أمر جلل كان يكفى خيال منه أن يثير فتنة تدع الحليم حيرانًا؟

يقول خصومنا: إن ابن مسعود كتب لأهل العراق أن يحتفظوا بنسخهم، ولا يسلموها لعمال عثمان بحجة أنها أصح من نسخته، وهذا معناه أن ابن مسعود كان بمحل يستطيع فيه أن يعارض أمر أمير المؤمنين، وأن أهل العراق كانوا يصدرون عن رأيه، فهل صدعوا بأمره، واحتفظوا بنسخهم؟ إن قيل: نعم، فأين هى؟ ولم لم يرو لنا التاريخ كلمة عن مخالفتها لنسخة عثمان؟ و إن قيل: لا، فكيف يعقل أن يفرط أهل قطر عظيم كالعراق فى كتابهم إلى هذا الحد، ولم تبد منهم أية حركة من مقاومة؟ أكان أهل العراق من خور العزيمة فى هذه الدركة، وهم الذين انتدبوا لخلع عثمان فحاصروه فى بيته، ثم لما خشوا فتنة تهب من أهل الشام من أجله قتلوه وولوا عليًا مكانه؟

وقد أحصى أهل العراق على عثمان عيوبًا جمة ليس منها أنه عمد إلى تحريف القرآن، وكانت هذه الحجة تكفى وحدها فى صرف القلوب عنه، ودفعها لارتكاب أشد ضروب القسوة ضده.

و إذا صح أن ابن مسعود كتب لأهل العراق أن احتفظوا بمصاحفكم، فلم لم يفاتح أهل المدينة فى هذا الأمر، وهو بين ظهرانيهم، و ينبههم إليه، وفيهم مئات من كبار أصحاب رسول الله ﷺ؟

و إذا كان فاتحهم فيه فهل يتفق أن يجمعوا كلهم على رفض قوله، وهل يعقل ألا يكون فيهم واحد يعرف ما يعرف هو من أن الفاتحة والمعوذتين ليست من القرآن فيشاركه فى رأيه؟

لو كان ابن مسعود هذا بعد عهد النبى ﷺ بجيل أو جيلين، واكتشف

مصحفًا أو مصاحف ليس فيها الفاتحة ولا المعوذتان، ونبه أصحابها على أن الذين جمعوا القرآن على عهد عثمان زادوها فى القرآن، وليست منه، لكان قول ابن مسعود يسترعى النظر بعض الاسترعاء، أما وهو من أهل الصدر الأول وحوله ألوف من أهل ذلك العهد، فلا يعقل أن يذهب قوله هباء منثورًا كأنه لم يكن، ويقبل الناس كافة نسخة عثمان حتى أعدائه، والكارهين لولايته.

إن هذه القولة المنسوبة لابن مسعود، ويعدها خصومنا شبهة على القرآن، لا يمكن التسليم بنسبتها إليه، جريًا على أسلوب النقد الإسلامى. فإن المسلمين لا يقبلون قولًا منسوبًا لنبيهم إلا بعد التحقق من حالة رواته العقلية والنفسية والدينية، وقد رفضوا مئات الألوف من الأحاديث المنسوبة إليه وعدوها موضوعة، وقد كذب الناس عليه فى حياته، حتى قال: «من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» فهل يقبل المسلمون أو المنصفون من غيرهم، قولة من هذا الطراز تقوم ضدها كل ما ذكرناه من المضعفات والمشككات؟

إننا نحمد الله على أن ادعاء الزيادة فى القول المعزو إلى ابن مسعود جاء خاصًا بفاتحة الكتاب والمعوذتين، وهى السور التى لم يوجد فى المسلمين منذ نشأوا إلى اليوم من لا يحفظها ويصلى بها، وهى لا تعدو الدعاء بالهداية والتوافق، والاستعاذة من الشرور وعواملها المختلفة، فأى مصلحة جناها محرف القرآن بزيادة هذه الأدعية والاستعاذات به؟

يقول العامة: إذا سرقت فاسرق جملًا، يريدون إذا سمحت لك نفسك أن تحطها إلى دركة السرقة فاعمد إلى أثمن الأشياء وأجلها، لا إلى أصغرها

وأحقرها، وهذا الذى سول له كفره أن يحرف كلام الله لم لم يعمد إلى أمر جلل فيدسه على الكتاب الإلهى، واكتفى بوضع فاتحة صغيرة له وخاتمتين؟

وهل يعقل أن من يريد تحريف الكتاب الإلهى لأمة، بالزيادة عليه، يضع تلك الزيادة فى أوله وآخره بحيث يراهما أقل الناس عناية به، أم يضعها بحيث تختفى على السواد الأعظم من الناس؟

هل يعقل أن المسلمين الأولين الذين كان شغلهم الشاغل القرآن، يبلغون من الغفلة أن يزاد فى أوله وآخره ما ليس منه فلا يدركوه؟ أو أن يكونوا من قلة الاكتراث بسلامة القرآن بحيث يتركون هذه الزيادة لتشيع فى الناس، حتى يأتى بعض خصوم الإسلام بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنًا فينبه أخلافهم إليه؟

اللهم إن كان قول يصح أن يضحك الثكالى وينسيهن مصابهن فهو هذا، وإن كانت شبهة يكفى فى دحضها أن تورد بدون تعليق عليها فهى هذه!

وقال فى صفحة 47:

«إن ملايين المسلمين فى بلاد العجم يعزون كلا الزيادة والنقص إلى عثمان، ويقولون إنه حذف كثيرًا من الآيات فى مدح على، فضلًا عن سورة كاملة تركها تدعى سورة النورين. وقد طبعناها تذييلاً لهذا الكتاب. ونحن لا نثبت صحة هذه السورة، فقط نقول إن أمرًا كهذا يبعث على الريبة ويبين ضعف الحجة المشهورة: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ولا يخفى أن عليًا كابن مسعود أبى أن يسلم نسخته إلى عثمان لينقحها بحجة أنها كانت كاملة».

نقـول: يدعى الكاتب أن (ملايين) من المسـلمين فى بـلاد العجم يعزون إلى عثـمان أنه حـرف القرآن. وهذا ادعاء لادليل عليه. فإن الإيرانيين سـنية وشـيعة يعتبرون القرآن الكريم منزهًا عـن كل تحريف. ولكن هنالك بقية مـن الرافضة، لا يتجاوز عددهم بضعة ألـوف، كان آباؤهم قد غلوا فى حق على حتى ادعوا أن الله حل فيه، وسجدوا له، فنهاهم فلم ينتهوا فأمر بقتلهم. فـإذا كان هنالك أخلاف لهـؤلاء الغلاة فإنهم لا يقولـون: بتحريف القرآن، ولكنهم يؤولون بعض آياته لمصلحة مذهبهم.

فإن كابر كاتب هذه الشبهة فى ذلك فليذكر لنا ما قالوه فى هذا الشأن من بعض كتبهم المطبوعة، أما إرسال القول جزافًا بغير دليل فلا يقبل منه.

أما السـورة التى ادعى أنها كانـت موجودة فى القـرآن، وحذفها عثمان، وقـال إنه طبعهـا فى ذيل رسـالته، فيكفينا أنه قد شـك هو نفسـه فى أنها من القرآن، وهو لم يشـك إلا لأنه يعلم أن رجلًا من شـيعته قد وضعها ليشـكك فى الفرقان.

وليـت ذلـك الداعى لم يقدم على مـا فعل؛ فإنه أثبت بدليل محسـوس أن القرآن نسـيج وحده، وأن مدعى الإتيان بمثله يضطر للأخذ منه، و إلا عجز عن محاكاته ولو ظاهرًا. وذلك أن تلك السـورة ليسـت بشيء سوى عبارات قرآنيـة أخـذت من سـور متفرقة، وصيغـت صياغة مزورة، فجـاءت دليلًا محسوسًـا عـلى أن من أقدم عـلى هذا التزوير قـد أقام حجـة قاطعة على أن القرآن لا يقلد بحال من الأحوال.

و إليك عبارات من تلك السورة، وهى تقع فى نحو صفحة ونصف صفحة من هذه المجلة:

{يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين أنزلهما يتلوان عليكم آياتي ويحذرانكم عذاب يوم عظيم. نوران بعضهما من بعض وأنا لسميع عليم. إن الذين يوفون بعهد الله ورسوله في آيات لهم جنات نعيم. والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدوا الرسول عليه يقذفون في الجحيم. ظلموا أنفسهم وعصوا لولي الرسول (يريد عليًا) أولئك يسقون من حميم. إن الله الذي نور السموات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة والرسل وجعل من المؤمنين أولئك من خلقه يفعل الله ما يشاء لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. قد مكر الذين من قبلهم برسلهم فأخذتهم بمكرهم إن أخذي شديد أليم}.

يرى القارئ مما مر أن الذي زور هذه السورة قد أتى بعبارات قرآنية وحشر بينها من كلامه، فكانت من السخف والتقلقل بحيث ينبو عنها الطبع، ويدرك الفرق البعيد بين الكلام الإلهي المعجز وكلام البشر الركيك.

وإلى القارئ نموذجات أخرى من ركاكات هذه السورة الملفقة:

{يأيها الرسول بلغ إنذاري فسوف يعلمون}

{مثل الذين يوفون بعهدك أني جزيتهم جنات النعيم}

{وإن عدوهم إمام المجرمين}

{وإن عليا لمن المتقين}

{يأيها الرسول قد أنزلنا إليك آيات بينات فيها من يتوفه مؤمنًا ومن يتوله من بعدك يظهرون}

{ولقد أرسلنا موسى وهرون بما استخلف، فبغوا هرون، فصبر جميل}

{فاصبر فسوف يبلون: ولقد آتينا لك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين. وجعلنا لك منهم وصياً لعلهم يرجعون}

{إن علياً قانتا بالليل ساجداً يحذر الآخرة ويرجو ثواب ربه، قل هل يستوى الذين ظلموا وهم بعذابي يعلمون}

{إنا بشرناك بذرية الصالحين. وإنهم لأمرنا لا يخلفون}

{وعلى الذين سلكوا مسلكهم منى رحمة وهم فى الغرفات آمنون}.

هذه نماذج من تلك التلفيقات المضحكة، فمن يبلغ مرتكبها أن تحدى القرآن لو كان من هذا الضرب لاستطاع تلاميذ المدارس الأولية أن يأتوا بسورة بل سور من مثله؟ ولكن من كانت فى رأسه مسكة من عقل يحجم عن مثل هذا الهذر، ويعرف أن هذا السلاح المفلول لا يقتل إلا صاحبه المسكين!

ولو كانت معايير البيان عند أصحابنا هو ما رأينا، فإننا نترفع عن حوارهم، لولا أنهم لا يتصدون إلا للغفل، والجاهلين، فإن سكتنا خيل لهم أننا عجزنا عن رد كيدهم عليهم، وما يكيدون إلا أنفسهم وما يشعرون.

وقد قال كاتب الرسالة فى شبهته هذه: «ولا يخفى أن عليًا - كابن مسعود - أبى أن يسلم نسخته إلى عثمان لينقحها بحجة أنها كانت كاملة».

نقول: إذا ثبت أن عليًا لم يسلم نسخته إلى عثمان بحجة أنها كانت كاملة، فمعنى كاملة أنها كانت مطابقة لنسخة عثمان من كل وجه، وإلا فما الذى كان يمنعه أن يحاج عثمان فى أمر نسخته التى يدعى الخصم أنها كانت محرفة؟

لعلـه يدعى أنه لم يفعـل ذلك اتقاء بطش عثمان، فنسـلم له ذلك جدلًا، و إن كان عثـمان فى حاجـة إلى حمايـة على، ونقول: فما الـذى كان يمنع عليًا وقد أفضت إليه إمارة المؤمنين أن يأمر بنسـخ نسـخ جديدة من مصحفه، إن كان مخالفًا لنسخة عثمان، و ينشرها فى الآفاق تخليصًا للقرآن الكريم من آفة التحريف؟

هل كان على وهو أمير المؤمنين قليل الاكتراث لهذا الأمر فأهمله، ورضى أن يستقر التحريف فى القرآن وهو قادر على إزالته؟

وهـل اتفـق أن كان جميع خصـوم عثمان قليـلى المبالاة بالقـرآن إلى حد أنهم، حتى بعد زوال ملكه، يقرون التحريف الذى أوجده فى الكتاب الذى يعبدون الله بتلاوته؟

اللهـم إن هذه مجالات عقلية لا توجد معدة فى الأرض تسـتطيع هضمها، ولا ندرى كيف استطاع أن يهضمها كاتب هذه الرسالة؟!

وقال فى صفحة 48:

«جاء أن عمر كان يقبل كل آية بشـهادة شـاهدين فكان من الممكن أن ترفض آية صحيحة إذا شـهد بها شـاهد واحد، وأن تقبل آية محرفة إذا شـهد بصحتها شاهدان».

نقـول كيف يقبل العقـل مثل هذا القول؟ قد ثبـت بالتواتر التاريخى أن القـرآن كان يحفظـه الخلفاء الأربعة ومئات من النـاس، وكان مكتوبًا كله، ومحفوظًـا فى دار النبى ﷺ، وأن أبا بكر لما أمـر بكتابته ندب لذلك جمهرة من حفظته، على رأسهم زيد بن ثابت فكتبوه، فما شأن عمر بعد ذلك فى هذا الأمر؟

هل كان القرآن آيات منثورة مفرقة بين الناس، يحفظ منها هذا آية، وذلك أخرى، فلما أريد جمعه كان الذى يحفظ منه شيئًا يأتى فيفضى بالذى عنده، فيكتب عنه بشهادة شاهدين و يرد منه ما لا يشهد به إلا شاهد واحد؟

إذن ما ذا كان يحفظ منه حفاظه؟ ولم ندبوا لكتابته دون غيرهم؟ أما كان الأجدى أن يعلن الناس بذلك، و ينادى فيهم: من كان يحفظ شيئًا من القرآن فليفض به، وليستشهد على صدقه شاهدين؟

شيء من ذلك لم يكن، و إنما الذى كان هو أن أمير المؤمنين أمر أن يكتب المصحف من المخطوطات المحفوظة، ومن صدور حفاظه الغيورين عليه، وهذا جهد كل من يريد أن يستوعبه كله دون أن يسقط منه حرف واحد. فهل بعد هذا الأسلوب أسلوب أدق منه فى جمع كتاب بدون تحريف؟

فإذ كان الكاتب نقل هذا من كتاب إسلامى فهو مردود على قائله؛ لأنه غير معقول، وهل يهدم قول مقطوع السند كهذا عملًا دل التواتر عليه؟

وقال فى صفحة 48 أيضًا:

«جاء عن مسلم أن أبا موسى الأشعرى قال مرة لخمسمائة من القراء فى البصرة: إننا كنا نقرأ سورة بطول السهم وحده، أما الآن فقد نسيتها ما عدا بعض الآيات».

نقول: يسوق الكاتب هذه الشبهة على اعتبار أن أبا موسى يأسف على أن ذهب من القرآن مقدار كبير، حتى إنه كان يحفظ سورة طو يلة فنسيها إلا بعض آيات منها. وأنا أرجو القارئ أن يلاحظ أنه يذكر ذلك لخمسمائة من القراء، أى من حفاظ القرآن.

والحقيقة أن أبا موسى المذكور لو كان قال هذا للقراء فهو يذكر لهم ما نسخت تلاوته من آيات القرآن. وقد رأيت أن ذلك النسخ نبه عليه النبى ﷺ وحدده تحديدًا تامًا، بحيث لم يختلف اثنان من المسلمين فى شيء منه. ولو كان أبو موسى يقول ذلك آسفًا منه، فلم لم يهتم بها هو حتى نسيها؟ أليس المفهوم بداهة أنه نسيها لأن تلاوتها قد نسخت فأهملها؟

ومما تجب ملاحظته أيضًا أن أبا موسى قال ذلك لخمسمائة من القراء، أى لخمسمائة ممن جردوا أنفسهم للقرآن. فماذا يكون وقع هذا الكلام منهم لو كان أبو موسى يقوله متأسفًا من ضياع بعض الكتاب؟

لقد علمت أن أصحاب الحديث كانوا يجولون الأقطار الشاسعة وراء سماع الأحاديث ممن يحفظون شيئًا منها طلبًا لجمعها، وكانوا يبذلون وراء ذلك أنفسهم ونفائسهم، حتى تروى عنهم فيها الأعاجيب التى لم تتفق لمجتهدى أمة من الأمم، فهلا كان يدفع كلام أبى موسى هؤلاء الحفاظ للبحث عن تلك الآيات المفقودة، وأصحاب رسول الله ﷺ لا يزالون أحياء، فكانوا يرحلون إلى المدينة وغيرها ينقبون عن حفاظ تلك السورة حتى يجمعوا مشتت آياتها، أو أكثر تلك الآيات؟

وكيف يعقل أن أبا موسى لم يلقن الخمسمائة من القراء الذين قابلهم الآيات التى ما زالت عالقة بذاكرته منها؟ وكيف لم يطلبها منه أولئك القراء؟

قس على هذا كل ما أورده كاتب هذه الرسالة مما يشبه هذا كما قال فى صفحة 49:

«وروى أبو موسى نفس الحديث عن سورة أخرى كالصيحات قد ضاعت».

«وروى عن عائشة أن الآية عن الرضاعة كانت تقرأ فى زمن النبى ولكنها مفقـودة الآن من القرآن (نرجو القـارئ أن يلاحظ أن كلمات (قد ضاعت) و(مفقودة الآن من القرآن) من تعبير كاتب الرسالة عمد إليها للتهويل».

وقال فى صفحة 49:

«وقال أيضًا جلال الدين السيوطي[1]: «حدثنا ابن أبى مريم عن أبى لهيعة ابن الأسـود عن عروة بن الزبير عن عائشـة قالت: كانت سـورة الأحزاب تقـرأ فى زمن النبى ﷺ مائتى آيـة فلما كتب عثمان المصحف لم يقرر منها إلا ما هو الآن (وهى الآن سبع وسبعون آية).

«وقال ابن حبيش قال أبى بن كعب كم تعد سـورة الأحزاب، قال اثنتين وسبعين آية أو ثلاثًا وسبعين آية. قال كانت تعدو سورة البقرة».

«وأخرج البخارى فى تاريخه عن حذيفة، قال قرأنا سـورة الأحزاب على النبى فنسيت منها سبعين آية ما وجدتها».

«وروى جـلال الدين أن عبيـدًا كان يقول حدثنا إبراهيم عن أيوب عن نافـع قال: «لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله، وما يدرى ما كله، فقد ذهب منه قرآن كثير ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر».

«وعن مالك أن أول سـورة براءة سقط مع البسملة، فقد ثبت أنها كانت تعدل البقرة لطولها».

---

(1) السيوطى، جال الدين، عبد الرحمن بن أبى بكر (849 - 911هـ، 1445 - 1505م) حافظ، ومؤرخ، ومن كبار أصحاب الموسوعات. وكان أشبه ما يكون بالمؤسسة التى جمعت أشتات الفكر الإسلامى بعد النكبة التى أصابت مكتبات بغداد على أيدى التتار.

«وقال أيضًا مسلم: إن الآية بخصوص الرجم كان قبلًا فى القرآن وكان عمر مقتنعًا بصحتها حتى أقسم بالله إنه إنما منع عن تدوينها خشية الاتهام».

«فترى مما تقدم (القائل كاتب الرسالة) أنه طرأ على القرآن كثير من الحذف، وبعبارة أخرى أن كلمة الله قد اعتراها النقص»، انتهى كلامه.

نقول: إن كل ما جمعه كاتب الرسالة من هذه الأقوال، يفسرها ما ذكرناه مرارًا، من أن القرآن نسخت منه تلاوة آيات كثيرة على عهد النبى ﷺ،وقد علم المسلمون الأولون ذلك ولم يختلفوا فيه.

وإذا كانت عائشة قالت ما نقله عنها كاتب الرسالة وهو: «كانت سورة الأحزاب نقرأ فى زمن النبى ﷺ مائتى آية، فلما كتب عثمان المصحف لم يقرر منها إلا ما هو الآن»، إذا كانت هى قائلة هذا القول، وتعنى به أن عثمان جنى على القرآن فحذف منه ما كان يجب أن يبقى فيه، فلم كانت تدافع عن عثمان، حتى إنه لما قتل خرجت فى مقدمة الخارجين على على، متهمة إياه بالإغراء بقتله، وحضرت وقعة الجمل تحريضًا للناس على الثبات فى وجه أمير المؤمنين؟ فهل كانت تريد أن تفهم الناس أن عثمان الذى نقص من آيات القرآن، يستحق أن تسفك فى سبيل الثأر له كل هذه الدماء؟

ومما رواه كاتب الرسالة عن البخارى أن حذيفة قال: «قرأنا سورة الأحزاب على النبى ﷺ فنسيت منها سبعين آية ما وجدتها».

هذا كلام يريد أن يفهم منه صاحب ذلك الكتيب أن حذيفة يأسف لنسيان سبعين آية من سورة الأحزاب. ولكن الجملة لا تشعر بأسف وبخاصة من أجل ضياع بعض القرآن، الأمر الذى لو كان لاستتبع من الأحداث ما لا

يعلم هوله إلا الله. فحذيفة يذكر أنه نسى سبعين آية من القرآن، كما يذكر أنه نسى قصيدة كان يحفظها لبعض شعراء.

هب أن حذيفة قال ذلك لبعض الناس، أفما سأله ذلك البعض قائلًا: «هل تلك الآيات لم توجد فيما أمر النبى ﷺ بكتابته وحفظه من القرآن؟ وهل نسيها جميع حفاظه؟ وهل اتفق أن نسيها المسلمون أجمعون؟ وهل سعى حذيفة للحصول عليها فخاب؟ إننا سمعنا أن بعض جامعى الأحاديث كانوا يسافرون ليالى وأيامًا لسماع أحاديث معدودة من رواتها، فهلا حفزت الحمية بعض المسلمين للتنقل فى الأقطار سائلين عن تلك الآيات؟

أليست تدل هذه السكينة التى تظهر بها قائلو هذه الأقوال، والذين يسمعونهم، على أن أمرها لا يعد أحد احتمالين: فإما أنها مدسوسة على قائليها، أو أنهم يريدون بها الآيات التى نسخت تلاوتها من القرآن؟

فإن قال معترض: لو كان هذا الأمر من قبيل الدس لما عجز الدساسون أن يحيطوه بشيء مما يدل على الأسف والاهتمام.

قلنا: لو فعلوا ذلك خشوا أن يكذبوا فيه؛ لأن هذا الاهتمام كان يظهر له أثر كبير فيما نقل إلينا من أحوال الصحابة. وقد نقل تاريخهم إلينا أنهم تضاربوا وتسابوا وقاتل بعضهم بعضًا. أما وقد سكتت جميع المصادر التاريخية عنها. فمعنى ذلك أنه لم يكن له أثر على الإطلاق. وهذا غير معقول إذا كان قد ضاع شيء من القرآن كما فصلنا ذلك تفصيلًا فيما مر من الكلام.

ومن أدل الدلائل على أن هذا الأمر لم يكن له أثر فى تاريخ هذا الدين، سكوت علماء الكلام عنه. فإن هذا العلم الذى عنى بكل صغيرة وكبيرة من الشبهات التى أثيرت ضد الإسلام، صمت حيال هذه المسائل كل الصمت

ولم يشر إليها بكلمة واحدة. وقد أورد شبهات الكفار على وجود الله، فهل يضن أن يورد الشبهات على نقص كتابه أو الزيادة فيه؟

فلو قيل إنهم صمتوا عنها تفاديًا مما تثيره من النتائج الخطيرة، قلنا فكيف تسكت عنه الفرق الإسلامية والخوارج وعددها أكثر من سبعين، وفى بعضها من الغلو والتقصير ما أخرجها عن دائرة الإسلام؟ فهل هى أيضًا خشيت من نتائجه الخطيرة وقد قامت تؤيد مذاهبها بالسيف والنار؟

وإن سلمنا جدلًا بأن قول الخصم معقول، فهل هو معقول من بعض علماء اليهود الذين كانوا فى جدال مستمر مع علماء المسلمين؟ فلم لم يتخذوا التحريف الذى يزعم الزاعمون أنه وقع فى القرآن من الزلات التى يحصونها على كتاب المسلمين فى تلك الأزمان، لا سيما وقد كان المسلمون يرمونهم بتحريف التوراة؟

اللهم إن هذه حجج قاطعة على أن ما يروى من حذف بعض آيات القرآن إنما حصل فيما كان منها منسوخ التلاوة؛ ولذلك لم ينتطح حوله عنزان.

وقال صاحب تلك الرسالة فى صفحة 54:

«وفضلًا عن ذلك أن آيات القرآن الحالية تختلف لفظًا حتى انشق علماء الإسلام فى تفسيرها إلى أحزاب».

«مثلًا قوله فى سورة محمد (قتلوا) وفى رواية أخرى قاتلوا، وكذلك قد اختلفوا فى أمر الجهاد، وكذلك اختلفت القراءة فى سورة الحج بين يقاتلون ويقاتلون (بكسر التاء وفتحها) إلخ».

نقول: يريد الكاتب مما ذكره مسألة اختلاف القراءات. أما وقد انتهى

به الأمر إليها، فإننا نخبره بأن هذا الاختلاف قد حدث على عهد النبى ﷺ، ورفع أمره إليه، فأقره بوحى من الله، ولو كان حدث بعده لكان للخصم مجال للخوض فيه، أما وهو على ما رأيت فلا مجال فيه لقائل كائنًا من كان.

على أن هذه الاختلافات فى القراءة لم تحلل حرامًا، ولم تحرم حلالًا، ولا هى تتعلق بالعقائد ولا العبادات ولا المعاملات، ولم تثر بين المسلمين حربًا، ولا اعتبرها أحد شبهة على الكتاب الإلهى. فكل كلام فى هذا الموضوع عبث محض لا يقام له وزن لا عند المسلمين ولا عند سواهم.

وإذا علم القارئ أن هذه الاختلافات فى القراءة حدثت على عهد رسول الله فأقرها بوحى من الله، سقطت حيرة صاحب الرسالة فى معرفة أى القراءات هى التى نطق بها محمد ﷺ.

ومن أدل الأدلة على أن المسلمين يعتبرون اختلاف القراءات أمرًا مشروعًا أن قراء القرآن يرتلون آياته مع مراعاة هذه الاختلافات، فيكررون بعض الآيات على ضروب شتى إدلالًا على تمكنهم من فنهم، والمسلمون يقابلون ذلك بالتقدير والإعجاب.

وبعد، فقد اتضح للقارئ بأقوى الأدلة وأنهض الحجج أن القرآن الكريم لا يعقل أن يكون قد اعتراه تحريف من أى ضرب كان، وأنه بقى محفوظًا فى الصدور والسطور، وسيبقى كذلك أبد الآبدين، ودهر الداهرين مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

5- الأستاذ العلامة مصطفى صادق الرافعي

القرآن والعلوم

للقرآن وجه اجتماعى من حيث تأثيره فى العقل الإنسانى، وهو معجزة التاريخ العربى خاصة، ثم هو بآثاره النامية معجزة أصلية فى تاريخ العلم كله على بسيط هذه الأرض، من لدن ظهر الإسلام إلى ما شاء الله، لا يذهب بحقها اليوم أنها لم تكن قبلا إلا سببًا، فإن فى الحق ما يسع الأشياء وأسبابها جميعًا.

وليس يرتاب عاقل - ممن يتدبرون تاريخ العلم الحديث، ويستقصون فى أسباب نشأته، ويتشبثون عند الخاطر من ذلك إذا أقدموا عليه؛ وعند الرأى إذا قطعوا به - أنه لو لم يكن القرآن الكريم لكان العالم اليوم غير ما هو فى كل ما يستطيل به، وفى تقدمه وانبساط ظل العقل فيه وقيامه على أرجائه، وفى نموه واستبحار عمرانه. فإنما كان القرآن أصل النهضة الإسلامية وهذه كانت على التحقيق هى الوسيلة فى استبقاء علوم الأولين وتهذيبها وتصفيتها، وإطلاق العقل فيما شاء أن يرتع منها[1]، وأخذه على ذلك بالبحث والنظر

(1) كان العلم عند الأم التى انطوت قبل الإسلام مما لا يستطيعه إلا طبقات تمتاز به وتبينها الأمم من نفسها كما تبين سائر الطبقات الإلهية، من الملوك والكهنة والأبطال وغيرهم، الذين هم آلهة الأمة، أو أبناء آلهتها، أو الواسطة إلى الآلهة، فكانت العلوم=

والاستدلال والاستنباط، وتوفير مادة الروية عليه بما كان سببًا فى طلب العلم للعمل، ومزاولة هذا لذاك، إلى صفات أخرى ليس هذا موضع بسطها، وهذا كله كان أساس التاريخ العلمى فى أوروبا. فما من موضع فى هذا (الأساس) القائم إلا وأنت واجد من دونه قطعة من الآداب الإسلامية أو العقول الإسلامية، أو الحضارة الإسلامية، فالقرآن من هذا الوجه إنما هو الباب الذى خرج منه العقل الإنسانى المسترحل، بعد أن قطع الدهر فى طفولة وشباب.

= من خصائص الكهنة عند المصريين والأشوريين، وفى أبناء الأشراف خاصة عند الغرطانيين والرومان، وفى طائفة من الشبان يقع عليهم الاختيار عند الهنود واليونان. وكانت الدنيا القديمة على ذلك أو نحوه لا يصلح العلم إلا أن يكون نظرًا وجدالًا بين طائفة تتنافس فيه. لا لشيء إلا لأنه عملها وبه وزن أقدارها. ومتى كانت المنافسة ضيقة محصورة لا يشايع الناس عليها بعلم ولا يصوبون فيها ولا يخطئون فهى منافسة أهواء واشهوات ونزغات، يكون فيها العلم سلما تحطم منها تحت كل قدم ثقيلة درجة.

فلما جاء الإسلام حث على طلب العلم وعلى النظر والاعتبار والاستنتاج؛ وجعل شعار دعوته مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف: 108]، وقوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ ﴾ [النحل: 125]، وترادفت أخبار الحث على طلب العلم فيه وفى كلام النبى ﷺ حتى قال عليه الصلاة والسلام: **«اطلبوا العلم ولو فى الصين»** فكان هذا سببًا فى إطلاق الحرية العلمية للناس جميعًا، وخصوصًا أهل الأخلاق منهم الذين هم الطبقة الوسطى فى كل أمة، والذين بهم قوام الأمة: إذ يحملون ما فوقهم ويمنعون عما تحتهم، وبذلك نضجت المنافسات العلمية وأتت ثمارها، وأفضى الأمر فى العلوم إلى ما وقع من الامتحان والاختبار؛ ثم الاختراع والاستنتاج.

وهذا كله لم يعرفه أساتذة اليوم (الأوروبيون) إلا فى القرن السادس عشر للميلاد؛ وهم قد أخذوه وأخذوا معه كثيرًا من الفضائل الاجتماعية عن المسلمين وعلمائهم، لا يكابر فى ذلك منصفوهم وذوو الأحلام منهم، و إلى الله ترجع الأمور.

وكل دين سماوى فإنما هو طور من أطوار النمو فى هذا العقل الإنسانى، يستقبل به الزمن درجات جديدة فى نشأته الأرضية؛ فما التاريخ كله إلا مقياس عقلى درجاته وأرقامه هذه العصور المختلفة التى يستبين العقل منها مقدار زيادته من مقدار نقصانه.

أما من وجه آخر فإن القرآن إنما هو الدرجة الأبدية التى أجاز عليها العالم فى انتقاله من جهة إلى جهة[1] وإنا لمستيقنون أن هذه الدرجة هى نفسها التى سيجيز عليها العالم كرة أخرى ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: 41].

وأما إن هذا القرآن معجزة التاريخ العربى خاصة وأصل النهضة الإسلامية، فذلك بين من كل وجوهه؛ غير أننا سنقول فى الجهة التى تتصل بنشأة العلوم، إذ هى سبيل ما نحن فيه من هذا الفصل، وقد أومأنا إلى بدء تاريخ التدوين العلمى وبعض أسبابه فى باب الرواية من الجزء الأول من تاريخ آداب العرب، فنقتصر هنا على موجز من أسباب النشأة العلمية.

اختلف المسلمون فى قراءة القرآن لعهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبدأت ألسنة الحضريين ومن فى حكمهم من ضعاف الفطرة العربية؛ تجنح إلى اللحن وتزيغ عن الوجه فى الإعراب، وجعل ذلك يفشو بين المسلمين بعد أن اضطرب كلام العرب فداخله الشيء الكثير من المولَّد والمصنوع؛ وذهب أهل الفتن يتأولون عن معانى القرآن ويحرفون الكلم عن مواضعه، وخيف على سنة رسول الله ﷺ وهى الأصل الثانى بعد القرآن؛ ثم فشا الجهل بأمور الدين وضعف عامة الناس عن حمل العلم وطلبه، واقتصروا من ذلك على أن يفزعوا إلى العلماء بالمسألة فيما يحدث لهم وما يرجون أن يتفقوا فيه،

(1) أى من المشرق إلى المغرب.

ثـم تباينت آراء العلماء واختلفت أفهامهم فيما يسـتنبطون من الأحكام وما يتأولون لها من الكتاب والسـنة، واختلط أمر النـاس، وأقبلت عليهم الفتن كقطع الليل، وامتدت إليهم كأعناق السـيل، فكان ذلك كله ما بعث العلماء أن يفترقوا على جهات القرآن؛ حياطة لهذا الدين. وقيامًا بفروض الكفاية[1]، يسـتقبل بعضهم بعضًا بالرفد والمعاونة، ويأخـذون على أطراف الأمر كله، وهـو أمر لم يكن أكثره على عهـد الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يوم كان العلم فروعًا قليلة، إذ كانت الأعلام بينة لائحة، وطريق الإسلام لا تزال فيها آثار النبوة واضحة، ومن ثم جعلت تنبع من القرآن ثم تسـتجيش وتتسع، وأخذ بعضها يمد بعضًا.

قـال أحد العلـماء: «فاعتنى قوم بضبـط لغاته وتحريـز كلماته، ومعرفة مخارج حروفـه، وعددها، وعـدد كلماته وآياته وسـوره وأحزابه وأنصافه وأرباعـه، وعـدد سـجداته، والتعليم عند كل عشر آيـات؛ إلى غير ذلك من حـصر الكلمات المتشـابهة، والآيـات المتماثلة، من غير تعـرض لمعانيه، ولا تدبر لما أودع فيه فسمّوا القراء!

واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبنى من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها، وأوسـعوا الكلام فى الأسـماء وتوابعهـا، وضروب الأفعال، واللازم

(1) كل علم نافع فهو فى الشريعة الإسلامية فرض كفاية: إن لم يوجد فى الأمة من يتحقق به أثمت الأمة جميعًا، وإن قام به البعض سقط عن الباقين. ولا يعرف مثل هذا الأصل الاجتماعى فى غير الإسلام،ولم ترتق الأمم الحديثة إلا به، فإن لكل علم رجالًا ينقطعون له، يحيون به ويموتون عليه، وهم درجات تبنى فى تاريخ الإنسانية، فالإسلام كما ترى يفرض على أهله أن يبنوا فى هذه الإنسانية، والأمم تفعل ذلك تطوعًا وللحاجة، وبهذا يكون الإسلام أصلًا فى التشريع الاجتماعى. وما عداه كالفرع.

والمتعدى، ورسوم خط الكلمات وجميع ما يتعلق به، حتى إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كله[1].

واعتنى المفسرون بألفاظه، فوجدوا منه لفظًا يدل على معنى واحد، ولفظًا يدل على معنيين، ولفظًا يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا معنى الخفى منه، وخاضوا فى ترجيح أحد محتملات ذى المعنيين أو المعانى، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية، فاستنبطوا منه، وسموا هذا العلم بأصول الدين[2].

وتأملت طائفة منهم معانى خطابه، فرأت منها ما يقتضى العموم وما يقتضى الخصوص، إلى غير ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز.

وتكلموا فى التخصيص والأخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهى والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء، وسموا هذا الفن أصول الفقه.

وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام؛ فأسسوا أصوله، وفرعوا فروعه، وبسطوا القول فى ذلك بسطًا حسنًا، وسموه بعلم الفروع، وبالفقه أيضًا.

---

(1) توسع النحاة وأهل اللغة فى شواهد القرآن ونقبوا عنها واستعرضوا لها ما انتهى إليهم من كلام العرب، فلا يعرف فى تاريخ العلوم اللسانية قاطبة شواهد تبلغ عدتها أو تقاربها أو تكون منها على نسبة متكافئة، فإن مبلغ ما أحصوه من شواهد القرآن فيما ذكروا ثلاثمائة ألف بيت من الشعر، ولعمر أبيك إنها لمعجزة فى فنها ولو بلغت الشواهد نصف هذا القدر لكانت المعجزة كاملة.

(2) وهو الذى يقال له اليوم علم التوحيد.

وتلمَّحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة، والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودونوا أخبارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء؛ وسموا ذلك بالتاريخ[1] والقصص.

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التى تقلقل قلوب الرجال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والميعاد والحشر والحساب والعقاب والجنة والنار - فصولًا من المواعظ وأصولًا من الزواجر، فسموا بذلك الخطباء والوعاظ.

وأخذ قوم مما فى آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك - علم الفرائض، واستنبطوا منها من ذكر النصف والربع والسدس والثمن من حساب الفرائض.

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة فى الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبروج وغير ذلك، فاستخرجوا منه علم المواقيت[2].

(1) يجهل كثير من الناس أصل تسمية كتب الوقائع والأحداث وما إليها بالتاريخ، إنما هو أصلها، فكانت فى مبدأ أمرها مقصورة على ما فى القرآن من أخبار الأولين وقصصهم. ثم أطلقت التسمية فاستعملوها فيما اتسع من هذا العلم، وهو استعمال تواضع عليه أهل القرن الثانى للهجرة، أما فى القرن الأول فلم يكن يعرف من معنى (التاريخ) إلا التوقيت، أى تعيين الوقت.

(2) قال بعض المتأخرين: إن الميقات (أى العلم الذى تعرف به أزمنة الليالى والأيام وأحوالها ومقاديرها لإيقاع العبادات فى أوقاتها) مشار إليه فى القرآن بقوله تعالى: (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ) قال: فإن عدد (رفيع) أى بحساب الجمل - ثلاثمائة وستون وهى عدد درج الليل والنهار، «قلنا». وإذا أطلق حساب الجمل فى كلمات القرآن كشف منه كل عجائب العصور وتواريخها وأسرارها. ولولا أن هذا خارج عن غرض الكتاب لجئنا منه بأشياء كثيرة من القديم والحديث.

ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ، وبديع النظم، وحسن السياق، والمبادئ والمقاطع والمخالص، والتلوين فى الخطاب، والإطناب، والإيجاز، وغير ذلك، واستنبطوا منه المعانى والبيان والبديع.

انتهى تحصيلاً

وإنما أوردنا هذا القول لنشف لك عن معنى عجيب فى هذا الكتاب الكريم، فهو قد نزل فى البادية على نبى أمى وقوم أميين لم يكن لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم، وكانت فنون القول التى يذهبون فيها مذاهبهم ويتواردون عليها، لا تجاوز ضروبًا من الصفات، وأنواعًا من الحكم، وطائفة من الأخبار والأنساب، وقليلًا مما يجرى هذا المجرى، فلما نزل القرآن بمعانيه الرائعة التى افتن بها فى غير مذاهبهم، ونزع منها إلى غير فنونهم، لم يقفوا على ما أريد به من ذلك، بل حملوه على ظاهره وأخذوا منه حُكم زمانهم، وكان لهم فى بلاغته المعجزة مَقْنع، وما درى عربى واحد من أولئك لم جعل الله فى كتابه هذه المعانى المختلفة، وهذه الفنون المتعددة؟ التى يهيج بعضها النظر، ويشحذ بعضها الفكر، ويمكن بعضها اليقين، ويبعث بعضها على الاستقصاء، وهى لم تكن تلتئم على ألسنتهم من قبل؟. بيد أن الزمان قد كشف بعدهم عن هذا المعنى، وجاء به دليلًا بينًا منه على أن القرآن كتاب الدهر كله، وكم للدهر من أدلة على هذه الحقيقة ما تبرح قائمة؛ فعلمنا من صنيع العلماء أن القرآن نزل بتلك المعانى، ليخرج للأمة من كل معنى علمًا برأسه، ثم يعمل الزمن عمله فتخرج الأمة من كل علم فروعًا، ومن كل فرع فنونًا إلى ما يستوفى فى هذا الباب على الوجه الذى انتهت إليه العلوم فى الحضارة الإسلامية؛ وكان سببًا فى هذه النشأة الحديثة من بعد أن استدار الزمان وذهبت الدنيا مستدبرة

وأنشأ الله القرون والأجيال لتبلغ هذه الحادثة أجلها ويتناهى بها القضاء وإن من شيء إلا عند الله خزائنه، ولكنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21].

ولقد كانت النهضة العلمية في زمن بني أمية قائمة بأكثر العلوم الإسلامية التي مرت الإشارة إليها، حتى امتد أبو جعفر المنصور؛ ثم الرشيد[1] من بعده للنهضة العباسية الكبرى التي نشأت من جمع كلمة أهل الفقه والحديث بعد انشقاقهم زمنًا وافتراق الكلمة بينهم - ومن إقبال الناس على الطلب والاستيعاب؛ فكان ذلك تهيئة لانشقاق علوم الفلسفة والكلام وما إليها، وظهور أهلها وانحياز السنة عنها جانبًا، ثم اجتماعها على مناظرتها؛ فإن المنصور[2] لما حج في سنة 163هـ لقيه مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه بمنى على ميعاد، بعد الذي كان مما أنزل به جعفر بن سليمان عامل المنصور على المدينة من الضرب بالسوط وانتهاك الحرمة وإزالة الهيبة[3]، قال مالك رحمه الله: (ثم فاتحني (يعني المنصور) فيمن مضى من السلف والعلماء، فوجدته أعلم الناس بالناس؛ ثم فاتحني في العلم والفقه فوجدته أعلم الناس

(1) هارون الرشيد (149 - 193هـ - 766 - 809م) خامس خلفاء الدولة العباسية وأشهرهم.

(2) كان المنصور (95 - 158هـ، 714 - 775م)، مع تقدمه في الفقه وبراعته في العلوم الإسلامية ذا بصر بالفلسفة والصناعة الفلكية، مؤثرًا لأهل هذه الصناعة؛ وفي أيامه ترجمت طائفة من جياد الكتب، وكان هو أول من أمر بترجمة كتب الفلك والمنطق فقام بالأولى محمد بن إبراهيم الفزاري وأخرج الثانية كاتبه البليغ المشهور عبد الله ابن المقفع، فله على العلم كما رأيت يدان.

(3) وكان ذلك الأمر بلغ جعفرًا عن مالك، إذ قيل إنه كان يفتي بأن أيمان البيعة لا تحل لبني العباس ولا تلزم الناس، لأنهم يبايعون لهم مخافة واستكراها.

بما اجتمعوا عليه وأعرفهم بما اختلفوا فيه، حافظًا لما روى، واعيًا لما سمع، ثم قال لى: يا أبا عبد الله، ضع هذا العلم ودون منه كتبًا، وتجنب شدائد عبد الله بن عمر، ورخص عبد الله بن عباس، وشواذ ابن مسعود، واقصد إلى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضى الله تعالى عنهم، لنحمل الناس إن شاء الله على علمك وكتبك، ونبثها فى الأمصار، ونعهد إليهم أن لا يخالفوها ولا يقضوا بسواها. فقلت: أصلح الله الأمير، إن أهل العراق لا يرضون علمنا ولا يرون فى علمهم رأينا. فقال أبو جعفر: (يُحملون عليه وتُضرب عليه هاماتهم بالسيف وتقطع ظهورهم بالسياط!) فتعجَّل بذلك وضَعها، فسيأتيك محمد ابنى (المهدى) العام القابل إن شاء الله إلى المدينة ليسمعها منك، فيجدك وقد فرغت من ذلك إن شاء الله!

ثم قدم المهدى على مالك، وقد وضع أجزاء كتابه (الموطأ) فأمر بانتساخها وقرئت على مالك. إلى أن كانت سنة 174هـ فخرج الرشيد حاجًا، ثم قدم المدينة زائرًا، فبعث إلى مالك فأتاه فسمع منه كتابه ذلك، وحضره يومئذ فقهاء الحجاز والعراق والشام واليمن، ولم يتخلف من رؤسائهم أحد إلا وحضر الموسم مع الرشيد، وسمع وسمعوا من مالك موطأه كله، ثم أنكروا عليه مسألة فناظروه فيها، حتى إذا كشف لهم عن وجهها وأبان فيها طريق الرواية والتأويل صاروا إلى الرضى بقوله والتصديق لروايته والتسليم لتأويل ما تأول.

لا جرم كان هذا سببًا فى اجتماع كلمة الفقهاء، إن لم يكن ديانة فسياسة، ولم يؤثر من بعدها عن جماعة أهل العراق ما كانوا يستطيلون به على أهل الأمصار الأخرى، من عرض الدعوى وتطويل الحديث، وتخطئه من لا يليهم

أو يواليهم؛ وقد كانوا قبل ذلك يربونهم[1] ويضيقون عليهم متنفسهم من العلم، ويرون أن هذا العلم عراقى، وأن ليس الأمر مع غيرهم بحيث إذا هو جد فيه رأى المادة مؤاتية وبلغ منه مثل الذى بلغوه وكان دركه حقيقًا بأن يسمى عندهم دركًا، ولعل ذلك جاءهم فى الأصل من قبل العربية وأهلها، فقد علمت من (باب الرواية) كيف كانوا يبسطون ألسنتهم ويتنبَّلون بعلمهم ويذهبون بأنفسهم؛ إذ لم يكن فى الأرض أعلم منهم بالعربية؛ ولا أوثق فى روايتها، ولا أجمع لأصولها، ولا أصح فى ذلك كله[2].

(1) يقال فلان لم يزل يسأل فلانًا حتى أرباه بالمسألة، وذلك إذا سأله حتى ضايقه كأنما أصابه بالربو، وهو عسر النفس.

(2) مما يذكرونه من صنع الرشيد للفقهاء وعلومهم، هذا الخبر الذى يروى عن زاهد وفته وعالم دهره عبد الله بن المبارك المتوفى سنة 182هـ: وذلك أن الرشيد حين قدم الرقة؛ لقى عبد الله هذا، فلما هم بالقيام من عنده - وكان قد زاره فى داره - قال ابن المبارك: يا أمير المؤمنين، إنى أخشى أن يكون العلم قد ضاع قبلك كما ضاع عندنا، فقال الرشيد: أجل، إنه ما قلت. ثم لما قدم الرشيد العراق كان أول ما ابتدأ فيه النظر: أن كتب إلى الأمصار كلها، وإلى أمراء الأجناد: أما بعد، فانظروا من التزم الأذان عندكم، فاكتبوه فى ألف من العطاء، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب، فاكتبوه فى ألفى دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه فى العلم واستبحر. فاكتبوه فى أربعة آلاف دينار من العطاء، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم، فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم فإن الله تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء: 59]. وهم أهل العلم.

قال ابن المبارك: فما رأيت عالما ولا قارئًا للقرآن، ولا سابقًا للخيرات ولا حافظًا للمحرمات فى أيام بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم فى زمن الرشيد وأيامه. وهذا الخبر وإن كان إلى المبالغة ما هو، ولكنه فى أصله حقيق بالتصديق، فإن مناقب الرشيد، رحمه الله - كثيرة لا تضيق من دونه، وقد صحت=

ولسنا نريد أن نخوض فى الكشف عن مبدأ انتشار العلوم النظرية والعلل الباعثة عليها، ومن كان مع أهلها من الخلفاء ومن كان عليهم، فلذلك موضع فى كتاب التاريخ هو أملك به وأوفى، غير أننا نوثق الكلمة فى أن القرآن الكريم هو كان سبب العلوم الإسلامية ومرجعها كلها - بأنه ما من علم إلا وقد نظر أهله فى القرآن وأخذوا منه مادة علمهم أو مادة الحياة له، فقد كانت سطوة الناس فى الأجيال الأولى من العامة وأشباه العامة شديدة على أهل العلوم النظرية، إلا أن يجعلوا بينها وبين القرآن نسبًا من التأويل والاستشهاد والنظر، أو يبتغوا بها مقصدًا من مقاصده، أو يريغوا معنى من معانى التفقه فى الدين، إلى ما يشبه ذلك مما يكون فى نفسه صلة طبيعية بين أهل العقول والبحث وأهل القلوب والتسليم[1].

= الرواية بأنه ما اجتمع على باب خليفة قبله ما اجتمع على بابه من الشعراء، وأهل الأدب، وقد كان يتفقدهم ويتقدم فى طلبهم ويحظيهم ويفضل عليهم، وما هذه الرواية إلا بسبيل من تلك، ولتلك أقرب إلى الحق وأعلق بأسباب الزمن.

(1) مما نورده تفكهة وبيانًا لاعتقاد العامة من أهل العقول، أيام كان القلب أكبر من العقل، ما رواه المسعودى: أن أبا خليفة الفضل بن الحباب الجمحى المتوفى سنة 305هـ «وكان فصيحًا معربًا لا يتكلف الإعراب بل صار له كالطبع لدوام استعماله إياه من عنفوان حداثته، خرج مع بعض أصحابه متفكهين إلى نهر من أنهار البصرة وقد غيروا ظواهر زيهم كيلا يعرفهم الناس، وكان ذلك أيام المبادئ وهى الأيام التى يثمر فيها التمر والرطب، فيكبسونه فى القواصر (أوعية التمر) ليصير تمرًا؛ وتكون حينئذ البساتين مشحونة بالرجال ممن يعمل فى التمر من الأكرة (الزراع) وغيرهم، فلما أكلوا قال بعضهم لأبى خليفة غير مُكَنٍّ له خوفًا أن يعرفه من حضر من العمال فى النخل: أخبرنى (أطال الله بقاءك) عن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: 6]، هذه الواو ما موقعها، من الإعراب؟ قال أبو خليفة: موقعهارفع، و(قوا) هو أمر للجماعة من الرجال. قال له: كيف تقول للواحد من الرجال وللاثنين؟ قال: يقال=

ولا يـزال أثـر ذلـك ظاهرًا فى فواتـح الكتـب العلمية لذلـك العهد على اختلافهـا، فما تسـتفتح مـن كتـاب إلا أصبـت فى مقدمته غرضًـا من تلك الأغـراض التى أشرنـا إليها، أو مـا يصلح أن يكـون غرضًا منهـا[1]؛ ثم هو أمـر ليس أدل على تحقيقه من كتب التفسـير، فإنه لا يعرف فى تاريخ العالم كله - من لدن أرخ الناس - كتاب بلغت عليه الشروح والتفاسـير والأقوال والمصنفات المختلفة ما بلغ من ذلك على القرآن الكريم ولا شبيهًا به ولا قريبًا منه، حتى فسرته الروافض بالجفر، على فساد ما يزعمون وسخافة ما يقولون، وعلى سوء الدعوى فيما يدعون من علم باطنه بما وقع إليهم من ذلك الجفر[2]

= للواحد من الرجال: ق، وللاثنين قيا، وللجماعة قوا.قال: كيف تقول للواحدة من النساء، وللاثنين، وللجماعة منهن؟ قال أبو خليفة: يقال للواحدة قى، وللاثنين قيا، وللجماعة قين. قال: فأسألك أن تجعل بالعجلة: كيف يقال للواحد من الرجال والاثنين والجماعة، وللواحدة من النساء والاثنين والجماعة منهن؟ قال أبو خليفة (وهو ينطق) عجلان: ق،قيا، قوا، قى، قيا، قين.

وكان بالقرب منهم جماعة من الأكرة، فلما سمعوا ذلك، استعظموه، وقالوا: يا زنادقة، أنتم تقرؤون القرآن بحرف الدجاج..؟ وعدوا عليهم فصفعوهم؛ فما تخلص أبو خليفة والقوم الذين كانوا معه من أيديهم إلا بعد كد طويل. وتروى هذه النادرة على وجه آخر، ولكن رواية المسعودى أملح؛ وكلتا الروايتين إلى مآل واحد؛ وفى رواية أخرى يقول الرجل العاصى: «إنهم زنادقة يقرؤون القرآن على صياح الديكة».

وروى ابن الأنبارى فى (طبقات الأدباء): أن محمد بن المستنير المعروف بقطرب المتوفى سنة 206هـ لما صنف كتابه فى التفسير؛ أراد أن يقرأه فى الجامع، فخاف من العامة و إنكارهم عليه، لأنه ذكر فيه مذهب المعتزلة، فاستعان بجماعة من أصحاب السلطان ليتمكن من قراءته فى الجامع. والأخبار من مثل ذلك غير قليلة.

(1) ومن ذلك أن (حكم الشارع) صار عند المتأخرين أحد المبادئ العشرة لكل فن.

(2) قال ابن قتيبة (فى تأويل مختلف الحديث): هو جلد جفر ادعوا أنه قد كتب لهم=

واستنبط منه غيرهم إشارات من الغيب شهر مدة الدولة الأموية! فقد كانت أيامها خالصة ثلاثًا وثمانين سنة وأربعة أشهر مجموعها ألف شهر سواء[1]

=الإمام فيه كل ما يحتاجون إلى علمه، وكل ما يكون إلى يوم القيامة، ثم أورد أمثله من تفسيرهم، فمن ذلك قولهم فى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ [البقرة: 67]: إنها عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا... وفى قوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ﴾ [البقرة: 73]: إنه طلحة والزبير، وقولهم فى آية الخمر والميسر: إنهما أبو بكر وعمر. وفى آية الجبت والطاغوت:إنهما معاوية وعمرو بن العاص... إلخ إلخ، وكان بعض أهل الأدب يقول ما أشبه تفسير الراقضة للقرآن إلا بتأويل رجل من أهل مكة للشعر، فإنه قال ذات يوم: ما سمعت بأكذب من بنى تميم زعموا أن قول القائل:

بيت زرارة محتب بفنائه ومجاشع وأبو الفواوس نهشل

أنه فى رجال منهم. قيل له: فما تقول أنت فيهم؟ قال: البيت بيت الله، وزرارة الحجر. قيل: فمجاشع؛ قال: زمزم جشعت بالماء. قيل: فأبو الفوارس؟ قال: أبو قبيس. قيل فنهشل؟ قال:نهشل أشدها. وفكر ساعة ثم قال: نهشل مصباح الكعبة، لأنه طويل أسود، فذلك نهشل... اهـ.

والمراد بالجفر رق صنع من جلد البعير. ومن أراد الاتساع فى معرفته فليرجع إلى ما نقله صاحب كشف الظنون فى معنى علم الحفر والجامعة وأهل هذا العلم.

وقد كشف ابن خلدون فى مقدمته فى فصل ابتداء الدول والأمم عن شيء من مسمى هذا الجفر، ونقل أنه كان جلد ثور صغير. وأن هارون العجلى روى ما فيه عن جعفر الصادق وكتبه فى كتاب سماه الجفر. قال: وكان فيه تفسير القرآن وما فى باطنه من غرائب المعانى.

وعندنا أن كل ذلك موضوع وباطل، وأن الكلام فيه أسلوب من أساليب القصص وضرب فى التهويل والمبالغة، ولا نظن أن علم ما كان وما يكون شيء يسعه أو يسع الرمز إليه جلد ثور، إلا أن يكن هذا الثور هو الذى قيل فيه إنه كان يحمل الأرض قديمًا على أحد قرنيه....!

(1) ومن أعجب ما وقفنا عليه، أن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى أمر فى حلب بصنع منبر لبيت المقدس قبل فتحه وانتزاعه من أيدى الإفرنج بنيف وعشرين سنة. قال صاحب (الروضتين) بعد أن ذكر أن هذا قد يكون كرامة له: ثم يحتمل أن يكون=

وحتى زعم بعضهم أن الكلمات التى فى أوائل السور إنما تحتوى مدد أعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة، وأن فيها تاريخ ما مضى ومابقى مضروبًا بعضها فى بعض، إلى كثير من مثل هذا مما يخطئه الحصر، و إنما أشرنا إلى بعضه لغرابته، ولأن أغرب ما فيه أنه عند أهله من بعض ما يفسر به القرآن[1].

=(رحمه الله) وقف على ما ذكره أبو الحكم ابن برجان الأندلسى فى تفسيره. فإنه أخبر عن فتح القدس والسنة التى فتح فيها، وعمر نور الدين إذ ذاك إحدى عشرة سنة، وقد رأيت أنا ذلك فى كتابه: ذكر تفسير أول سورة الروم، أن بيت المقدس استولت عليه الروم عام سبع وثمانين وأربعمائة، وأشار أنه يبقى بأيديهم إلى تمام خمسمائة وثلاث وثمانين سنة، قال: ونحن فى عام اثنتين وخمسمائة، فلم يستبعد نور الدين (رحمه الله) لما وقف عليه أن يمتد عمره إليه، فهيأ أسبابه حتى منبر الخطابة فيه، تقربًا إلى الله تعالى بما يبديه من طاعته ويخفيه، قال: هذا الذى ذكره أبو الحكم الأندلسى فى تفسيره من عجائب ما اتفق لهذه الأمة المرحومة، وقد تكلم عليه شيخنا أبو الحسن على بن محمد فى تفسيره الأول فقال: وقع فى تفسير أبى الحكم الأندلسى فى أول سورة الروم إخبار عن فتح بيت المقدس، وأنه ينزع من أيدى النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. قال لى بعض الفقهاء: إنه استخرج ذلك من فاتحه السورة. قال: فأخذت السورة وكشفت عن ذلك فلم أره أخذ ذلك من الحروف، و إنما أخذه فيما زعم من قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: 2، 4].

فبنى الأمر على التاريخ كما يفعل المنجمون ثم ذكر أنهم يغلبون فى سنة كذا على ما تقتضيه دوائر التقدير. قلنا: وكيفما كان الأمر فإنه لمعجزة.

(1) أما المتصوفة ومن يقلدون علم الباطن، فلا حصر لمذاهبهم وأقوالهم فى تفسر القرآن، وبخاصة المتأخرين منهم، فهؤلاء لهم فى ذلك المزاعم العريضة، مما يخرج عن أن يكون من علم الناس فإلى الله أمره، وقد ذكر الشيخ محيى الدين ابن العربى فى (الفتوحات) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: 12]، أن قوله ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾ يدل عل أنه تعالى ما أودع فيه إلا علومًا متناهية، مع كونها خارجة عن الحصر لنا. قال: وقد سألت بعض العلماء بالله تعالى: هل يصح لأحد حضر (أمهات) هذه العلوم؟=

وقد أوردنا فى باب الرواية من التاريخ أن أبا على الأسوارى القاص البليغ، فسر القرآن بالسير والتواريخ ووجوه التأويلات، فابتدأ فى تفسير سورة البقرة، ثم لبث يقص ستًا وثلاثين سنة، ومات ولم يختمه، وكان ربما فسر الآية الواحدة فى عدة أسابيع لا ينى ولا يتخف، وليس فى هذا الخبر شيء من المبالغة أو التزيد، بل عسى أن يكون الأمر مع أهل التحقيق والاطلاع أبلغ منه، وهذه كتب التفسير التى عدها صاحب (كشف الظنون) وسرد أسماءها فى كتابه، تبلغ ثلثمائة ونيفًا، والرجل إنما عد بعضها كما يقول. وأنت فلا يذهبن عنك أن كل كتاب منها هو فى المجلدات الكثيرة إلى مائة مجلد، و إلى ما يفوق المائة أحيانًا، فقد رأينا فى بعض كتب التراجم أن أبا بكر الأدفوى المتوفى سنة 388هـ صنف (كتاب الاستغناء) فى تفسير القرآن فى مائة مجلد، وكان منفردًا فى عصره بالإمامة فى أنواع من القراءات والعربية وفنون كثيرة من العلم،

= فقال: نعم، هى مائة ألف نوع، وتسعة وعشرون ألف نوع، وستمائة نوع، كل نوع منها يحتوى على علوم لا يعلمها إلا الله تعالى. اهـ بنصه.

قلنا: قد ألف بعض علماء القوم كتابًا سماه «تنبيه الأغنياء على قطرة من بحر علوم الأولياء» كانت هذه القطرة فيه زهاء ثلاثة آلاف علم، فترى ما عسى أن يكون البحر؟ اللهم إن السلامة فى الساحل، ولكن لبعض المحققين من مشايخ الصوفية دقائق فى التفسير لا تتفق لغيرهم لسمو أرواحهم ونور بواطنهم. ومنهم الإمام السلطان الحنفى صاحب المقام المشهور فى القاهرة. سمعه يومًا شيخ الإسلام البلقينى يفسر آية فقال: لقد طالعت أربعين تفسيرًا، فما وجدت فها شيئًا من تلك الدقائق. ويزعم الشيعة أن عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أملى ستين نوعًا من أنواع علوم القرآن، وذكر لكل منها مثالًا يخصه، وأن ذلك فى كتاب يروونه عنه، من طرق عدة، وهو فى أيديهم إلى اليوم، وذلك و إن كان قريبًا فيما يعطيه ظاهره، غير أنه بالحيلة على تقريبه من الحقيقة صار أبعد منها وأمحض فى الزعم.

وذكر الفيلسوف (أرنست رنان)[1] أنه وقف على ثبت يدل على أنه قد كان فى إحدى مكاتب الأندلس التى أحرقت تفسير للقرآن فى ثلاثمائة مجلد. وذكر الشعراني[2] فى كتابه (المنن) تفسيرًا قال إنه فى ألف مجلد.

وهذا كله غير ما أفرد بالتصنيف من الكتب والرسائل التى لا تحصى فى مسائل من القرآن وفى مشكله وغريبه ومجازه ومعانيه وضميره، وشواهده وأسلوب نظمه والمتشابه من آياته وأمثاله وحروفه وإعرابه وأسمائه وأعلامه وناسخه ومنسوخة وأسباب نزوله، إلى كثير من مثل ذلك مما حفيت فيه أقلام العلماء، بحيث لا يعلم إلا الله وحده كم يبلغ ما وضع لخدمة كتابه الكريم؛ ولا يعلم الناس من ذلك إلا أنه معجزة من معجزات التاريخ العلمى فى الأرض لم يتفق له فى ذلك شبيه من أول الدنيا إلى اليوم، ولن يتفق.

وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية، وبسطوا كل ذلك بسطًا ليس هو من غرضنا فنستقصى فيه[3] على أن هذا ومثله إنما يكون فيه إشارة ولمحة

(1) رينان (1823 - 1892م) فيلسوف فرنسى، له كتاب (ابن رشد والرشدية). ولجمال الدين الأفغانى محاورة معه فى باريس.

(2) الشعرانى، أبو محمد، عبد الوهاب بن أحمد (898 - 973هـ، 1493 - 1565م) من أعلام المتصوفة، وله آثار كثيرة أغلبها فى التصوف.

(3) من ذلك طريقة التصوير الشمسى بإمساك الظل، وهى فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ [الفرقان: 45]. فتأمل قوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ ﴾ فإن هذه الحروف تكاد تنطق بأن هذا الأمر سيكون لا محالة، ومنها كشفهم أن مادة الكون هى الأثير، والله تعالى يقول فى بدء الخلق ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت: 11]. ومنها ما حققوه من أن الأرض انفتقت من النظام الشمسى، والله تعالى يقول فى السموات والأرض: ﴿ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ [الأنبياء: 30]، ومنها=

ولعل متحققًا بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن وأحكم النظر فيه وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم ولا يلتوى عليه أمر من أمره.. لاستخرج منه إشارات كثيرة تومئ إلى حقائق العلوم و إن لم تبسط من أنبائها، وتدل عليها و إن لم تسمها بأسمائها، بلى و إن فى هذه العلوم الحديثة على اختلافها لعونًا على تفسير بعض معانى القرآن والكشف عن حقائقه، و إن فيها لجمامًا ودربة لمن يتعاطى ذلك؛ يحكم بها من الصواب ناحية، ويحرز من الرأى جانبًا؛ وهى تفتق لها الذهن، وتؤاتيه بالمعرفة الصحيحة على ما يأخذ فيه. وتخرج له البرهان و إن كان فى طبقات الأرض، وتنزل عليه الحجة و إن كانت فى طباق السماء.

ولا جرم أن هذه العلوم ستدفع بعد تمحيصها واتصال آثارها الصحيحة بالنفوس الإنسانية إلى غاية واحدة، وهى تحقيق الإسلام، وأنه الحق الذى

= ثبوت أنه لولا الجبال لاضطربت دورة الأرض؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: 15]، ومنها تحقيق أن كل شيء حى فهو من الماء وأن للجماد حياة قائمة بماء التبلور، وذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30]، ومنها ما كشفوه من تلاقح النبات وأنه أزواج، والله تعالى يقول: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: 53] و يقول: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ﴾ [الرعد: 3].

والكلام فى مثل هذا يطول، ولا ريب عندنا أن تحقيقه سيكون موضع كتاب الإعجاز يخرجه المستقبل برهانًا للإنسانية على حقيقة دين الإنسانية فلندعه لأهله (عفا الله عنا وعنهم) وعسى أن يكون لنا من دعائهم فى الرحمة والمغفرة ما لهم من دعائنا فى العون والتوفيق، إنه من تعليق المؤلف. قال مصححه: ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أنبه إلى المعانى الدقيقة التى وفق إليها الدكتور عبد العزيز إسماعيل فى كتابه(الإسلام والطب الحديث) وكان الرافعى من المعنيين به، كما كان عونًا له ومددًا فى كثير من شواهد كتابه (أسرار الإعجاز).

لا مرية فيه، وأنه فطرة الله التى فطر الناس عليها، وأنه لذلك هو الدين الطبيعى للإنسانية؛ وسيكون العقل الإنسانى آخر نبى فى الأرض، لأن الذى جاء بالقرآن كان آخر الأنبياء من الناس، إذ جاءهم بهذا الدين الكامل، ولا حاجة بالكمال الإنسانى لغير العقول ينبه إليه بعضها بعضًا، ومن لا يجب داعيا لله فليس بمعجز فى الأرض!

وقد أشار القرآن إلى نشأة هذه العلوم و إلى تمحيصها وغايتها على ما وصفناه آنفًا، وذلك قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: 53]، ولو جمعت أنواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت فى معانيها من قوله تعالى: ﴿ فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ هذه آفاق، وهذه آفاق أخرى، فإن لم يكن هذا التعبير من الإعجاز الظاهر بداهة فليس يصح فى الأفهام شيء.

ذلك وأن من أدلة إعجاز هذا الكتاب الكريم أن يخطئ الناس فى بعض تفسيره على اختلاف العصور، لضعف وسائلهم العلمية ولقصر حبالهم أن تعلق بأطراف السموات أو تحيط بالأرض، ثم تصيب الطبيعة نفسها فى كشف معانيه؛ فكلما تقدم النظر، وجمعت العلوم، ونازعت إلى الكشف والاختراع، واستكملت آلات البحث، ظهرت حقائقه الطبيعة ناصعة حتى كأنه غاية لا يزال عقل الإنسان يقطع إليها، حتى كأن تلك الآلات حينما توجه لآيات السماء والأرض توجه لآيات القرآن أيضًا ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: 21].

ذلك هو الأمر فى العلوم الأولى ثم الله ينشئ النشأة الآخرة[1].

(1) (إعجاز القرآن) ص 82 - 91.